معهد الدعوة الجامعي
للدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا
لبنان - بيروت

حركة الجهاد والفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية وأثرهما في الدعوة إلى الله تعالى وانتشار الإسلام

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية

إعداد الطالب:
ناصر بن محمد بن عبد الله الأحمد

إشراف
الدكتور عبد الرحمن بن عثمان حجازي

العام الجامعي
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

شكر وتقدير

هذا وأحمد الله تعالى وأشكره على عظيم منّته وكريم فضله حيث أعانني على كتابة هذه الرسالة التي أرجو أن تكون على الوجه الذي يرضيه، وأن تكون خالصاً صواباً نافعاً، وله الحمد على نعمه التي لا تحصى.

ثم أتوجه بالشكر إلى أستاذي المشرف على هذه الرسالة الدكتور **عبد الرحمن بن عثمان حجازي** الذي زوّدني بنصائحه وتوجيهاته القيمة والتي أسهمت في إنجاز هذه الرسالة وتخطي ما يعرض فيها من إشكال. وكانت ملاحظاته التي تصلني وتصويباته على مسودة الرسالة فرصة للاستفادة من علمه وتجاربه. فله مني جزيل الشكر والتقدير، وأسأل الله القدير أن يجزل له المثوبة وأن يرفع منزلته في الدنيا والآخرة.

ثم أثني بالشكر لمعهد الدعوة الجامعي – قسم الدراسات العليا – الذي هيأ لي الفرصة لمواصلة تحصيلي، وقد وجدت من المسؤولين الكثير من التفاهم والتعاون وعلى رأسهم عميد الكلية سماحة الشيخ الدكتور **عبد الناصر جبري**، ورئيس قسم الدراسات العليا الشيخ الدكتور **هلال درويش** أثابهما الله في الدنيا والآخرة.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً. والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ناصر بن محمد بن عبد الله الأحمد

في ١٤٢٩/٦/١هـ

الموافق ٢٠٠٨/٦/٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[١]، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[٢]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)[٣]، فلو أردنا أن نطلق على دولة من الدول في العصور الإسلامية الأولى أنها دولة الفتوحات فلن نجد غير الدولة الأموية تحظى بهذا اللقب، وليس شيء من شعائر الإسلام يثير رعب أعدائه مثل الجهاد، وليس أمر حرص المستعمرون وأتباعهم على تشويهه وتفريغ قلوب المسلمين وعقولهم منه كهذه الفريضة.

وما من مناسبة ذكر فيها المسلمون كلمة (الجهاد) إلا وكانت بمثابة ناقوس خطر يثير في أعدائهم مزيجاً من مشاعر الرهبة والغضب، يوازيه عمل دائب بشتى السبل للحد من أثر الجهاد النفسي والعملي، وفي فترة سبات طويل اجتمعت فيها أسباب كثيرة جعلت المسلمين ينظرون إلى كثير من مفردات دينهم نظرة خاطئة، ويجردوها من معانيها الأصلية، ويلبسونها معاني ليست لها، وهي في الحقيقة معانٍ تعكس ضعفهم ورضاهم بالواقع، ويتمثل فيها خداعهم لأنفسهم وتسويل الشياطين لهم، وكان مفهوم الجهاد من

---

[١] سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

[٢] سورة النساء، الآية: ١.

[٣] سورة الأحزاب، الآية: ٧٠–٧١.

تلك المعاني التي تُلُوعِب في معناها، فالتبس مفهومه على الكثيرين، مع أنـــه مـــن أشـــد المفاهيم وضوحاً وتوضيحاً، سواء في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة، فمثلاً لم يكـــن يتصور أحد من الصحابة رضي الله عنهم أن يحقق معنى الإسلام في نفسه دون أن يشارك في الجهاد، وهكذا اندفعوا في كل اتجاه حاملين دين الله تعالى يبلغونه للعالمين، فكم منهم مات في مسقط رأسه يا ترى؟ وهل يدري مسلمو اليوم كم قضى من أولئـــك الحـــشد الكريم في البلاد البعيدة؟ وإلى أي مدى وصلت بهم هممهم العالية؟ هكذا كان الرعيـــل الأول في التاريخ الإسلامي. ومع أن فقه الجهاد وما يتعلق به محدد ومفـــصل في كتـــب الفقه، ومحفوظ ومدروس إلا أن الجهاد العملي لا زال يتقلص وينحسر حتى هبت علـــى المسلمين فترة انقلب فيها فهمه رأساً على عقب، ووصل المسلمون في الأعصر الحاضـــرة إلى مرحلة فاصلة، عطلت فيها كثير من أحكام الإسلام ومفاهيمه، وأجبر الناس جـــبراً، وعلى غير رضاً منهم، على العيش في ظل مفاهيم غريبة عن عقيدتهم ودينهم، وأصـــبح الجهاد بمعناه الشرعي بعيداً عن أفكارهم وتوجهـــاتهم، وذلـــك لا يمكـــن معالجتـــه إلا بإدراكهم لحقيقة دينهم وحقيقة واقعهم وما هم عليه من حال بعيدة عما يرضاه الله تعالى لهم، ولكن الرضا عن هذا الواقع المؤلم والاحتجاج له بالحجج الواهية غير مقبـــول، ولا يقل خطراً وأثراً تخريبياً عن المذاهب الهدامة والبدع المدمرة التي يـــستعين مروجوهـــا - إضافة إلى الحديد والنار وحيل الاستعمار - بشراء الفتاوى الباطلة لتتقبلها الجماهير بأقل ما يمكن من التكاليف والجهود.

إن الجهاد هو الجهاد، بذل لكل ما يمكن من الجهود في سبيل الله تعالى، ومدافعة أعداء الله تعالى وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم بكل ما يستطاع من القـــوة: قـــوة البدن، وقوة السلاح، وقوة المال، وقوة العلم والمعرفة، على هذا استقر الإســـلام يـــوم استقر، وبعيداً عن هذا الفهم الجامع لمعنى الجهاد نزلت بنـــا الكـــوارث، وفعلـــت بنـــا الأفاعيل.

وتمر الأمة الإسلامية اليوم بظروف عصيبة تكالب فيها الأعداء وتنادوا من كـــل صوب، وتداعوا على حرب الإسلام وأهله الصادقين، وذلك في حملة شرسة وحقد دفين،

يبتغون من حربهم مسخ الإسلام في قلوب أهله، وجر المسلمين إلى التبعية للغرب المستعمر الظالم، وساعدهم في ذلك المنافقون من بني جلدتنا، فجاءت الحرب شاملة من خارج الأمة ومن داخلها، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]. ومع إيماننا بحتمية الصراع بين الحق والباطل، وأن جهاد الكفار أصبح أمرًا مفروضًا على المسلمين دفاعًا عن الدين والعرض حتى لا تكون فتنة. والناظر في أحوال أمته اليوم وما عليه من ضعف إيمان، وركون إلى الدنيا، وترهل في الهمم والأجسام، ويأس وإحباط لَيَشعُر بالخطر على نفسه وعلى أمته، ويفرض عليه ذلك المبادرة مع إخوانه في وضع برامج علمية وعملية لإعداد النفوس وإحياء الجهاد وتحديث النفس به.

- سبب اختيار البحث:

لقد بدأ اهتمامي وشغفي بالقراءة في التاريخ الإسلامي منذ زمن مبكر، وتكونت لديَّ مكتبة متكاملة في هذا الباب، وقد قرأت واطلعت على عشرات المجلدات في تاريخنا الإسلامي عند بداية الطلب وأثناء دراستي الجامعية، ومن خلال تلك المطالعات استوقفني ذلك الانجاز المذهل في الفتوحات الإسلامية وما قدمه أولئك الرجال من تضحيات وبذل، فحققوا في فترة وجيزة من عمر التاريخ ما تعجز أمم بأكملها عن تحقيقه في مئات السنين.

واخترت أن يكون موضوع أطروحتي عن فتوحات الدولة الأموية بالذات مع أن الفتوحات بدأت منذ أيام الخلافة الراشدة واستمرت إلى ما بعد الدولة الأموية، بيد أني وجدتها هي دولة الفتوحات من حيث الانتشار والاتساع، حتى وصل امتدادها في بعض الفترات، أنها كانت تفرض سيطرتها على البلاد الممتدة من الصين شرقاً إلى أوروبا غرباً.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٣٢.

فرأيت أنه من المناسب إبراز هذا الانجاز للأجيال القادمة لتعرف تاريخها، لعل ذلـــك أن يشحذ شيئاً من الهمم فتقتدي بأولئك الأفذاذ فيعيدوا للأمة شيئاً من عزها الغائب في زمن الغربة.

- الهدف من البحث:

الهدف من هذا البحث هو خدمة الإسلام والتقرب إلى الله تعـــالى مـــن خـــلال إخراج بحث مستقل عن حركة الجهاد والفتوحات في عهد الدولة الأموية، ودراسة الآثار والنتائج التي ترتبت على ذلك، والأهم منه معرفة الأسباب التي كانت وراء هذا الإنجـــار الضخم في زمن قصير من عمر التاريخ؛ ليكون ذلك زاداً لأجيال الأمة الناشئة، ونبراســـاً لها على طريق الجهاد، وإعادة صياغة هذه الأمة صياغة جديدة لتعود إلى مجدها وعزهـــا ومكانتها.

- البحوث السابقة:

هناك عشرات الكتب والرسائل والدراسات عن الدولة الأموية قـــديماً وحـــديثاً، وهذه الكتب والدراسات إما أنها تتفرد بالعرض التاريخي بتسلسل عهد خلفاء الدولة، وما حصل من وقائع وأحداث، وإما أنها تخصص بعض هذه الدراسات والكتب والرسائل في جوانب معينة محدودة من تاريخ هذه الدولة العريقة، كأن يسلط الضوء عـــن الجوانـــب المالية أو العسكرية أو السياسية لدى الدولة الأموية.

و لم أقف على بحث مستقل تخصص في دراسة حركة الجهاد والفتوحات لـــدى الدولة الأموية من حيث استيعاب الحوادث ومعرفة الأسباب ثم النتائج المترتبة على ذلك. ولا أدَّعي أني قد استكملت حلقات الموضوع، لكن هذا جهد المقل، وأسأل الله تعـــالى القبول، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

- حدود البحث:

اقتصر بحثي على الجهاد في الدولة الأموية فقط، دون البحث في حركة الفتوحات السابقة لذلك، والفتوحات التي حدثت بعد الدولة الأموية، وسيبقى الجهاد إلى قيام الساعة، وهذا قدر هذه الأمة أن تبقى تصارع أعدائها، فما دام هناك حق وباطل في هذه الأرض فالصراع بينهما قائم ولا يهدأ ولا ينتهي.

- صعوبات واجهتني:

لم أواجه بفضل الله تعالى صعوبة في جمع المادة العلمية، ذلك أن فتوحات الدولة الأموية قد استفيض الحديث عنها في العشرات من كتب التاريخ قديماً وحديثاً، لكن هذا الموضوع حسب علمي لم يفرد ببحث مستقل بهذه الكيفية من قبل، وإنما هو منثور في بطون كتب التاريخ والتراجم والسير، وتكمن صعوبته في استخراج مادته وانتقائها بعد قراءة مستفيضة بل مطولة جداً في كتب التاريخ حتى تتجمع المادة المطلوبة لموضوع الرسالة.

لكن الصعوبات النفسية كانت تلازمني ولا تفارقني وهي إحساسي بعمق وثقل الرسالة، وخوفي ألاّ أوفي البحث حقه، ولعلي بما تيسر أكون أديت ما هو مطلوب.

- منهج البحث:

لقد استقر الأمر بحمد الله تعالى على أن يجري الكلام في أربعة أبواب، وتحت كل باب عدد من الفصول.

وفي مجال التوثيق أذكر بعد الآية اسم السورة التي وردت فيها ورقم الآية.

وقد خرجت الأحاديث من كتب السنة المعتمدة.

وقد ترجمت للرجال الذين ورد ذكرهم في أصل الرسالة باختصار، وكذلك عرفت بالأماكن والبلدان، معتمداً المنهج التاريخي في البحث ومتكئاً على المنهج التحليلي والوصفي في استخلاص النتائج.

هذا وقد جرى البحث حسب الخطة الآتية:

المقدمة: وذكرت فيها سبب اختيار الموضوع وأهميته، وأهم الصعوبات، ولمحات في المنهج وخطة البحث.

الباب الأول: الدولة الأموية.

- الفصل الأول: التعريف بالدولة الأموية وخلفائها:

تناولت فيه قيام الدولة الأموية، وما أصاب تاريخ الدولة من التشويه، وعرضت الاتهامات التي وجهت لبني أمية، ثم استعرضت خلفاء بني أمية من خلال الأسرة السفيانية ثم الأسرة المروانية.

- الفصل الثاني: النظام الإداري في الدولة الأموية:

تحدثت في هذا الفصل عن أهم المؤسسات الإدارية والأمنية التي أنشأها كل من معاوية رضي الله عنه وعبد الملك بن مروان رحمه الله من خلال إنشائهم للدواوين، وحرصهم على توطين الأمن، ثم تعرضت لحركة تعريب الدواوين.

- الفصل الثالث: النظام العسكري في الدولة الأموية:

تناولت في هذا الفصل التخطيط الدقيق والمحكم لسياسة الدولة في الفتوحات، واهتمامها بالحدود البرية، وبالأسطول البحري، وبديوان الجند والعطاء، والمراكز العسكرية التي بناها الأمويون، وأدوات حربهم.

- الفصل الرابع: الجهاد في الدولة الأموية:

وقد تحدثت فيه عن: الدعوة إلى الجهاد، أهداف الجهاد عند المسلمين، من يأمر بالجهاد ويشرف عليه، وجوب الثبات أمام العدو، موقف الإسلام من القاعدين عن الجهاد، الهدنة أو السلم مع الأعداء، موالاة الأعداء، الإعداد للقوة في الإسلام، مصادر السلاح، والإنفاق على الجهاد في الدولة الأموية.

الباب الثاني: ميادين فتوحات الدولة الأموية.

- الفصل الأول: الميدان الشمالي البيزنطي:

تناولت في هذا الفصل فتوحات الدولة الأموية في منطقة الشمال البيزنطي، التخطيط للاستيلاء على القسطنطينية، الفتوح في أرمينية، الفتوح في أرض الروم، وجهاد الدولة في البحر الأبيض المتوسط.

- الفصل الثاني: الميدان الأفريقي:

ويتناول جهاد عقبة بن نافع رضي الله عنه في فتح أفريقية، ثم فتوحات حسان بن النعمان الغساني، ثم فتح قرطاجنة.

- الفصل الثالث: الميدان الأوروبي:

يتناول فتح الأندلس، ثم معركة طولوشة، ثم توقف الفتوحات في معركة بلاط الشهداء.

الفصل الرابع: الميدان الآسيوي:

ويشمل فتوحات الدولة في إقليم بخارى، ثم في سمرقند، والسند.

الباب الثالث: الدعوة إلى الله تعالى وقادة الفتح في الدولة الأموية.

- الفصل الأول: الدعوة إلى الله:

يتناول هذا الفصل الحديث عن أهمية الدعوة إلى الله، فضائل الدعوة إلى الله، لماذا الدعوة إلى الله، عالمية الدعوة والرسالة، مراكز الدعوة، بعثات الدعاة، الدعوة والجهاد في العصر الحالي.

- الفصل الثاني: قادة الفتوحات في الدولة الأموية:

مسلمة بن عبد الملك، المهلب بن أبي صفرة، قتيبة بن مسلم، محمد بن القاسم، أبو مسلم الخولاني، عقبة بن نافع، أبو محمد البطال، حسان بن النعمان الغساني، موسى بن نصير.

الباب الرابع: أسباب انتشار الإسلام وترسيخ الفتح في العهد الأموي والآثار المترتبة عليها.

- الفصل الأول: أسباب انتشار الإسلام:

مشاركة عدد من العلماء في الجيوش الأموية، نشر العلم، القوة الإدارية لدى الدولة الأموية، معاملة أبناء البلاد المفتوحة معاملة كريمة، الحرص على سلامة الجيوش الإسلامية، الشورى في عمليات الفتح، الاهتمام بالحدود البرية، سياسة عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تثبيت الفتح.

- الفصل الثاني: الآثار المترتبة على الفتح:

الأثر الحضاري، الأثر الثقافي، انتشار الإسلام.

- خاتمة البحث: العالم لا يحترم إلا القوي، نهاية مؤلمة.

- خلاصة البحث.

الباب الأول
الدولة الأموية

- الفصل الأول: الدولة الأموية وخلفاؤها:
  - أ- التعريف بالدولة الأموية.
  - ب- الخلفاء الأمويون.
- الفصل الثاني: النظام الإداري في الدولة الأموية:
  - أ- المؤسسات الإدارية:
    - ١- ديوان الرسائل.
    - ٢- ديوان العطاء.
    - ٣- ديوان الخاتم.
    - ٤- ديوان الطراز.
    - ٥- ديوان البريد.
    - ٦- ديوان المظالم.
    - ٧- الكتبة.
  - ب- المؤسسات الأمنية:
    - ١- الحاجب.
    - ٢- الحرس.
    - ٣- الشرطة.
    - ٤- حسن اختيار الرجال والأعوان.
  - ج- تعريب الدواوين.
- الفصل الثالث: النظام العسكري في الدولة الأموية:
  - أ- السياسة العسكرية:
    - ١- رواتب الجند.

٢- نفقات الصناعات الحربية.

٣- السياسة العسكرية تجاه الروم.

٤- السياسة العسكرية في الشمال الأفريقي.

٥- السياسة العسكرية في جبهة سجستان وخراسان.

ب- ميزات النظام العسكري:

١- الشورى في إدارة حركة الفتح.

٢- مركزية القيادة والإمداد.

٣- الألوية والرايات.

٤- الاهتمام بالعيون والبريد.

٥- حماية الحدود البرية.

٦- تعزيز الأسطول البحري.

٧- الاهتمام بديوان الجند والعطاء.

ج- المراكز العسكرية التي أسسها الأمويون:

١- بناء واسط.

٢- بناء تونس.

٣- بناء القيروان.

٤- بناء الرملة.

٥- بناء جرجان.

د- أدوات الحرب الأموية:

١- السيف.

٢- الرمح.

٣- القوس.

٤- الدرع.

٥- البيضة.

٦- المنجنيق.

٧- الدبابات.

٨- الرايات والأعلام.

- الفصل الرابع: الجهاد في الدولة الأموية:

أ- مفهوم الجهاد وأهدافه:

١- الدعوة إلى الجهاد.

٢- أهداف الجهاد عند المسلمين.

٣- من يأمر بالجهاد ويشرف عليه.

ب- وجوب الثبات أمام العدو.

ج- موقف الإسلام من القاعدين عن الجهاد.

د- الهدنة أو السلم مع الأعداء.

هـ- موالاة الأعداء.

و- الإعداد للقوة في الإسلام:

١- الإعداد الإيماني.

٢- الإعداد النفسي.

٣- التدريب.

ز- مصادر السلاح:

١- السوق المحلية.

٢- مصادرة أسلحة العدو.

٣- التعاقد مع الجهات المالكة للسلاح.

٤- التصنيع الذاتي من قبل الجيش الإسلامي.

ح- الإنفاق على الجهاد في الدولة الأموية:

١- الزكاة.

٢- الجزية.

٣- الخراج.

٤- العشور.

٥- الصوافي.

٦- خمس الغنائم.

الفصل الأول
الدولة الأموية وخلفاؤها

أ- التعريف بالدولة الأموية (٤٠ - ١٣٢هـ/٦٦٠ - ٧٥٠م).

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم ١٧ رمضان عام ٤٠هـ/٦٦٠م، "ويعد بدء الدولة الأموية حين تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يوم ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ/٦٦١م، واستمرت الدولة الأموية حتى معركة الزاب التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية حيث هُزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وذلك في ١١ جمادى الأولى عام ١٣٢هـ/٧٥٠م. وبذا فقد دامت هذه الدولة ما ينوف على إحدى وتسعين سنة"(١).

وجاءت مشاركة الأمويين في الفتوحات باكرة، فقد شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط* مع خالد بن الوليد رضي الله عنهما في فتوح العراق الأولى، "وأرسله خالد إلى أبي بكر رضي الله عنهم بالغنائم وبشارة الفتح وأخباره عن جمع جديد من الفرس، ثم وجهه الخليفة مدداً إلى عياض بن غنم رضي الله عنه** الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة

---

(١) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٤، ص٦١.

* من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة، وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق، ثم ولاه عمر رضي الله عنه صدقات بني تغلب، توفي عام ٦١هـ/٦٨١م بالرقة. (الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٠، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٨، ص١٢٢).

** عياض بن غنم بن زهير الفهري، قائد، من شجعان الصحابة، أسلم قبل الحديبية وشهد بدراً وأحداً والخندق، ونزل الشام وتوفي بها عام ٢٠هـ/٦٤١م وهو ابن ستين سنة. (الأعلام، الزركلي: ج٥، ص٩٩).

الشمال، وكان يحاصر دومة الجندل* فيجد العنت والمشقة في فتحها، فأشار عليه الوليد بن عقبة باستمداد خالد بن الوليد رضي الله عنهم فاستمده، فأنجده وفتحوا معاً دومة الجندل، ثم ولاه أبو بكر رضي الله عنه على النصف من صدقات قضاعة مما يلي دومة الجندل، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله تعالى ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه، فأجابه بإيثار الجهاد فوجهه إلى الشام"(١).
وكان أول لواء عقده أبو بكر رضي الله عنه في حروب الشام "لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضاً"(٢)، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشياً، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى "يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم"(٣). يقول الذهبي رحمه الله عن يزيد بن أبي سفيان: "وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه وكمال دينه"(٤). "ثم اتبع الصديق بأناس آخرين يرغبون في الجهاد وألحقهم بجيش يزيد وجعل عليهم أميراً معاوية بن أبي سفيان

* دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، وهي على سبعة مراحل من دمشق، وسميت بذلك لأن حصنها مبني بالجندل، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد. (الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، تحقيق فريد الجندي، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٢، ص٥٥٤).

(١) شاهين، حمدي: الدولة الأموية المفترى عليها، القاهرة، دار القاهرة للكتاب، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص١٤٩.

(٢) ابن جرير الطبري، أبو جعفر محمد (ت: ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الأمم والملوك، بيروت، روائع التراث العربي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ج٣، ص٣٨٧.

(3) المصدر السابق ذاته، ج٣، ص٣٩٤.

(4) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج١، ص٣٢٩.

رضي الله عنه"[١]. وخرج أبو سفيان بن حرب وهو "يومئذ شيخ كـبير، واشـترك في الجهاد في الشام أيضاً خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعـاً هناك واستشهدوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجـل من بني سعيد بن العاص شهيداً"[٢].

ولقد أصاب تاريخ بني أمية الكثير من التشويه، حتى أصبح الكثير مـن النـاس يظنون أن الإسلام لم يُمكّن له إلاّ في العهد النبوي والراشدي، وقد يكون تشويه تـاريخ بني أمية لا يقصد به إلاّ ذاتهم إلاّ أن ذلك يمس الحكم الإسلامي أصلاً. وقد طَعن بهـذا العهد جهات متعددة، طعن به خصومهم السياسيون من بني العباس حيث دُوّن التـاريخ في أيامهم، وطعن به أعداؤهم التقليديون من الشيعة والخوارج، الذين ذاقوا على أيـديهم أعنف الضربات، وطعن به أيضاً من بعض المسلمين الذين هالهم ما أصاب انتقال الحكم من شورى في عهد الخلفاء الراشدين إلى نظام ملكي أيام الأمويين، وهو أمر على غايـة من الأهمية، وصعُب عليهم ما أصاب آل البيت من نكبات، وما حلّ بالبيت الحرام مـن أذى، وما لحق بآل الزبير من مصائب، وما قسا به ولاتهم على المسلمين، وطَعن بالعهـد العوام الذين لا يعرفون من التاريخ إلاّ ما تناقلته الألسن وشاع بين الناس، وما تداولتـه الأيدي من كتب - الله أعلم بواضعيها -، هؤلاء جميعاً شنّعوا على الأمويين دون تفريق، قد يكون بعضهم بقصد وآخرون من غير قصد. وساعد على قبول الناس مثـل هـذه الروايات، تأخر أكثر بني أمية في قبول دعوة الإسلام، حتى وقف أكثـرهم في الـصف المعادي تماماً للدعوة، بل قادوا قريشاً لحرب الإسلام، وجيّشوا الجيوش وحزّبوا الأحزاب ضد المسلمين.

أنست هذه المواقف الناس حسن إسلام أبي سفيان رضي الله عنه بعد فتح مكـة المكرمة مباشرة وتولية رسول الله صلى الله عليه وسلم له على نجران، ووفاته عليه الصلاة والسلام وهو عنه راض، وأرسله أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى اليمن؛ ليكون علـى

[1] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٣، ص٣٩١.

[2] شاهين، حمدي: الدولة الأموية المفترى عليها، مصدر سابق، ص١٥٠.

الصدقات، وحسن صنيعه في الجهاد، إذ سار مع الجيوش المجاهدة إلى الشام وحث أبناءه على الجهاد والتضحية في سبيل الله[(١)].

وساعد في إظهار معايب بني أمية الخلاف الذي جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وقد اجتهد كل منهما لمصلحة المسلمين والسير على الطريق الصحيح، وساعد على قبول هذه الروايات:

١- النكبات التي حلّت بآل البيت، بل التي توالت عليهم، وبخاصة حادثة كربلاء التي نزلت بآل البيت واستشهد فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما، وأكثر إخوانه وأبنائه.

٢- شدة بعض ولاة بني أمية أمثال زياد بن أبيه* على الرعية "الذي أخضع الكوفة والبصرة وما حولهما، وابنه عبيد الله الذي سار على نهج أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي الذي تعسف في إمارته لتوطيد سلطان بني أمية، وضربت به الأمثلة في الظلم، وقتل الرجال"[(٢)].

لقد استغل خصوم بني أمية هذه الأحداث التي وقعت في عهدهم وبعض الحوادث السالفة لعصرهم فشوّهوا تاريخهم بشكل عام، واتخذت الافتراءات على بني أمية أشكالاً مختلفة، منها:

١- تسليط الأضواء على الأحداث التاريخية التي تضع من مكانة بني أمية، مثل تأخرهم في اعتناق الإسلام، وقيادتهم قريشاً والأحزاب للوقوف في وجه الدعوة، وعمدوا إلى إغفال دور الأمويين الذي قاموا به بعد الإسلام، في الفتوحات وقيادة الجيوش وكل ما يمت إلى رفع مكانتهم.

٢- تسليط الأضواء على النكبات التي حدثت في عهد الأمويين مثل فاجعة كربلاء ومقتل الحسين رضي الله عنه، ووقعة الحرة واستباحة المدينة المنورة، وضرب مكة، ومقتل

---

(١) انظر، شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٥-٧.

* زياد بن أبيه: من الدهاة القادة الفاتحين، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره وأسلم في عهد أبي بكر، كان العضد الأقوى لمعاوية رضي الله عنه، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، توفي عام ٥٣هـ/٦٧٣م. (الأعلام، الزركلي: ج٣ ص٥٣).

(٢) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص١٥.

عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وثورة زيد بن علي بن الحسين ومقتله، فاتهم فيها بنو أمية دون غيرهم، وأغفلت جوانب الخطأ التي وقعت من الخروج على الحاكم وتفرقة المسلمين.

٣- تسليط الأضواء على بعض الأمور التي تقع أثناء ضعف النفس البشرية من بعض الرجال، وإغفال كل جوانب الخير، وأعمال المجد والتضحية.

لم يكن عهد بني أمية عهداً إسلامياً سليماً كما كان أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء الراشدين، غير أن الوضع الإسلامي قد مال إلى التدهور قليلاً منذ انتهى العهد الراشدي وبدأت زاوية الانحراف تنفرج تدريجياً مع الزمن.

لقد بدأ الانحراف حين غدا الحكم ملكياً وراثياً وإن أُطلق عليه (خلافة)، ثم زاد الانحراف بتصرف الحكام والولاة في كثير من الأحيان ببيت المال حسب أهوائهم وآرائهم، وإن كانت لا تخرج عن الجادة إلاّ في حالات قليلة.

أما المجتمع الإسلامي فقد بقي شبيهاً للمجتمع الإسلامي السائد، "إذ بقي شبيهاً للحياة أيام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، وإن كانوا قد تأثروا بعض الشيء بحياة الأمم الأخرى بسبب ما غنموا من أموال وأملاك، وما دخل البيوت من إماء وسبايا. وكل هذا يجعل الناس يخلدون إلى الراحة، ويرتبطون بالأرض، ومع هذا فقد كان عنصر الإيمان يملأ نفوسهم، فما أن يدعو داعي الجهاد حتى يتركوا الحياة المرفهة التي مارسوها، والنعيم الذي اعتادوا عليه، وينطلقون مجاهدين في سبيل الله تعالى، وبهذه الروح استطاعوا أن يفتحوا مناطق واسعة من العالم المعمور آنذاك، فوصلت فتوحاتهم إلى الصين شرقاً وإلى وسط فرنسا غرباً، وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها، ووصلت إلى حدود لم يسبق لها أن وصلت إليها"(١).

لقد ظلم بعض الكُتّاب بني أمية ظلماً كثيراً إذ طمس فضائلهم وإيجابياتهم! وتوسع في ذكر السلبيات أو في افتراء الكذب عليهم، فنسب لهم ما لم يكن منهم، واختلق

(١) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٤٨.

حوادث لم تقع في أيامهم، ويعود ذلك إلى أن تدوين التاريخ إنما كان في عهد خصومهم السياسيين.

ومن أهم ما وجهت إلى بني أمية من انتقادات اغتصابهم الخلافة وجعلها وراثية، وقسوة الولاة، وشدة طاعة أهل الشام لهم، والمصائب التي حلّت بآل البيت، وانتشار اللهو والفساد في عصرهم. ومع هذه الانتقادات التي صحّ بعضها، وغالى أعداؤهم في بعضها الآخر مغالاة كبيرة، وسبح خيالهم في تدوين جزءٍ منها، ومع هذا فإن فضائلهم كثيرة أغفل بعض المؤرخين ذكرها، ويمكن الإشارة إلى بعضها:

- كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما صحابياً جليلاً والصحابة كلهم عدول، وإن اجتهد في بعض القضايا و لم يوفق في الاجتهاد، و لم يحالفه التوفيق في النتائج إلاّ أنه يبقى صحابياً عدلاً.

- وكان مروان بن الحكم من الطبقة الأولى من التابعين، وقد روى الحديث عن عمر بن الخطاب وعن عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

- وكان عبد الملك بن مروان من أهل العلم.

- وكان سليمان بن عبد الملك تقيّاً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو.

- وكان عمر بن عبد العزيز من أئمة الاجتهاد، ويعتبر من الخلفاء الراشدين.

- وكان بنو أمية يقدمون أهل العلم والفضل غالباً فيولونهم الولايات، ويسلمونهم قيادة الجيوش، وينصبونهم للقضاء، ويستشيرونهم في الأمور والملمات. و لم يتدخل بنو أمية في شؤون القضاء أبداً، وإنما كانوا يعينون القضاة من خيرة أهل العلم ويدعونهم وشأنهم، ويخشون أن تقع منهم حادثة يرجعون فيها إلى القضاء؛ لأن ذلك يؤدي إلى الحكم عليهم، ولابدّ من تنفيذ ما أمر به القاضي عليهم ولو كانوا هم الحكام.

ويكفي أن نقرّ بفضل بني أمية من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خَيرُ النَّاسِ قَرنِي ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِين يَلُونَهُم)[١]. وبنو أمية عاشوا في القرن الذي يلي قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك القرن خيار كثير من الناس.

ومن فضائل بني أمية الفتوحات الواسعة التي تمّت على أيديهم والتي امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك إلى الصين في الشرق وإلى بلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في الغرب، و لم تكن الفتوحات لتتم على أيدي القادة والخلفاء، وأبناؤهم ينعمون بحياة البذخ في القصور، بل إن الخلفاء أنفسهم "كانوا يرسلون أبناءهم إلى الجهاد، فقد أرسل معاوية رضي الله عنه ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مرات للغزو في بلاد الروم، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تُعدّ. وأولاد الوليد بن عبد الملك يقودون الغزو في بلاد الروم. أما هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بني مروان جميعاً، ومن يتأخر منهم يمنع عنه العطاء، وكان أولاده في مقدمة الغزاة"[٢].

ب- الخلفاء الأمويون:

ينتسب الأمويون إلى "أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم، وكان بنو عبد مناف بن قصي عصبة موحدة في محاولتهم اقتسام السلطة في مكة مع بني عمهم عبد الدار بن قصي الذي فضّله والده على سائر أبنائه رغم شرفهم عليه، وجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وكان زعيم هذه المحاولة هو عبد شمس أبو أمية إذ كان رأس بني عبد مناف، وتفرقت قريش على ذلك بين فريقين: عبد مناف وعبد الدار، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار، فولي الرفادة والسقاية هاشم

---

[١] القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ/٨٧٥م): صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. ج٤، ص١٩٦٢، رقم الحديث ٢٥٣٣.

[٢] شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٥٠-٥٦.

بن عبد مناف، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً قلما يقيم بمكة وكان مقلاً ذا ولد، وكان هاشم موسراً"[١].

وقد توالت على الدولة الأموية أسرتان، وكان خلفاؤهما اثني عشر خليفة.

أولاً: الأسرة السفيانية: وقد حكمت أربعة وعشرين عاماً ٤١-٦٤هـ/٦٦١-٦٨٤م، وتوالى منها خليفتان هما:

١- معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م).

٢- يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٤م).

"ولا يعد معاوية بن يزيد خليفة ما دامت الأمة لم تجمع عليه، وإنما كانت البيعة لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وقد بقي تسع سنوات خليفة في الحجاز واليمن والعراق وخراسان، ويعد هو الخليفة الشرعي من ٦٤-٧٣هـ/٦٨٤-٦٩٢م، أي من وفاة يزيد وحتى مقتله رضي الله عنه"[٢].

ثانياً: الأسرة المروانية: وقد حكمت سبعة وستين عاماً ٦٤-١٣٢هـ/٦٨٤-٧٥٠م، وتوالى منها عشرة خلفاء هم:

١- عبد الملك بن مروان (٧٣-٨٦هـ/٦٩٢-٧٠٥م).

٢- الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م).

٣- سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٨م).

٤- عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١هـ/٧١٨-٧٢٠م).

٥- يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م).

٦- هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م).

٧- الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ/٧٤٣-٧٤٤م).

٨- يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦-١٢٦هـ/٧٤٤-٧٤٤م).

---

[١] الصلابي، علي محمد: الدولة الأموية، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج١، ص٢٣.

[٢] شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٦١-٦٢.

٩- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦-١٢٧هـ/٧٤٤-٧٤٥م).
١٠- مروان بن محمد بن مروان (١٢٧-١٣٢هـ ٧٤٥-٧٥٠م).

وبذلك لا يعد ملك معاوية الثاني ومروان بن الحكم وجزء من حكم عبد الملك بن مروان خلافة "وإنما استئثاراً واغتصاباً في جزء من أرض الإسلام".[١]

كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أول الخلفاء الأمويين ومؤسس دولتهم. تولى الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة بعد مقتل والده علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبقي الحسن في الخلافة ستة أشهر رأى خلالها أن من مصلحة الأمة أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فدعا معاوية رضي الله عنه إليه فوافق وسُرَّ بذلك، وتنازل له الحسن في الخامس والعشرين من ربيع الأول عام واحد وأربعين للهجرة، ودخل هو والحسن الكوفة راكبين وسمي ذلك العام بعام الجماعة لاجتماعهم على إمام؛ حيث عاد المسلمون إلى وحدهم بعد خلاف استمر خمس سنوات.

"لقد كانت خلافة معاوية رضي الله عنه خيراً للمسلمين، إذ انتهت مدة الفوضى والقتال وطمع الأعداء باستعادة المراكز التي تخلو عنها، إذ وجّه المسلمون قوهم إلى الخارج حيث عاد الجهاد وحدثت الفتوحات وقطع الروم بخاصة أملهم في الرجوع إلى الأماكن التي فقدوها"[٢].

وبوفاة معاوية رضي الله عنه عام٦٠هـ/٦٨٠م بايع المسلمون ابنه يزيد، ما عدا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، وقد وقف الأولان منه موقف العداء، وقُتل في عهده الحسين في كربلاء، وحكم ثلاث سنوات ثم مات عام ٦٤هـ/٦٨٤م، وعمره ثمانية وثلاثون عاماً[٣].

ثم تولى معاوية بن يزيد بوصاية أبيه لكنه كان ورعاً زاهداً فتنازل عن الخلافة بعد ثلاثة أشهر.

---

[١] شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٦٢.

[٢] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٨٤.

[٣] انظر، المصدر السابق ذاته، ج٤، ص١٢٥-١٤٣.

وقعت حروب بين الأمويين وأعدائهم، انتهت بين الأمويين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، "وأصبح مروان بن الحكم خليفة على الشام وحدها، وبقي ابن الزبير خليفة على سائر الأمصار، حتى ظهر عبد الملك بن مروان، فتمكن من توحيد العالم الإسلامي الشرقي تحت إمرته، ولذا اعتُبر المؤسس الثاني للدولة الأموية. وكانت لعبد الملك أياد عظيمة، فقد عرّب الدواوين، وضرب النقود، وحكم اثنين وعشرين عاماً، وتوفي عام ٨٦هـ/٧٠٥م"[١].

فتولى بعده ابنه الوليد بن عبد الملك، الذي حكم "عشرة أعوام، وتمت في عهده إصلاحات داخلية عظيمة وفتوحات إسلامية كبرى على يد قادة عظام أمثال محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند، وموسى بن نصير فاتح الأندلس"[٢].

ثم خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك فحكم "ثلاثة أعوام، وتوفي عام ٩٩هـ/٧١٨م"[٣].

فوسِّد الأمر لأعظم شخصية في تاريخ بني أمية، على الرغم من أنه لم يحكم إلاّ عامين وهو عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، الذي اعتبره البعض خامس الخلفاء الراشدين؛ لكثرة ما قام به من إصلاحات خلال فترة حكمه الوجيزة. "راقب عمر الولاة بحذر وأخذ على أيديهم، وطرد القساة منهم، وانتشر الإسلام في عهده انتشاراً عظيماً، وتوفي عام ١٠١هـ/٧٢٠م"[٤].

ثم ولي الأمر بعده يزيد بن عبد الملك بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، "وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يتولى الأمر، وأراد أن يسير بالناس سيرة عمر بن عبد العزيز إلا أن قرناء السوء لم يتركوه، دامت خلافته أربع سنوات وشهراً، وتوفي عام ١٠٥هـ/٧٢٣م"[٥].

---

[١] شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص١٩٤-١٩٥.

[٢] انظر، المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٢١٣-٢٢٨.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٢٣٢.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٢٤٤.

[٥] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٢٥٥-٢٥٦.

وولي بعده هشام بن عبد الملك، فمكث في الخلافة "عشرين عاماً حاول فيها تقليد عمر بن عبد العزيز، ولم ينجح في ذلك نجاحاً كبيراً، وإن كانت الدولة قد اتسعت في عهده ففتحت قيسارية* وبلاد الخزر وأرمينية وشمال آسيا الصغرى وجزءاً كبيراً من بلاد الروم. لكن الأحوال الداخلية لم تكن مستقرة في عهده وتوفي في عام ١٢٥هـ/٧٤٣م"[١].

وترك الحكم للوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يعتبر عهده الذي لم يدم "أكثر من عام إلاّ قليلاً من أسوأ عهود الدولة الأموية ظلماً وانتقاماً من أبناء سلفه هشام"[٢].

لم يكن للخليفتين اللذين وليا بعد الوليد وهما يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد أثر يُذكر، ولم يدم حكم كل منهما إلاّ ثلاثة أشهر، ولم تستقم لهما الأمور، وكانت أيامهما وأيام سابقهما الوليد بن يزيد فرصة ذهبية للعباسيين الذين نجحوا في تعبئة النفوس وتنظيم الصفوف للانقضاض على الدولة الأموية.

فلمّا آلت الخلافة لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في المشرق لم يستطع أن يقرّ قواعد الدولة على الرغم من أنه كان "أشجع بني أمية وأقدرهم على تحمل الأخطار فسقطت الدولة في عهده بعد فتنة واضطرابات استمرت خمس سنوات، وكان سقوطها في عام ١٣٢هـ/٧٥٠م"[٣].

ولقد تعّرضت الدولة الأموية عموماً لسهام بعض الكتّاب، وزعم بعضهم "أنها دولة مدنية، وقال بعضهم: إنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية، بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لا صلة لها بالدين ولا بالأخلاق، وهذه فرية تفندها حقائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين فقد بدأت دولة بني أمية عام ٤٠ هـ/٦٦٠م

* قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، وأما الآن فليست كذلك. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٤٧٨).

[١] انظر، شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٢٦٥-٢٨٠.

[٢] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٢٨٤-٢٨٥.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٣٠٦.

واستمرت إلى عام ١٣٢هـ/٧٥٠م. فقد شملت القرون الثلاثة التي هي خير قرون الأمة: قرن الصحابة وقرن التابعين وقرن أتباع التابعين"[١]، وهي التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل حديث عمران بن حصين (خَيرُكُم قَرني ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم)، قال عمران: لا أدري: أذكر النبي بعد قرنين أو ثلاثة"[٢] وكذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: (يَأتِي زَمَانٌ يَغزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَال: فِيكُم مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمْ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ. ثُمَّ يَأتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلّم؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ فَيُفْتَح)[٣]، ومعنى قوله: (قَرْنِي): أي أهل عصري، وهم الصحابة ثم قرن التابعين ثم قرن الأتباع، وبعض الشرّاح حددوا القرن بزمن، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة، وبعضهم قال: ثمانون سنة، وبعضهم جعله مائة سنة وهو الذي اشتهر في الاستعمال الآن وأمسى حقيقة عرفية. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيريه على هذا: ثلاثمائة سنة، وهذا غير منسجم مع منطق الواقع التاريخي، فالراجح تفسيره بِما ذكرنا من عصر الصحابة وعصر التابعين وعصر الأتباع"[٤]. ومن الأحاديث الصحيحة التي يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام حديث خالد بن معدان* "أن

---

[١] القرضاوي، يوسف: تاريخنا المفترى عليه، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص٦٢.

[٢] صحيح مسلم، مصدر سابق، ج٤، ص١٩٦٢، رقم الحديث ٢٥٣٣.

[٣] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م): صحيح البخاري، استانبول، المكتبة الإسلامي، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٣، ص١٠٦١، رقم الحديث ٢٧٤٠.

[٤] القرضاوي، يوسف: تاريخنا المفترى عليه، مصدر سابق، ص٦٣.

* هو: خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، أبو عبد الله: تابعي ثقة ممن اشتهروا بالعبادة. أصله من اليمن، وإقامته في حمص بالشام، وكان يتولى شرطة يزيد بن معاوية، وكان كثير التسبيح فلما مات بقيت أصبعه تتحرك كأنه يسبح، توفي عام ١٠٤هـ/٧٢٢م. (الأعلام، الزركلي: ج٢، ص٢٩٩).

عمير بن الأسود العنْسي* حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو نازل في ساحة حمص وهو في بناء له ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: فحدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أَولُ جَيشٍ مِنْ أُمتِي يَغزُونَ البَحْرَ قَدْ أَوْجَبوا). (أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة)، قالت أم حرام قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: (أنت فيهم). ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَولُ جَيشٍ مِنْ أُمتِي يَغزُونَ مَدينَةَ قَيصَرْ**: مَغفُورٌ لَهم): فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: (لا)[١]. "في هذا الحديث منقبة لمعاوية رضي الله عنه؛ لأنه أول من غزا البحر وذلك في خلافه عثمان رضي الله عنه، وما زال معاوية رضي الله عنه يغريه بالغزو في البحر حتى استجاب له، ونشط الأسطول الإسلامي منذ عهد عثمان رضي الله عنه، ثم اتسع وازداد في عهد معاوية رضي الله عنه"[٢]، وفي هذه الغزوة مات "أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه وكان في هذا الجيش"[٣].

ولا خلاف بين المؤرخين أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه هو المؤسس الأول للدولة الأموية، وبعد أن ضعفت الدولة الأموية بحكم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه استطاع عبد الملك بن مروان أن يعيد الحكم للدولة الأموية واعتبره المؤرخون المؤسس الثاني للدولة.

---

* هو: عمير بن هانىء الداراني، أبو الوليد: تابعي من رجال الدولة الأموية. من أهل "داريا" بالشام، استنابه الحجاج على الكوفة، وولي خراج دمشق لعمر بن عبد العزيز، ولما ولي الوليد بن يزيد اتهم عمير بالتحريض على قتله، وقتل صبراً مع يزيد بن خالد على أبواب دمشق في عام ١٢٧هـ/٧٤٥م، وحمل رأسه على رمح إلى مروان بن محمد (الأعلام، الزركلي: ج٥، ص٨٩).

** مدينة قيصر: هي القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، عمّرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٣٩٥).

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٦٩، رقم الحديث ٢٧٦٦.

(٢) القرضاوي، يوسف: تاريخنا المفترى عليه، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٣) الصلابي، علي محمد: الدولة الأموية، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٨.

ويمثل عهد سليمان بداية المرحلة الجديدة من مراحل الخلافة الأموية وعلى الأخص المروانية منها، لما امتاز به من خصائص جديدة وتغير في أسلوب الحكم عن سابقيه، إذ اتسمت سياسته بإيثار السلامة والعافية، والنزوع إلى الموادعة والأخذ برأي أهل العلم والفضل من باب العمل بمفهوم الشورى، والتمسك بالتعاليم والأحكام الإسلامية والحرص على تنفيذها، وهي الأمور التي وضحها في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، وبين فيها سياسته التي سينتهجها في الحكم. وتأكيداً على مفهوم الشورى الذي جعله سليمان أحد دعائم حكمه وصفة لنهجه الجديد بقوله: "وقد عزلت كل أمير كرهته رعيته ووليت على أهل كل بلد من أجمع عليه خيارهم واتفقت عليه كلمتهم". ويقول: "رحم الله امرءاً عرف سهو المغفل عن مفروض حق واجب فأعان برأي". ويضيف: "أيها الناس رحم الله من ذُكِّرَ فاذّكر فإن العظة تجلو العماء"[١].

هذا النهج الجديد مخالف لما نهجه عبد الملك والوليد في سياسة الدولة القائمة على بسط النفوذ والسلطة بالقوة والتضييق على الناس، فعبد الملك بن مروان يقول في إحدى خطبه: "والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه". وكان عبد الملك بن مروان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعون الخلفاء ويعترضون عليهم فيما يفعلون، ولما حضرته الوفاة قال للوليد وكان يبكي عليه عند رأسه: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتني في حفرتي أن تعصر عينيك كالأمة الورهاء* بل ائتزر وشمر والبس جلد النمر وادع الناس إلى البيعة ثانياً ومن قال برأسه كذا فقل بالسيف كذا. وقد سار الوليد بن عبد الملك على هذا النهج، وقد تنبه عدد من المؤرخين القدامى إليه وأشاروا إلى جوانبه المختلفة في كتاباتهم فوصفه بعضهم بأنه من خيار بني أمية[٢].

---

[١] عبابنة، علي إبراهيم: خلافة سليمان بن عبد الملك، الأردن، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، د.ط، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٩٥-٩٦.

* الوره الحمق في كل عمل، ويقال الخرق في العمل، وامرأة ورهاء، خرقاء بالعمل (ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط١، ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، ج١٣، ص٥٦٠).

[٢] انظر، عبابنة، علي إبراهيم: خلافة سليمان بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٩٦-٩٧.

وأما ابن قتيبة رحمه الله فيقول: "افتتح بخير وختم بخير؛ لأنه رد المظالم إلى أهلها ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة، واستخلف عمر بن عبد العزيز وأغزى أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية فأقام بها حتى مات"(١). وأما أبو زرعة الدمشقي رحمه الله فقد عدّ خلافة سليمان وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة حيث يقول: "كانت خلافة سليمان بن عبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئاً قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالا جميعاً"(٢). ولعل من هذه الاعتبارات استشارة العلماء والنصحاء من ذوي الخبرة في كل أمور الأمصار، فقد اتخذ عمر بن عبد العزيز "وزيراً ومستشاراً، وقد صدر سليمان عن رأيه في عزل عمّال الحجّاج"(٣)، وممن كان يستشيرهم "رجاء بن حيوة الكندي*، فقد ولى سليمان محمد بن يزيد الأنصاري أفريقية بمشورته"(٤).

---

(١) الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م): المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، القاهرة، دار المعارف، ط٣، د.ت، ص٣٦٠.

(٢) أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي (ت: ٢٨١هـ/٨٩٤م): تاريخ أبو زرعة، تحقيق شكر الله القوجاني، دمشق، مطبوعات اللغة العربية، د.ت، ج١، ص١٩٣.

(٣) عبابنة، علي إبراهيم: خلافة سليمان بن عبد الملك، مصدر سابق، ص١٤٨.

* هو: رجاء بن حيوة بن جرول الكندي، أبو المقدام: شيخ أهل الشام في عصره. من الوعاظ الفصحاء العلماء، كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة، واستكتبه سليمان بن عبد الملك، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز، وله معه أخبار، توفي عام ١١٢هـ/٧٣٠م. (الأعلام، الزركلي: ج٣، ص١٧).

(٤) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٢٥٧هـ/٨٧١م): فتوح مصر، بغداد، مكتبة المثنى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢١٣.

الفصل الثاني
النظام الإداري في الدولة الأموية

كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه المؤسس الأول للدولة الأموية، وكان إدارياً من الطراز الأول، وقد وضع الأسس واللبنات الأولى لهذه الدولة العريقة، ثم جاء من بعده المؤسس الثاني عبد الملك بن مروان وأضاف تحسينات إدارية تتناسب والعصر الذي عاش فيه، وظروف وملابسات الأحوال التي كانت تحتاجها الدولة آنذاك.

ولا شك أن قوة تماسك النظام الإداري أمر ضروري جداً للدولة، يساعدها على الفتوحات والمعارك ضد أعدائها.

فمن أهم الجوانب الإدارية التي أنشأها الأمويون:

أ- المؤسسات الإدارية:

١- ديوان الرسائل: وهو الهيئة المشرفة على تحرير "رسائل الخليفة وأوامره وعهوده ووصاياه ومواثيقه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية، وإلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية، وكانت الرسائل وسيلة الاتصال بالولاة وقادة الجند والقضاة وزعماء القبائل مؤيدة لمعاوية رضي الله عنه، وتحت إشرافه المباشر"[١].

وتطور هذا الديوان كثيراً في عهد عبد الملك وازدادت أهميته بشكل واضح ولا سيما أثناء ولاية الحجّاج للعراق، نظراً للمستجدات السياسية والعسكرية ووجود المتمردين والخارجين على الدولة مما استوجب متابعة أخبارهم، "فكان الخليفة عبد الملك يكتب للحجّاج بشأنهم مما كان باعثاً مهماً لازدهار ديوان الرسائل والكتابة، فكانت هذه الرسائل تصدر من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمه الأمر لمعالجة أوضاع تلك

---

[١] العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. ص١٢٤.

الاضطرابات"[١]، حيث إن الخليفة عبد الملك كان غالباً ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية في محاولة منه أن يفت من عضد قادة الحركات المناوئة، وكان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته. ونظراً لأهمية الرسائل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان وكذلك الحجّاج لم يستخدما في هذا الديوان إلا من كان موضع ثقة وأمانة وإخلاص، واختير الكتّاب الحاذقون الذين يجمعون بين الخبرة الإدارية وكتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخاطبة. "والحق أن عبد الملك سلسل الأمور في أعمال الدولة تسلسلاً دقيقاً ووضع في ديوان الرسائل موظفين عارفين بالرسائل التي يرسلها إلى الأقطار والتي ترد منها"[٢].

٢- ديوان العطاء: أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان أهمية العطاء وبدأ العطاء في عهده يرتبط بشكل واضح بالنواحي العسكرية والسياسية، "ففي عام ٦٩هـ/٦٨٨م خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير، فتخلف بعض أهل الشام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء عام ٧٠هـ/٦٨٩م على الرغم من حبه العميق لهم"[٣]، "وكان يضطر أحياناً وتحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس آخرين في الديوان"[٤].

وقد استخدم الخليفة عبد الملك العطاء وسيلة للقضاء على الفتنة، فقد كتب يوماً إلى الحجّاج أن يصف له الفتنة فوصفها له، فكتب إليه عبد الملك: "فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة"[٥]. وكان الحجّاج يصرف العطاء بأكمله لجنده في أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال. ومن ناحية أخرى فإن

---

(١) أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الرباط، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص١٣٧.

(٢) العش، يوسف: الدولة الأموية، دمشق، دار الفكر، ط٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٣٠

(٣) الطرطوشي، أبوبكر محمد بن الوليد (ت: ٥٢٠هـ/١١٢٦م): سراج الملوك، مصر، الإسكندرية، المطبعة الوطنية، د.ط، ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م، ص ١١٨.

(4) أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٣١.

(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت: ٣٤٥هـ/٩٥٦م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٣، ص١٢٦.

الخليفة عبد الملك بن مروان كان يكرم من أسدى خدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة في جبهات القتال، فقد كرّم موسى بن نصير حينما حرر أفريقية عام ٨٣هـ/٧٠٢م وكرّم الحجّاج المهلّب بن أبي صفرة وأصحابه لجهودهم في القضاء على الخوارج الأزارقة، إذ أحسن عطاياهم وزاد في أعطياتهم ثم قال: "هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء"[١].

٣- ديوان الخاتم: أنشأ معاوية بن أبي سفيان رضي لله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة "فلا تطلع عليها عين جاسوس ولا تصل إليها يد خائن"[٢]. وكان من أغراض هذا الديوان تحاشي التزوير ومنع حدوث التلاعب في الكتب التي يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان "بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه في تدقيق الأوامر والمراسلات التي تتعلق بالصرف والحسابات بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى"[٣]، وكان ديوان الخاتم يشرف على تدقيق الدواوين الأخرى وبيان الأخطاء التي تقع فيها، وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول صلى الله عليه وسلم وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول صلى الله عليه وسلم "يعني التوقيع بالختم، بينما نراه في عهد معاوية رضي الله عنه وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق في الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، فأحدث معاوية رضي الله عنه عند ذلك ديوان الخاتم"[٤]، "وفي الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملته ظروف اتساع الدولة الإسلامية في

---

(١) أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٣٣.

(٢) شاهين، حمدي: الدولة الأموية المفترى عليها، مصدر سابق، ص٤٣٣.

(٣) العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، مصدر سابق، ص١٧٠.

(٤) خماش، نجدة: الإدارة في العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢٨٧.

عهد معاوية رضي الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسري لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته"[١].

وتطور ديوان الخاتم في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان فأصبح "إدارة منظمة، ونشأت في هذه الفترة دار للمحفوظات الحكومية في دمشق، ولم يقتصر هذا الديوان على العاصمة دمشق، بل وجد في باقي الولايات خصوصاً بعد التنظيم الإداري الواسع الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، ولكثرة المراسلات مع الولايات المختلفة وأهميتها السياسية ولا سيما مع العراق، وكان الخليفة عبد الملك لا يولي هذا الديوان إلا أوثق الناس عنده"[٢].

٤- ديوان الطراز: يراد بالطراز في الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على "ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليه أشرطة من الكتابة، ثم اتسع مدلول الطراز فأصبح يطلق على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات"[٣]. وفي العصر الأموي ارتفع المستوى المعيشي فزادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، لذلك أنشأ الأمويون عدداً من المصانع عرفت بدور الطراز، وقد اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالطراز فنظمت صناعته بشكل واسع، وأصبح أساساً لما حدث من نهضة في صناعة النسيج، وبخاصة زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك.

٥- ديوان البريد: يذكر المؤرخون أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول في عدة أماكن وقام بتنظيمه، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم، وكانت أعماله في العصر الأموي واسعة ومتشعبة؛ نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التي يسير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة،

---

[١] الغيث، خالد محمد: مرويات خلافة معاوية، جدة، دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٧٦.

[٢] أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص٤١

[٣] المصدر السابق ذاته، ص١٥٦.

والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالـــشام، و لم تكن خدمات البريد قاصرة على ما يتعلق بالدولة بل كان في بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر(١)، وكانت الدولة في عهد معاوية رضي الله عنه لا تستغني عـــن البريد في حالات السلم وحالات الحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفـــة، وكانت أهم وسائل النقل: "البغال والخيل والإبل، ويعتبر معاوية رضي الله عنه مؤســـس نظام البريد في الإسلام، حيث كانت رسائل الخليفة ترسل قبل ذلك إلى الجهة التي يـــراد إرسالها إليها عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها، وأما نظام البريد الذي استخدمه معاوية رضي الله عنه اقتباساً من البيزنطيين فقد كان يقتضي أن تقسم الطـــرق إلى مـــسافات، يوضع في نهاية كل مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعاً حتى إذا بلغ نهاية المـــسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسلة إليها في أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة فكان أربعة فراسخ، وبذلك يكون طول المسافة أثنى عشر ميلاً، أي عشرين كيلو متراً تقريباً، وهذه المسافة تسمى بريداً، وبهـــذه الطريقة تصل الرسالة بأقصى سرعة دون إجهاد صاحب البريد حيث إن المسافة يمكـــن قطعها بسهولة، ويوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد واختصار الوقت"(٢).

وطوّر عبد الملك الأجهزة التي تساعده على جمع المعلومات فاعتنى بشكل كـــبير بالبريد بوصفه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورهـــا، فطـــوّره ونظّمـــه وأرسى قواعده، حتى أصبح "وسيلة مهمة في العمليات العسكرية، ونقـــل الأشـــخاص المهمين والمواد المختلفة باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة، وأصبح عيناً للخليفـــة في

(١) انظر، العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، مصدر سابق، ص١٧٤-١٧٥.

(٢) الوكيل، محمـــد ســـيد: الأمويـــون بـــين الـــشرق والغـــرب، دمـــشق، دار القلـــم، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١، ص١٠٠.

نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوي الناس من عمالهم وموظفي الدولة هناك. ومن أجل تسهيل عمل البريد وانتظامه وسرعته قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتنظيم طرق البريد وتحديدها وتثبيتها، فقام ببناء الأميال في الطرقات"[1]، كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاها، ومما يؤكد ذلك ما وصل إلينا من نقوش معاصرة للخليفة عبد الملك، كشفت بالقرب من بيت المقدس، تشير إلى أوامره بعمل هذه الأميال، فقد بذل الخليفة عبد الملك عناية فائقة في تنظيم الطرق وصيانتها، فاخترقت الدولة طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد. وقد استخدم البريد في عصر عبد الملك أيضاً في حمل الأشخاص ومن مختلف المستويات كالولاة والكتاب والشعراء وغيرهم، وكتب التأييد والرضا عن الخليفة من الأشخاص المهمين[2]، ويبدو أن ما كان ينفقه عبد الملك على إدارة البريد لم يكن قليلاً لا سيما أنه قد بذل جهوداً كبيرة لتطويره وتنظيمه، ويمكن القول أن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من جعل "ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، وهذا لا يعني عدم وجود البريد المنتظم في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلا أنه لم يكن ديواناً متكاملاً مستقلاً خصوصاً أن مصادرنا التاريخية لا تذكر البريد بوصفه ديواناً إلا في عهد عبد الملك بن مروان"[3]، فالبريد في نظر عبد الملك "عصب الدولة الحساس وذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظّم مواعيده"[4].

٦- ديوان المظالم: أفرد الخليفة عبد الملك يوماً للنظر في المظالم، حيث "جلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر فيها، فكان إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبي إدريس الخولاني فنفذ فيه أحكامه"[5]. "وكان حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء"[6]، وهذا

---

[1] أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٤٥.

[2] انظر، أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص ١٤٨.

[3] المصدر السابق ذاته، ص١٤٩.

[4] العش، يوسف: الدولة الأموية، مصدر سابق، ص٢٣٦.

[5] أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٥١.

[6] المصدر السابق ذاته، ص١٥٢.

يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منظماً ومتكـــاملاً، ولا بـــد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها "كتّاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، وتحديـــد الخليفة عبد الملك يوماً للنظر في المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك، وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف، وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينـــة، وانعقـــاد هـــذه الجلسات في مكان محدد، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل، ويمكن القـــول أن الخليفة عبد الملك كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة"[١].

٧- نظام الكتبة: كان هناك كاتب لديوان الرسائل وآخر لديوان الخراج وثالث لـــديوان الجند ورابع لديوان الشرطة وخامس لديوان القضاء، وكان نظام الكتبة أكـــبر دواويـــن الدولة، ويقوم الموظفون فيه "بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها ديوان الخاتم بعد أن تحزم وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب الديوان، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولـــة منـــذ أنشأه معاوية رضي الله عنه وحتى أواسط العهد العباسي، وكانت هذه الدواوين تقـــوم بأعمال وزارة المالية (ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديـــوان الجنـــد) ووزارة الداخليـــة (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء) وكان ديوان الرسائل يقوم بأعمال أمانة السر، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب في العراق باللغة الفارســـية، وفي الـــشام ومصر باللغة الرومية وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان"[٢].

ب- المؤسسات الأمنية:

١- الحاجب: كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه "أول من اتخذ نظام الحجابـــة في الإسلام؛ لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه"[٣]، فقد كان معاوية رضي الله عنه وبنـــو أمية يعيشون في الشام "قريباً من أعدائهم من الروم، فضلاً عن أعـــدائهم مـــن الـــشيعة

---

[١] أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٥٣.

[٢] الوكيل، محمد سيد: الأمويون بين الشرق والغرب، مصدر سابق، ج١، ص١٠٢.

[٣] العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، مصدر سابق، ص١٠٢.

والخوارج المتفرقين في البلاد، وكانوا يرون أنه لابد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية، التي قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز"[١]، وكان يشترط في الحاجب معرفة منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم؛ لكي يعرف من يأذن لهم ومن لا يأذن لهم، فالحاجب يخبر الخليفة والخليفة هو الذي يأذن أو لا يأذن.

٢- الحرس: كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه "أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية خوفاً من الخوارج الذين يحاولون قتله، فقد أمر بالمقصورات في الجوامع، وكان لا يدخلها إلا ثقات حرّاسه ، ولم يكتف معاوية رضي الله عنه باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقاصير زيادة في التشدد، وذلك لحماية نفسه من أي اعتداء قد يقع عليه"[٢].

٣- الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين والدفاع عن الخليفة، وهي غير مسؤولة عن صدّ أي هجوم خارجي عن الدولة، وقد قام معاوية رضي الله عنه بتنظيمها وتطويرها في الشام. ولا يقتصر وجود الشرطة على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون الولاة، فهم الذين يختارونهم ويعينونهم وكان وجودها مهم للدولة والمجتمع، فالدولة تعتمد عليها في قمع المتمردين، وفي القضاء على الثورات والاضطرابات، وربما كانت تحل محل الجند في حالة عنايتهم واشتراكهم في الغزوات، وتعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض، وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها[٣]، وكان لها أثر فاعل في إدارة بلاد الشام.

---

[١] شاهين، حمدي: الدولة الأموية المفترى عليها، مصدر سابق، ص٢٧١.

[٢] العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، مصدر سابق، ص١١١.

[٣] انظر، المصدر السابق ذاته، ص١٢٣.

وكان الخليفة لا يختار لهذا المنصب إلا من "توفرت فيه شروط معينة"(١)، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد الله بن هاني الأودي، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكي، ثم عزل الكثير من هذا المنصب وآخرهم في عهد عبد الملك، كعب بن حامد العبسي، و لم تكن مهمة الشرطة في عهد عبد الملك ملاحقة الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهماً ألا وهو تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية.

قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفي هذه المهمة، فنجح فيها في عدة مناسبات وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه، وكانت الشرطة موجودة في أقاليم الدولة كافة وتابعة لولاتها. واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرساً خاصاً به، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس يعينه ويعزله الخليفة، وهو المسؤول عن أفراد حرسه أمام الخليفة، ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية حماية الخليفة والمحافظة على سلامته في حله وترحاله وتنفيذ أوامره، والجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالي، وبخاصة من موالي الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة عمل هؤلاء المرتبطة دوماً بالخليفة والتي تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان على سلامته.

وكان الخليفة ينتقل بين مدن بلاد الشام ونظم إقامته على هذا الأساس، فلم يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة، وكانت هذه التنقلات تخضع لنظام حراسة مشدد(٢).

---

(١) الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م): عيون الأخبار، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص١٦.

(٢) انظر، أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٩١-١٩٤.

٤- حسن اختيار الرجال والأعوان: وفق معاوية رضي الله عنه في اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولائهم وخبرتهم الإدارية مع حكمتهم ودهائهم.

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: زياد بن أبيه الثقفي*، والضحاك بن قيس الفهري**، وعبد الله بن عامر بن كريز***، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال المهلّب بن أبي صفرة، وعقبة بن نافع الفهري****، وجنادة بن أمية الأزدي***** وآخرين، وكان عمرو بن العاص يقول: "أنا للبديهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لصغار الأمور

---

* زياد بن أبيه: أمير. من الدهاة والقادة الفاتحين، من أهل الطائف، أسلم في عهد الصديق رضي الله عنه، ولاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه إمرة فارس، ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية وتحصن في قلاع فارس، وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه فكتب إليه بذلك فقدم زياد عليه وألحقه معاوية بنسبه، فكان عضده الأقوى وولاه سائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي عام ٥٣هـ/٦٧٣م. (الأعلام، الزركلي: ج٣، ص٥٣).

** الضحاك بن قيس: من صغار الصحابة، كان مع معاوية رضي الله عنه فولاه الكوفة وهو الذي صلى على معاوية، توفي عام ٦٤هـ/٦٨٤م. (سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣، ص٢٤١).

*** عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي، أبو عبد الرحمن: أمير فاتح ولد بمكة، ولاه معاوية رضي الله عنه البصرة ثلاث سنين، ثم صرفه عنها، فأقام بالمدينة ومات بمكة ودفن بعرفات عام ٥٩هـ/٦٧٩م. (الأعلام، الزركلي: ج٤، ص٩٤).

**** عقبة بن نافع القرشي الفهري: نائب أفريقية لمعاوية رضي الله عنه وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس، وكان ذا شجاعة وحزم وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر واختطّ بها، توفي عام ٦٣هـ/٦٨٣م. (سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٥٣٣).

***** جنادة بن أمية: قائد بحري، صحابي، من كبار الغزاة في العصر الأموي، كان قائد غزوات البحر أيام معاوية رضي الله عنه كلها، وهو ممن شهد فتح مصر، ودخل جزيرة رودس فاتحاً، توفي بالشام عام ٨٠هـ/٦٩٩م، (الأعلام، الزركلي: ج٢ ص١٤٠).

وكبارها"[١]. وقد أسهم هؤلاء في إدارة الدولة وفتوحها والتصدي لأعدائها فكان لهم "دور كبير ومتميز في ترسيخ وتوطين وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية"[٢].

ج- تعريب الدواوين:

عرّبت الدواوين ضمن الخطة المرسومة لسياسة الدولة الإصلاحية التي بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان وأكملها الخلفاء من بعده، والتي تضمنت تعريب الدواوين من اللغات الأجنبية: الفارسية واليونانية والقبطية، لإزالة النفوذ الأجنبي من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية، وتعتبر عملية التعريب التي ابتدأها عبد الملك من الأحداث العظيمة والجليلة، فقد حققت حركة تعريب الدواوين نتائج ذات آثار عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية، ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم، ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتي:

- تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم وتعزيز مكانتها وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة كالفارسية واليونانية والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامي لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومي في كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التي طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة في المجال الثقافي والسياسي، وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

- ظهور فئة مهمة من الكتّاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن* مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد

---

[١] البلاذري، أحمد بن يحيى (ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م): أنساب الأشراف، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ج٤، ص١٣١.

[٢] العمد، إحسان صدقي: الجذور التاريخية للأسرة الأموية، الكويت، المجلس العلمي لجامعة الكويت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص١٠٠.

* صالح بن عبد الرحمن التميمي، بالولاء، أول من حول كتابة دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية في العراق، أصله من سبي سجستان، اتصل بالحجاج، فلما ولي جعله في كتاب ديوانه، قتله ابن هبيرة عام ١٠٣هـ/٧٢١م.(الأعلام، الزركلي: ج٣، ص١٩٢).

بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: "لله در صالح ما أعظم متنه على الكتّاب"[١]، وبذلك كان عامّة كتاب العراق تلامذة صالح.

- ظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتم بالترجمة مثل خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفي عام ٨٥هـ/٧٠٤م، فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية[٢].

- كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، "فكان ذلك من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية"[٣].

- تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب.

- اتجه الموالي لتعليم اللغة العربية؛ لكونها الطريق المؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية، وأدى ذلك إلى إشاعة اللحن في اللغة، مما دعا الحجّاج إلى معالجة التشكيل، ثم اندفع الموالي للتخلص من اللحن والخطأ وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة ويفسر لنا هذا ظهور علماء كبار من الموالي في العصر الأموي ثم العصر العباسي.

وعندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان عام (٧٣-٨٦هـ/٦٩٢-٧٠٥م) نظّم دواوين الدولة ومؤسساتها وإدارة الأقاليم، وأعاد النظر في تقسيمها وترتيبها آخذاً بنظرة تغير الحياة وتطورها بمختلف أوجهها. "وكانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، يرأس كل إقليم أمير يعينه ويعزله الخليفة، ويملك هذا الأمير سلطات واسعة في إدارة إقليمه، فهو الذي يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، ويعين الموظفين أيضاً، وهو المسؤول عن تنظيم الجند وتجهيز الحملات العسكرية، وغالباً ما يقودها بنفسه

---

(١) الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ/٩٤٣م): الوزراء والكتاب، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ص ٣٩

(2) انظر، أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٧٩.

(٣) الريس، محمد ضياء الدين: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، القاهرة، مطابع سجل العرب، ط٣، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٢٨٦.

أو ينيب عنه قائداً من قواده، وكان يشرف على سك النقود أيضاً، وكـــان إلى جانـــب الأمير موظف له أهمية كبيرة هو صاحب الخراج، فالوالي يدير الشؤون السياسية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشؤون المالية، وهو بمثابة الرقيب على الوالي، ويعين الخليفـــة صاحب الخراج، ويساعد الأمير في عمله عدد من الموظفين، منهم: القاضي، وصـــاحب الشرطة، ورئيس الحرس، والكاتب، والحاجب"[١].

[1] أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، مصدر سابق، ص١٨٤.

الفصل الثالث

النظام العسكري في الدولة الأموية

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام في أرجاء المعمورة، "فاتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي اتساعاً كبيراً، وتم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلاقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها"[١]، وتتضح معالم النفقات العسكرية في العصر الأموي من خلال الأمور التالية:

أ- السياسة العسكرية:

١- رواتب الجند: يشرف عليها ديوان الجند، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه "هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام ٢٠هـ/٦٤١م"[٢]، وقد بقي هذا الديوان على الأساس ذاته من "حيث حفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم وأنسابهم ومقدار أعطياتهم"[٣]، وقد عمل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد في أعطياتهم بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة.

ففي مصر كان عدد المسجلين "في الديوان أربعين ألف جندي، وفي منطقة الشام كان عدد الجند المسجلين في ديوان الشام ستين ألف جندي، وفي العراق، نأخذ مثالاً ديوان البصرة، حيث بلغ عدد المسجلين فيه ثمانين ألف مقاتل"[٤].

---

[١] الجفري، عصام هشام عيدروس: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ٩٧.

[٢] ابن سعد، محمد بن سعد الهاشمي البصري (ت: ٢٣٠هـ/٨٤٥م): الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. ج١، ص٢١٣.

[٣] المسعودي، نجم: الدواوين في العصر الأموي، بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٣٧.

[٤] الجفري، عصام هشام: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٩٩.

٢- نفقات الصناعات الحربية: على الرغم من عدم وجود أرقام محددة في نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على تزايد هذه النفقة، فقد كـــان اهتمـــام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية، "وبلغ عدد قطع الأســطول البحـــري الإسلامي في بداية تكوينه مائتي مركب، ثم تطور ليبلغ في عهد سليمان بن عبد الملك ألفاً وثمانمائة سفينة كبيرة"[١].

٣- السياسة العسكرية تجاه الروم: سلكت السياسة تجاه الروم الخطوات التالية:

أ- التركيز على عمليات الصوائف والشواتي من أجل تحقيق عدة أهداف، منها:

- "استنـــزاف قوة الروم.

- انتزاع زمام المبادرة من الروم وجعلهم في حالة دفاع مستمر"[٢].

- إرغام الروم على توزيع قواهم بحيث لا يستطيعون "القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية"[٣].

ب- مهاجمة الروم في عقر دارهم "ومحاصرة عاصمتهم القسطنطينية وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم وقذف الرعب في قلوبهم.

ج- تقليص النفوذ البحري للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة في بحر الــشام"[٤]، ومـــا يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

---

[١] الجفري، عصام هشام: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص١٠٦.

[٢] العسلي، بسام: في الحرب الإسلامي، بيروت، دار الفكر، د.ط، ١٤٠٨هـــ/١٩٩٨م، ج١، ص٢٣٣.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٢٣٣.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٢١١.

٤- السياسة العسكرية في الشمال الإفريقي:

أ- أولى معاوية رضي الله عنه جبهة المغرب اهتماماً خاصاً تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصياً، حيث كان معاوية رضي الله عنه "المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى عام ٤٧هـ/٦٦٧م، وهو العام الذي ضُمت فيه جبهة المغرب إلى والي مصر"[١].

ب- عمل معاوية رضي الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة في قلب بلاد المغرب، وقد قام عقبة بن نافع ببناء القيروان؛ لكي تكون عزاً للإسلام والمسلمين.

٥- السياسة العسكرية في جبهة سجستان وخراسان:

أ- استعانة معاوية رضي الله عنه بفاتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضي الله عنه، عبد الله بن عامر رضي الله عنه[*]، وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

ب- العمل على تثبيت الحكم الإسلامي ونشر دعوة الإسلام في هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألف من العرب مع عيالهم في خراسان[٢].

ب- ميزات النظام العسكري:

١- الشورى في إدارة حركة الفتح: عند انتقال الخلافة إلى معاوية رضي الله عنه كان لديه مجلس الشورى يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن التدبير في أمور الإدارة العسكرية، وكان من هؤلاء "عمرو بن العاص رضي الله عنه، مما جعل الخليفة معاوية رضي الله عنه يعتمد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير، ومنهم أيضاً زياد بن أبيه ولم تكن الوزارة في عهد بني أمية مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشاري الخليفة يقومون مقام الوزراء، وكان

---

[١] الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، د.ط، ج١، ص١٧٥.

[*] عبد الله بن عامر الأموي رضي الله عنه: أمير فاتح، ولي البصرة أيام عثمان، فتح سجستان والداور ومرو الروذ وطوس ونيسابور وبلدان أخرى، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين، كان محباً للعمران، اشترى كثيراً من دور البصرة وهدمها فجعلها شارعاً، توفي عام ٥٩هـ/٦٧٩م. (الأعلام، الزركلي: ج٤ ص٩٤).

[٢] انظر، الغيث، خالد محمد: مرويات خلافة معاوية، مصدر سابق، ص٣٦٤-٣٦٥.

الواحد منهم يسمى كاتباً أو مشيراً، إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية رضي الله عنه يعتمد في إدارته العسكرية على مشورة زعماء القبائل وأمرائهم وخصوصاً التي بالشام، فقد كان يقربهم ويدنيهم من مجلسه ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سيرته بمبدأ المشورة في إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية"[١].

٢- مركزية القيادة والإمداد: أصبحت دمشق مقر الخلافة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية. فكان الخليفة هو الذي يقرر السياسة الحربية وكان مسؤولاً عن الحرب والسلم، "وكان التنظيم الإداري العام للجيش أمراً من الأمور المركزية التي يشرف الخليفة عليها مباشرة، وذلك بالرغم من وجود عمال الولايات والأقاليم الذين كان لهم مطلق السلطات، والتي منها قيادة الجيوش بأنفسهم، أو تعيين القادة المناسبين، ووضع الخطط لهم وإمدادهم وتموينهم، ومن هؤلاء زياد بن أبيه وابنه عبيد الله"[٢].

٣- الألوية والرايات: "حين انتقلت الخلافة إلى معاوية رضي الله عنه تعددت الألوية والرايات في إدارتهم العسكرية وتعددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمر والأبيض بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعاراً ورمزاً لخلافتهم، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لا يخرج جيش ويسير نحو العدو إلا ويعقد لقائده لواء أو راية تكون لهم شعاراً ورمزاً يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاؤها منصوبة"[٣]، وكان القادة من الشجاعة والإقدام مما جعلهم أكفياء لحمل هذه الراية، مثل: عقبة بن نافعوفضالة ب ن عبيد الله*.

٤- الاهتمام بالعيون والبريد: كان اهتمام معاوية رضي الله عنه بأمر المخابرات وجمع المعلومات عن الأعداء قديماً منذ كان أميراً على بلاد الشام، وتطور جهاز المخابرات لما

---

[١] آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج١، ص٢٨٠.

[٢] آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج١، ص٣١٤.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٣٦٨.

* صحابي ممن بايع تحت الشجرة، شهد فتح الشام ومصر، وولي الغزو والبحر بمصر، ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفي بها عام ٥٣هـ/٦٧٢م. (الأعلام، الزركلي: ج٥، ص١٤٦).

تولى الخلافة، وزاد اهتمامه به(١)، وقام معاوية رضي الله عنه بفرض "رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرهم، وعين موظفاً في كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا تتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت"(٢).

٥- حماية الحدود البرية: حين انتقلت الخلافة إلى معاوية رضي الله عنه زاد الاهتمام والاعتناء بالتحصينات لحماية الحدود، وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية رضي الله عنه "قاد حملات الصوائف والشواتي بنفسه حين كان قائداً وواليـاً للخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما، وأسند إليه في خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية مما جعله ملماً بهذه الثغور والتحصينات، فاستكمل ما بدأه حين استقرت له الخلافة"(٣)، واتخذ معاوية رضي الله عنه لتحصين المدن الساحلية سياسة "التهجير أو النواقل بنقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها، ونقل من الزط وأساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلي أرمينية وأذربيجان، فبنى مدينة دبيل*، وعمل عدة تحصينات دفاعية كما بنى مدينة النشوي** ورمم مدينة برذعة***، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها"(٤)، وقلد الوالي زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثي "ثغر خراسان وأرسل معه من المصرين (الكوفة

---

(١) انظر، آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج١، ص٤٠٥.

(٢) الدقدوقي، وفيق: الجندية في عهد الدولة الأموية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص١٧٧.

(٣) آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٣.

* دبيل: مدينة بأرمينية تتاخم أران كانت ثغراً، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص٥٠٠).

** النشوي: مدينة بأذربيجان، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: (ج٥، ص٣٣١).

*** برذعة: مدينة في أقصى أذربيجان، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج١، ص٤٥١).

(٤) آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٤.

- البصرة) زهاء خمسين ألفاً من الجند بعيالاتهم وأسكنهم ما دون النهر لحماية حـــدود الدولة الإسلامية هنالك"[١]، وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه في إدارته لثغر مـــصر من قبل معاوية رضي الله عنه لا يحمل له من "الخراج إلا الشيء اليسير، وينفـــق جـــل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر"[٢].

٦- تعزيز الأسطول البحري: استكمل معاوية رضي الله عنه عندما قامت الدولة الأموية، ما بدأه في بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية بإقامة المراكب للغـــزو إلى جانب ترتيب الحفظة في السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحريـــة، وعندما خرجت الروم في عهده إلى السواحل الشامية "أمر بجمع الصناع من النجـــارين، فجمعوا، ورتّبهم في السواحل الشامية، وجعل مقر دار صناعة الـــسفن في جنـــد الأردن بعكا، ومعلوم أن بلاد الشام غنية بالأخشاب، وأنشأ الخليفة معاوية رضي الله عنـــه أول دار صناعة لبناء السفن الحربية المختلفة بمصر عام ٥٤هـــ/٦٧٤م في عهد واليها مـــسلمة بن مخلد الأنصاري، وكان مقرها بجزيرة الروضة لذا عرفت باسم صناعة الروضـــة"[٣]، وقد أدرك معاوية رضي الله عنه بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا يحميهـــا مـــن غزوات الروم إلا أسطول إسلامي يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لهم ألف حساب.

٧- الاهتمام بديوان الجند والعطاء: استمر ديوان الجند في أداء مهامه المناطة به وتطـــور بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية حتى أصبح مؤسسة كبيرة حظيت باهتمام الخلفاء وولاتهم، ومر بمراحل تطويرية، فعندما تولى معاوية رضي الله عنه الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب في بداية إدارته العسكرية إثر الفتن والصراعات الداخلية، فتمكن بحسن إدارته ودهائه بالإغداق عليهم في العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهم بالجندية وتأليف القلوب، وقرب إليه زعماء القبائل، وقد بلغ عدد الجند النظامي الـــذين

---

[١] آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٤.

[٢] عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر، مصدر سابق، ص١٠٢.

[٣] آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢، ص٥٤٣.

ينالون العطاء في بداية العصر الأموي نحواً من ثمانين ألف جندي بالبصرة، وستين ألفـاً بالكوفة، وبمصر أربعون ألفاً، وبالشام نحواً من ذلك، هذا سوى من في بـاقي الأقـاليم الأخرى من جند فارس وما وراء النهر وغيرهما من الأقاليم وأمصار الدولة الإسـلامية، وكان بالكوفة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف رجل فرض لهـم وكـانوا يـسمون الحمراء، وولي كتابة الجند في إدارة الخليفة معاوية رضي الله عنه المركزية بدمشق عمـرو بن سعيد بن العاص، هذا إضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التي تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية.

ظل دور أمر العرفاء والنقباء سائراً ومستمراً كما كان في السابق وذلك لاعتماد الإدارة عليهم في الشؤون العسكرية والمالية وبخاصة في توزيع العطاء على الجند، وكـان الخليفة معاوية رضي الله عنه يدفع إلى العرفاء العطاء، وكان لكل قبيلة عريـف يأخـذ أعطيتهم ويدفعها إليهم، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبـارهم ورفع التقارير عنهم للإدارة العليا، وقد طور زياد الهيكل التنظيمي العـسكري للعرفـاء فجعل الناس في البصرة أخماساً وجعل على كل خمس رجلاً، كما جعل في الكوفة أرباعاً على قيادة عشرة جنود في القتال، وأصبحوا مسؤولين عن النـواحي الأمنيـة ومـثيري الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتـصال في الإدارة العسكرية بين القبائل العربية في الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيمـا يختص بتثبيت أسماء الجند في الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجـة، وقد حل أولئك العرفاء في القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر، وكان اختيـارهم من بين ذوي النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية، ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب في أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفـوه الخـوارج حيث قال: "يا أهل البصرة،والله لتكفني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم، واسـتخدمت الزيـادة في العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعاً وحث لهم على المضي قدماً في

مهامهم ومناصبهم العسكرية المسؤولين عنها كما فعل معاوية رضي الله عنه مع أشراف أهل الشام[1].

ج- المراكز العسكرية التي أسسها الأمويون:

أدرك الأمويون أهمية بناء المدن لتكون قواعد عسكرية لهم من أجل الانطلاق منها إلى ما بعدها من الأراضي من أجل تثبيت عملية الفتح، فمن ذلك:

١- بناء واسط: كان الحجاج بن يوسف قد رغب في بناء مدينة جديدة تسهل عليه إدارة العراق بعد أن أحس أنه من الصعب عليه الاستمرار في حكم العراق من مدينتي البصرة والكوفة، حيث كان "يقيم ستة أشهر في كل منهما، فأرسل إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه في عمارتها فأذن له الخليفة بذلك"[2].

اختطها الحجّاج بن يوسف الثقفي في أرض كسكر، وهي تتوسط عدة مدن، فهي تبعد عن الكوفة أربعين فرسخاً، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة، وهي إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد، بدأ الحجّاج في بنائها عام ٨٣هـ/٧٠٢م وانتهى منها عام ٨٦هـ/٧٠٥م، "وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات"[3].

ويتضح في تخطيطها الملامح الأساسية لتخطيط المدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد الجامع ودار الإمارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها من الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموي الجديد، ولعبت واسط دوراً سياسياً مهماً، فكانت المناظر متصلة بينها وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً، فتجرد الخيل إليهم،

---

(١) انظر، آل كمال، سليمان صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢، ص٦٤٤-٦٤٦.

(٢) عبده، عبد الله كامل موسى: الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وأفريقية، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص١٨١.

(٣) الناطور، شحادة: تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، أربد، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٦م، ص١٩٧.

فكانت قزوين ثغراً، فمنها كانت تتحرك الجيوش وفيها ضربت النقود، وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية، فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق في عهد الحجّاج.

تم اختيار موقع واسط بعناية بالغة، فهو عبارة عن بقعة مرتفعة عن مستوى سطح النهر، نقي الهواء، "أمر الحجاج بن يوسف بتشييد دار الإمارة أو القصر والمسجد الجامع في قلب المدينة، وترك حولها فاصلاً يفصلها عن الأسواق والدور، وأن يكون القصر ملاصقاً للمسجد الجامع، وأمر أن يكون القصر بمثابة مركز المدينة بحيث تؤدي إليه أو تتقاطع عنده الشوراع الرئيسية"[١].

٢- بناء تونس: اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام ٨٢هـ/٧٠١م لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار هجوم البيزنطيين على قرطاجة الذي حدث عام ٧٨هـ/٦٩٧م، "بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة، وسميت تونس بهذا الاسم في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس، واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناءً بحرياً ومركزاً للأسطول الإسلامي، بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب بخبراء في هذه الصناعة، زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناء على توجيه الخليفة عبد الملك"[٢].

بنيت مدينة تونس طبقاً لأهداف سياسية استراتيجية وأهداف اقتصادية اجتماعية تبناها الخليفة عبد الملك، أما الأهداف السياسية البعيدة المدى فيتضح بوضع حد لاعتداءات الروم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل لذلك هو إيجاد قاعدة بحرية وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطوله، مهمته صد العدوان الرومي بادئ الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وأوعز عبد الملك إلى شقيقه والي

---

[١] عبده، عبد الله كامل موسى: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص١٨٢.

[2] الناطور، شحادة: تجديد الدولة الأموية، مصدر سابق، ص٢٠٠.

مصر عبد العزيز بن مروان إرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام، وأما الهدف الثاني فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية من خلال ايجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأنشأ في المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة، ودوَّن الدواوين، ونظّم الخراج، واهتم بالدعوة الإسلامية بين البربر، وابتعث الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي، "وسارت المدينة لتكون معسكراً حربياً في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، ومركزاً حضارياً ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي، وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أركان الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة[١].

٣- بناء القيروان: وصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها، فأفنى من بها من النصارى، ثم قال: "إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر! فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها! ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر إلا وقد عُلم به، وإذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة، فهم مرابطون!. فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قرّبوها من السبخة فإن دوابكم الإبل وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول، وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى"[٢].

---

[١] انظر، الناطور، شحادة: تجديد الدولة الأموية، مصدر سابق، ص٢٠٣.

[٢] ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: (ت: ٦٩٥هـ/١٢٩٦م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج١، ص١٩.

وفي عام ٥١هـ/٦٧١م شرع عقبة في ابتداء بناء مدينة القيروان وأجابه العرب إلى ذلك، ثم قالوا: "إنك أمرتنا بالبناء في شعارى وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك!. وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسائرهم من التابعين، فدعا الله سبحانه وأصحابه يؤمنون على دعائه، ومضى إلى السبخة وواديها، ونادى: أيتها الحيات والسباع! نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فارحلوا عنا! فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه!، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب، من أن السباع تخرج من الشعرى وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعةً، والذئب يحمل جروه، والحية تحمل أولادها، ونادى في الناس: كفوا عنهم حتى يرحلوا عنها!، فلما خرج ما فيها من الوحش والسباع والهوام، والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حر الشمس، فلما لم يروا منها شيئاً دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون بها حية ولا عقرباً ولا سبعاً، فاختط عقبة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه، ولم يحدث فيه بناء، وكان يصلي فيه وهو كذلك، فاختلف الناس عليه في القبلة، وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فأجهد نفسك في تقويمها!، فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلما رأى أمرهم قد اختلف، بات مغموماً، فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه، فأتاه آت في منامه فقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك! وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة! وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به. فاستيقظ من منامه وهو جزع، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس، فلما انفجر الصبح، وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين، إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أن الأمر من عند الله، فأخذ اللواء، فوضعه على عنقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب، فانقطع التكبير، فركز لواءه، وقال: هذا محرابكم، فاقتدى به سائر

مساجد المدينة، ثم أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد، وعمرت، وشد الناس إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها، وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع، حتى كمل أمرها"[١].

وبعد اختياره للموقع أزال الأشجار وأخرج ما فيه من حيوانات وحيات وغير ذلك، وبدأ في تخطيط المدينة وبناء عمائرها، وقد استخدم في تشييد عمائرها قراميد الآجر لوجود الطين المناسب ولخلوها من الحجارة. وتعد القيروان رابع مدينة مصرت خارج شبه الجزيرة العربية بعد مدن البصرة والكوفة والفسطاط، والواقع أن المسلمين منذ بدء الفتوحات الإسلامية في العراق والشام ومصر اهتموا اهتماماً بالغاً ببناء مراكز انطلاق لجيوشهم التي خرجت من شبه الجزيرة العربية رافعة راية الدين الإسلامي لنشر الإسلام في أرجاء المعمورة كافة، وقد أراد المسلمون أن تكون هذه المدن الجديدة موطناً لهم ومراكز إدارية للأقاليم التي فتحوها، ونقاط إشعاع للعلم والمعرفة ومراكز للتجارة والصناعة والزراعة، لذا فإن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرص أن يضع شروطاً واضحة لاختيار المكان المناسب لها، وأوضح خريطة تخطيطها، وأمر أن يشارك المهندسون الولاة في تنفيذ التخطيط بعد اختيار الموقع الذي تنطبق عليه الشروط الموضوعة، وهي الشروط التي روعيت عند اختيار عقبة بن نافع موقع القيروان وبناء منشآتها الدينية والمدنية والحربية.

فرغ عقبة من تشييد القيروان عام ٥٥هـ/٦٧٥م، أي أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات، وتختلف القيروان عن مدن البصرة والكوفة والفسطاط في اشتمالها على تحصينات حربية تحيط بالمدينة. وشيد عقبة بن نافع المسجد الجامع وسط المدينة[٢].

---

(١) ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٢٠-٢١.

(٢) انظر، عبده، عبد الله كامل موسى: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص٢٩٥-٢٩٧.

٤- بناء الرملة: شيدها سليمان بن عبد الملك عندما ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك جند فلسطين، حيث "نزل لُدّ، ثم أسس الرملة ومصّرها، وكان أول ما بنى منها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين، ثم اختط المسجد وبناه"[١].

٥- بناء جرجان*: أول من أحدث بناءها "يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، وهي أكبر مدينة بنواحيها، وليس بالمشرق بعد أن تتجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان على مقدارها، وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة، وقد خرج منها رجال كثيرون موصوفون بالستر والسخاء"[٢].

د- أدوات الحرب الأموية:

أدوات الحرب عند الأمويين متعددة، وأهمها: السيف والرمح والقوس والسهم والدرع.

١- السيف: فهو أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً وأقربها إلى نفوسهم، ولذلك كثرت أسماؤه عندهم ولهجوا به في أشعارهم، وأول من عمل الحديد من العرب "هو الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة، ولذلك قيل لبني أسد القيون (جمع قين وهو الحداد)، وقيل لكل حداد هالكي"[٣]. والأبيض من أسماء السيوف عند العرب. وكان من أحسن السيوف عند العرب "السيوف المَشْرَفية. والمشرفي هو السيف المنسوب إلى مشارف، وهي على الأرجح مشارف الشام، وقيل كانت موضعاً باليمن، ومن أحسنها أيضا السُّرَيجِيَّة نسبة إلى سُرَيْج وهو رجل من بني أسد أيضاً، كان حداداً يصنع السيوف، والمهند هو السيف صناعة الهند"[٤]. وقد بلغ من اهتمام العرب بالسيف أن وضعوا أسماء لأجزائه المختلفة

---

[١] عبده، عبد الله كامل موسى: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص١٠٤.

* جرجان: مدينة مشهورة في خراسان، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص١٣٩).

[٢] عبده، عبد الله كامل موسى: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص١٠٧.

[٣] الألوسي، محمود شكري (ت: ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٢، ص٦٢.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج٣، ص٣٥٤.

"مثل الذبابة: وهي طرفه الذي يضرب به، والذؤابة: وهي علاقته (أي: وسطه)، والظبة: وهي أيضاً الحد والطرف الذي يضرب به، والغرار: وهو حد السيف"[1].

وكانوا لتمكنهم من استخدامه وإلفهم له يقولون عن السيف: "إنه يغني عن غيره ولا يغنى عنه غيره، ويعمل به عمل السلاح كله، فكانوا يطعنون به كالرمح ويضربون به كالعمود، ويقطعون به كالسكين، ويجعلونه سوطاً ومقرعة، ويتخذونه جمالاً ووجاهة في الملأ، وأنيساً في الوحدة ورفيقاً للسائر. وكان العرب يعتقدون أن السيف إذا سل من غمده دون أن يضرب به أورث الجبن. وهم يعرفون لهذا السلاح خطره فمن عمل به دون دراية ودربة ربما أصاب أذنه أو رجله أو أذن فرسه أو عضده، ولذلك كان للتدريب على استعماله أصول وقواعد، وكان سلاح الفارس والراجل على السواء"[2].

٢- الرمح: الرمح عبارة عن قناة من الخشب ركب فيها سنان من الحديد، وأجود أنواع الرماح عند العرب "الآزنية - أو اليزنية - نسبة إلى ذي يزن الملك، والرماح الخطية نسبة إلى الخط، وهي جزيرة بالبحرين كانت مرفأ لسفن الرماح الواردة من الهند أو من جنوب فارس"[3].

ويختلف اسم الرمح باختلاف صفته، فيسمى "صَعْدة إذا كانت قناته نبتت مستوية دون تشذيب. والعنَزة ما كان أطول من العصا وأقصر من الرمح، وفيها زج كزج الرمح (الزج الحديدة في أسفل الرمح)، فإذا طالت العنزة شيئاً وفيها سِنان دقيق فهي نيزك ومطرد. فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهي آلة وحربة. ويقال للرمح سمهري إذا كان شديداً، وصَدق إذا كان صلباً. فإذا اجتمع فيه الطول والسنان فهو القناة والرمح. ومن الأسنة نوع يقال له القعضبية نسبة إلى قعضب، وهو رجل قشيري كان

---

[1] المبرد، محمد بن يزيد (ت:٢٨٦هـ/٨٩٩م): الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٥٦.

[2] كمال، أحمد عادل: الطريق إلى المدائن، بيروت، دار النفائس، ط٦، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٧٧.

[3] المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مصدر سابق، ج١، ص٧٨.

يعملها. ومن أحسن الرماح الصلب (المتين) اللدن (المرن) المستقيم الذي إذا هزه صاحبه لم ينثن وإذا طعن به لم ينقصف"[١].

والرمح من سلاح الفرسان والمشاة على السواء، وهو في الفرسان أكثر وأنسب من السيف. وشأن كل أدوات الحرب يحتاج استعمال الرمح إلى تعليم ومران ودربة.

٣- القوس: أجود القسي هي القسي "العصفورية نسبة إلى رجل اسمه عصفور. والقسي الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة. وكان لهم علم بالرمي بالنبال أخذوه بالمزاولة والممارسة. وقد وردت روايات كثيرة تفيد أن من المسلمين من حذق الرمي بالسهام إلى درجة تفوق مهارة القناصة بالبنادق اليوم. وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يستطيع أن يصيب حمامة بعينها من سرب حمام بري يطير في سماء مكة. وفي فتح الأنبار حاصر المسلمون حصنها وكان أهلها يرمون المسلمين من أعلى الحصن، فأمر خالد رضي الله عنه رماته أن يرشقوهم بالسهام وأن يتوخوا العيون، فأصابوا يومها ألف عين حتى سميت تلك الموقعة ذات العيون"[٢].

وقد وضعوا للقوس ولأجزائها أسماء كثيرة فقالوا: "القوس، وكبدها ما بين طرفي العلاقة (وهو وسطها)، والكُلْيَة تلي ذلك، ثم الأبهر يلي الكلية، ثم الطائف وهما طائفان الأعلى والأسفل"[٣]. "وكلما كانت القوس لينة مرنة كلما كانت أشد نزعاً، وتلين القوس كلما زادت كمية الرطوبة فيها وتيبس بقلتها، ولذلك كانوا يتركونها بعد قطعها من شجرها في الظل لتتشرب ماء اللحاء"[٤].

والسهم هو الذي يرمى به القوس، "وأول ما يقطع العود ويقتضب يسمى قطعاً، ثم يبرى فيسمى برياً وذلك قبل أن يقوّم، فإذا قوّم وصار صالحاً يُراش (يوضع في مؤخره

---

[١] المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مصدر سابق، ج١، ص١٧٦.

[٢] الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصدر سابق، ج٣، ص٣٥٥.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج٣، ص٣٥٦.

[٤] المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مصدر سابق، ج١، ص٣٥.

الريش) وأن ينصل (يوضع في مقدمه النصل) فهو القدح، فإذا ركب له الريش والنصل صار سهماً ونبلاً"[1].

وأجود السهام كانت "سهام بلاد، وسهام يثرب، وهما قريتان من قرى اليمامة. ويقال للسهم أيضاً النبل والنشاب. وخشب السهم قبل أن يعمل اسمه نضيّ، فإذا خرق موضع نصله فهو قدح. والقذذ ريش السهم، والأقذ السهم الذي لا ريش له، ونصل السهم حديدته"[2].

٤- الدرع: هو القميص المتخذ من "الزَّرَد - أو السَّرْد - تنسب إلى داود وسليمان عليهما السلام، وتنسب إلى الحطم بن محارب، فيقال: "الحُطيمة"، والدرع السلوقية نسبة إلى سلوق، قرية باليمن. وقد لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم الدرع في الحروب، وكان له درع اسمها البتراء كانت على الحسين رضي الله عنه يوم قتل، وكان على سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم الأحزاب درع من حديد مقلصة خرجت منها ذراعه كلها.

والدروع نوعان: نوع هو عبارة عن صفائح صلبة من حديد تثبت بالقميص. ومن دروع الصفائح نوع صفائحه كبيرة وتتحرك مع المفاصل بمفصلات. ونوع من الحلق المتضافر المتداخل بعضه في بعض بحيث يصد السيف والسهم والرمح فلا تنفذ منه. وكلما كان الدرع أقوى استعصى خرقه أو النفوذ فيه، وكلما خف وزنه كان أفضل وأجود، ولذلك يعتبر الدرع المزرود من الحلق المتضافر أفضل من درع الصفائح"[3].

وكان داود عليه السلام أول من صنع الدرع من الحلق المتضافر، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ

---

[1] الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصدر سابق، ج٣، ص٣٥٧.

[2] المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مصدر سابق، ج١، ص١٩.

[3] كمال، أحمد عادل: الطريق إلى المدائن، مصدر سابق، ص٨٨.

مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[١].

٥- البيضة: وهي ما يلبس في الرأس "مثل الخوذة من الحديد، والمغفر وهو: زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة"[٢].

٦- المنجنيق: وهي آلة لرمي الحجارة، وهي من آلات حصار الحصون. وقد نصب "رسول الله صلى الله عليه وسلم منجنيقاً على أهل الطائف، ونصب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عشرين منجنيقاً في بعض معاركه"[٣].

٧- الدبابات: مفردها دبابة، "وهي عربة تصنع من الخشب المكسو بالجلد يدخلها الرجال ويقتربون بها من جدران الحصون حتى تلتصق بها لينقبوها، وهي تحميهم من سهام عدوهم وحجارتهم وزيتهم المغلي ونيرانهم، وكانت أحياناً لا تفي بتوفير الدفاع ضد جميع هذه الأنواع من المقاومة والأساليب المضادة، ولم يكن العرب يصنعونها ولكن حدث أن اشتروها من الشام"[٤].

٨- الرايات والأعلام: كان اللواء - وهو العلم - في الأصل "بيد رئيس الجيش، ثم صار يحمل على رأسه، يحمله عنه غيره حتى يتفرغ هو للنظر إلى المعركة. واللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، أما الراية فهي ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح، فاللواء دون الراية وهو علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، وقد يكون للأمراء وحدات أصغر من القائد العام، والراية يتولاها صاحب الحرب"[٥].

وكان من عادة العرب اتخاذ اللواء في حروبهم. وفي فتح خيبر فرق الرسول صلى الله عليه وسلم الرايات. ولم تكن هناك راية قبل خيبر إنما كانت ألوية، "فكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم سوداء تدعى العُقاب (النسر) من بُرْد (رداء) للسيدة عائشة رضي

---

[١] سورة سبأ، الآية:١٠-١٣.

[٢] كمال، أحمد عادل: الطريق إلى المدائن، مصدر سابق، ص٩٠.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص٩١.

[٤] المصدر السابق ذاته، ص٩١.

[٥] الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصدر سابق، ج٢، ص٦٧.

الله عنها، وكان لواؤه أبيض، ودفع راية إلى علي بن أبي طالب، وراية إلى الحبـــاب بـــن المنذر، وراية إلى سعد بن عبادة رضي الله عنهم، ولما رحل رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم من ثنية الوداع في غزوة تبوك عام ٩هـــ/٦٣٠م عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر رضي الله عنه ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام رضـــي الله عنـــه، وراية الأوس إلى أسيد بن الحضير رضي الله عنه، ولواء الخزرج إلى أبي دجانه رضـــي الله عنه، وأمر كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء أو راية، كما عقد في يوم حنين ويوم الفتح لعمه العباس راية سوداء"[١].

---

(١) القلقشندي، أحمد بن علي: (ت: ٨٢١هـــ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٧م، ج٣، ص٢٧٠.

الفصل الرابع
الجهاد في الدولة الأموية

أ- مفهوم الجهاد وأهدافه:

١- الدعوة إلى الجهاد: الجهاد في سبيل الله تعالى من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرب به المتقربون وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض؛ وما ذاك إلا لما يترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين والمنافقين، وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين.

وقد ورد في فضله وفضل المجاهدين من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يحفز الهمم العالية، ويحرك كوامن النفوس إلى المشاركة، والصدق في جهاد أعداء الله تعالى، قال الله تعالى: (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ، لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)(١)، وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(٢). وقال عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١-٤٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)(١)، والآيات في فضل الجهاد والترغيب فيه وبيان فضل المجاهدين كثيرة جداً. وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رِبَاطُ يومٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خيرٌ مِنَ الدُنيَا وَمَا عَلَيهَا، وَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُم مِنَ الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُنيَا وَمَا عَلَيهَا، وَالرَّوحَةُ وَيَرُوحُهَا العَبدُ فِي سَبِيلِ اللهِ أو الغَدوَةُ خَيرٌ مِنَ الدُنيَا وَمَا عَلَيهَا)[٢]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مَكلُومٍ يُكلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إلاّ جَاءَ يَومُ القِيامَةِ وَكَلمُهُ يُدمِي، اللّونُ لَونُ الدَّمِ وَالرِيحُ رِيحُ المِسْكِ)[٣]، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (جَاهِدُوا المُشرِكِينَ بِأموَالِكُم وَأنفُسِكُم وَألسِنَتِكُم)[٤]، وعن أبي عبس بن جبر الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَا اغبرّتْ قَدَمَا عَبدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النَّار)[٥].

٢- أهداف الجهاد عند المسلمين: الهدف الرئيسي من الجهاد هو "تعبيد الناس لله تعالى وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وإخلاء العالم من الفساد؛ ذلك لأن خضوع البشر لبشر مثلهم، وتقديم أنواع العبادة لهم من الدعاء والنذر والذبح والتعظيم والتشريع والتحاكم أساس فساد الأجيال المتعاقبة من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا، وهو انحراف بالفطرة السوية

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٠-١٣.

(٢) صحيح البخاري، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، ج٣، ص١٠٥٩، رقم الحديث ٢٧٣٥.

(٣) صحيح البخاري، ج٥، ص ٢١٠٤، رقم الحديث ٥٢١٣.

(٤) حنبل، أبو عبد الله أحمد (ت:١٦٤هـ/٧٨١م): المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، رقم الحديث ١١٧٩٨.

(٥) صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٣٥، رقم الحديث ٢٦٥٦.

عما خلقها الله تعالى عليه من التوحيد"[١]، وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: (ألا إنَّ رَبي أَمَرَني أَنْ أُعَلِّمَكُم مَا جَهِلتُم مما عَلّمَني يَومِي هَذا، كُلُ مَالٍ نَحَلْتُه عَبْداً حَلاَل، وإني خَلَقْتُ عِبَادي حُنَفَاء كُلُّهُم، وإنّهُم أَتتهُم الشَّيَاطِينَ فَاجْتَالَتهُم عَنْ دِينهم وَحَرَّمتْ عَلَيهم مَا أَحلَلتُ لَهُم، وَأَمَرَتْهم أَن يُشرِكُوا بِي مَا لَم أُنزِّل بِه سُلطَانا)[٢]، والدليل على هذا قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ)[٣]، قال الشوكاني رحمه الله: "فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي ألا تكون فتنة وأن يكون الدين لله تعالى، وهو الدخول في الإسلام والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله"[٤]، وهذا الهدف السامي موضع اتفاق بين علماء الإسلام، قال الشافعي رحمه الله: "فدلَّ كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به مَنْ فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران:

أحدهما: أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين مَنْ يمنعه.

الآخر: أن يجاهد من المسلمين مَنْ في جهاده كفاية حتى يُسلم أهل الأوثان أو يعطي أهل الكتاب الجزية"[٥]، وقال ابن القيم رحمه الله: "والمقصود من الجهاد إنما هو أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، فإن من كون الدين لله: إذلال الكفر وأهله وصغاره، وضرب الجزية على رؤوس أهله، والرق على رقابهم، فهذا من دين الله ولا

---

[١] العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، الرياض، دار طيبة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٥٨.

[٢] صحيح مسلم، ج٤، ص ٢١٩٧، رقم الحديث ٢٨٦٥.

[٣] سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

[٤] الشوكاني، محمد بن علي (ت: ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م): فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج١، ص٢٢٠.

[٥] الشافعي، محمد بن إدريس (ت: ٢٠٤هـ/٨١٩م): الأم، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت، ج٤، ص١٦٧.

يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم وإقامة دينهم كما يحبون بحيث تكـــون لـــديهم الشوكة والكلمة"[١].

وهذا الهدف السامي المتضمن إعلاء كلمة الله، وإقامـــة ســـلطان الله في الأرض، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وإخلاء العالم من الفساد الأكبر الذي هو الشرك، وما ينتج عنه، وإزالة الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين الإسلام، ويُعبِّدونهم لغير الله هو "ما يجب أن يسعى إليه في كل مكان وزمان لا تأخذهم في الله لومة لائم"[٢].

ومن الأهداف التي تتبع هذا الهدف:

أولاً: "ردَّ اعتداء المعتدين على المسلمين"[٣]: قال الله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[٤].

ثانياً: "إزالة الفتنة عن الناس: وسواء ما يمارسه الكفار من أشكال التعذيب والتضييق على المسلمين ليرتدوا عن دينهم، أو الأوضاع والأنظمة الشركية، وما ينتج عنها من فساد في شتى مجالات الحياة، أو فتنة الكفار أنفسهم، وصدهم عن الاستماع إلى الحق وقبوله"[٥].

ثالثاً: حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار: وحقيقتها حماية العقيدة والمنـــهج "وكلمـــا امتد الإسلام إلى أرض وأزال عنها أنظمة الشرك صارت داخلة في الدولة الإسلامية"[٦].

رابعاً: "إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وإيهان كيدهم وإغاظتهم"[٧]: قال الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْـــخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم)[٨].

---

[١] ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥١هـــ/١٣٥٠م): أحكام أهل الذمة، بيروت، دار العلـــم للملايين، ط٣، ١٤٠٣هـــ/١٩٨٣م، ج١، ص١٨.

[٢] العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، مصدر سابق، ص١٦٢.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص١٧٢

[٤] سورة البقرة، الآية:١٩٠.

[٥] العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، مصدر سابق، ص١٧٢-١٧٣.

[٦] المصدر السابق ذاته، ص١٧٥.

[٧] المصدر السابق ذاته، ص١٧٩.

[٨] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

خامساً: كشف المنافقين: فإن المسلمين في حال الرخاء والسعة ينضاف إليهم غيرهم ممن يطمعون في تحقيق مكاسب مادية ولا يريدون إعلاء كلمة الله على كلمة الكفر، "وقد يتصنعون الإخلاص فيخفى أمرهم على كثير من المسلمين، وأكبر كاشف لهم هو الجهاد؛ لأن العبد يبذل فيه أغلى ما يملك غير عقيدته وهو روحه، والمنافق ما نافق إلا ليحفظ روحه"[١]، والله تعالى يقول: (فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)[٢].

سادساً: "تمحيص المؤمنين من ذنوبهم"[٣]: قال تعالى: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)[٤].

سابعاً: تربية المؤمنين على الصبر والثبات والطاعة وبذل النفس: إذ إن الركون إلى الراحة والدعة وعدم ممارسة الشدائد والصعاب يورث العبد ذلاً وخمولاً وتشبثاً بمتاع الحياة الدنيا، "وهكذا فإن خوض المعارك ومقارعة الأعداء والتعرض لنيل رضا الله في ساحات الوغى يصقل النفوس ويهذبها ويذكرها بمصيرها، ويوجب لها استعداداً للرحيل حتى تصبح ممارسة الجهاد عادة لها تشتاق لها كما يشتاق الخاملون للقعود والراحة، وتتربى نفس المجاهد على صفات محمودة كالشجاعة والنجدة والصبر والأخوة والعفو، وتزول عنها الصفات المذمومة كالجبن والشح والهلع والأنانية ونحو ذلك"[٥].

ثامناً: تأديب المتمردين والناكثين للعهود المنتهزين سماحة الإسلام وأهله، قال الله تعالى في حق من نقضوا العهود والمواثيق: (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ

---

[١] العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، مصدر سابق، ص١٨١.

[٢] سورة محمد، الآية: ٢٠.

[٣] العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، مصدر سابق، ص١٨١.

[٤] سورة آل عمران، الآية: ١٤٠-١٤١.

[٥] العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، مصدر سابق، ص١٨٣.

فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ، أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ)[١].

تاسعاً: دفع الظلم والدفاع عن الأنفس والحرمات والأوطان والأموال: قال الله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)[٢].

٣- من يأمر بالجهاد ويشرف عليه؟: الذي يأمر بالجهاد ويشرف عليه هو إمام المسلمين وخليفتهم الشرعي، يقول ابن قدامة رحمه الله: "وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك"[٣]، ولو حصل أن الإمام الشرعي لم يأمر بالجهاد في بعض المواطن لسبب أو لآخر وكان تأخير الجهاد فيه مفسدة ومضرة بالمسلمين فيقوم به من يحصل به تحقيق المصلحة ولو لم يستأذنه، قال ابن قدامة رحمه الله: "إذا جاء العدو صار الجهاد فرض عين فوجب على الجميع، فلم يجز لأحد التخلف عنه، فإذا ثبت هذا فإنهم لا يخرجون إلا بإذن الأمير؛ لأن أمر الحرب موكول إليه، وهو أعلم بكثرة العدو وقلتهم ومكامن العدو وكيدهم، فينبغي أن يرجع إلى رأيه؛ لأنه أحوط للمسلمين إلا أن يتعذر استئذانه لمفاجأة عدوهم لهم فلا يجب استئذانه؛ لأن المصلحة تتعين في قتالهم والخروج إليهم لتعين الفساد في تركهم، ولذلك لما أغار الكفار على لقاح النبي صلى الله عليه وسلم فصادفهم سلمة بن الأكوع خارجاً من المدينة تبعهم فقاتلهم من غير إذن فمدحه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (خير رجالتنا سلمة بن الأكوع)"[٤]، وإن لم يكن للمسلمين إمام عام كما حصل في بعض فترات التاريخ الإسلامي وكما هو واقع المسلمين الآن، فيأمر به ويشرف عليه من هو مؤهل لذلك ويكون بإمكانه تحقيق مصلحة

---

[١] سورة التوبة، الآية: ١٢- ١٣.

[٢] سورة الحج، الآية: ٣٩-٤٠.

[٣] ابن قدامة، عبد الله بن أحمد (ت:٦٢٠هـ/١٢٢٣م): المغني، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ط١، د.ت، ج١٠، ص٣٧٣.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج١٠، ص٣٨٩.

المسلمين، قال ابن قدامة رحمه الله: "فإن عُدِم الإمام لم يؤخر الجهاد؛ لأن مصلحته تفوت بتأخيره"[1]، ويقول صديق حسن خان في حكم الجهاد: "هذه فريضة من فرائض الدين أوجبها الله تعالى على عباده المسلمين من غير تقييد بزمن أو مكان أو شخص أو عدل أو جور"[2]. "وعلى هذا فإن القادة المسلمين في البلاد الإسلامية اليوم وإن لم يكن هناك خليفة عام للمسلمين جميعاً يجب عليهم من جملة ما يجب عليهم من أمور الإسلام أن يرفعوا راية الجهاد في سبيل الله من أجل الدعوة الإسلامية"[3]. يقول الدكتور فايد حماد محمد عاشور: "إذا كان حال الجهاد ووجوبه قضية دائمة فإنه لا يحق لولي أمر المسلمين ترك الجهاد، وإهمال الدعوة إليه، فإن لم يفعل كان على المسلمين واجب حثه عليه وتوجيه اللوم إليه، فإن لم يفعل وجب عليهم خلع طاعته ونبذ موافقته وضرورة استبداله بآخر يقوم بواجب الجهاد والقتال؛ لأن مصلحة الإسلام وعامة المسلمين تقتضي ذلك وهذه من المسائل الهامة العامة التي ترتبط بحياة أمة الإسلام، وشريعة الإسلام لا تقبل المساومة، وعلى المسلمين واجب تحطيم كل قوة تعترض طريق الدعوة إلى الإسلام ومن يقف في وجه إبلاغها للناس... كان أمراء الإسلام لا يتركون الجهاد إما خوفاً من الله تعالى وتنفيذاً لشريعة الجهاد، وإما خوفاً من ثورة عامة المسلمين عليهم؛ لأن عاطفة المسلمين لم تكن تسمح للمتخاذلين بالبقاء في قيادة الأمة أمداً طويلاً"[4].

وعلى هذا فالحاصل في فلسطين من احتلال اليهود لأراضي المسلمين أو في غيره من البلاد إذا احتلها العدو، فالأمر لا يستلزم وجود خليفة للمسلمين، بل يجب على أهل

---

(1) ابن قدامة، المغني، مصدر سابق، ج١٠، ص٣٧٤.

(2) القنوجي البخاري، صديق بن حسن (ت: ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م): الروضة الندية شرح الدرر البهية، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، بيروت، المكتبة العصرية، دار الجيل، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص٣٢٣.

(3) هيكل، محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، بيروت، دار البيارق، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٢، ص٨٧١.

(4) عاشور، فايد حماد: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٤٧.

ذلك البلد المدافعة والقتال لإخراج العدو من بلادهم إذا كانوا يستطيعون ذلك، وإلا لزم المسلمين جميعاً أن يدافعوا عن إخوانهم، وأن يساعدوهم بكل ما يستطيعون لإخراج العدو المحتل.

ب- وجوب الثبات أمام العدو:

الفرار من الزحف كبيرة من كبائر الذنوب، لما فيه من الخذلان البين والخطر العظيم على الإسلام والمسلمين، ولهذا ورد فيه من التغليظ والتهديد ما ورد، وقد أجمعت الأمة على تحريمه إلا بشروط معينة وأسباب واضحة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ، وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[1]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ، الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ!)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنّ؟ قَالَ: (الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتلُ النَّفسِ التِي حَرّمَ اللهُ إلا بِالحقّ، وَأَكلُ الرِّبا، وَأَكلُ مَالُ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِي يَومَ الزَّحْفِ، وَقَذفِ الْمحصَنَاتِ الْمؤمِنَاتِ الغَافِلاَتِ)[3].

فالتولي يوم الزحف لا يجوز إلا في حالات، منها:

١- أن يكون متحرِّفاً لقتال، والتحرف: الزوال والتحرك عن مواجهة العدو.

٢- أو متحيزاً إلى فئة، أي منضماً إلى جماعة المسلمين، قريبة كانت هذه الجماعة أم بعيدة.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ١٥-١٦.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٦٥-٦٦.

[3] صحيح البخاري، ج٣، ص١٠١٧، رقم الحديث ٢٦١٥.

قال أبو زكريا النحاس رحمه الله: "اعلم أن الفرار من الزحف حيث لا يجوز من أعظم كبائر الذنوب عند الله تعالى بإجماع العلماء، وفاعله مستحق لغضب الله ومقتــه، وأليم عذابه، وقد ورد في الترهيب من ذلك والتحذير من فعله جملة أحاديــث"[(١)]، ولا فرق في هذا بين أن يكون الجهاد فرض عين أم فرض كفاية، فالفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وأعظم العظائم، وهو من المهلكات الموبقات، سواء كان الجهاد فرض عــين أو فرض كفاية، طالما أن المرء شهد القتال، ووقف في الصف. ويضيف ابن النحاس رحمــه الله: "اعلم أن الجهاد إذا كان فرض كفاية على الإنسان ثم حضر الصف صار عليه فرض عين، وحرم عليه الفرار، وإنما يحرم الفرار إذا لم يزد عدد الكفار على المثلين، فــإن فــرَّ متحرفاً لقتال كمن ينصرف ليكمن في موضع ويهجم، أو يكون في مــضيق فينــصرف ليتبعه العدو إلى متسع يسهل القتال فيه، وكذلك إذا فر متحيزاً إلى فئة يستنجد بها جاز، وسواء كانت تلك الفئة قليلة أو كثيرة قريبة أو بعيدة على الصحيح. ومن عجز بمرض أو نحوه، أو لم يبق معه سلاح فله الانهزام إن لم يمكنه الرمي بالحجارة، فإن أمكنــه الرمــي بالحجارة حرم عليه الانهزام على الأصح، ويسن لمن وقع له شيء من الأعــذار وأراد أن يولي، أن يولي متحرفاً أو متحيزاً، ولو مات فرسه وهو لا يقدر على القتال راجلاً فلــه الانهزام، ولو غلب على ظنه أنه إن ثبت قتل لم يجز له الانهزام على الــصحيح، وإن زاد عدد الكفار على المثلين جاز الانهزام، وإن كانوا رجالة والمسلمون فرساناً، فلــو كــان المسلمون رجالة والكفار فرساناً حرمت الهزيمة"[(٢)].

ج- موقف الإسلام من القاعدين عن الجهاد:

يعذر عن الخروج في الجهاد أنواع من الناس ذكر منــهم في القــرآن الكــريم: الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، قال الله تعالى: (لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا

[(١)] ابن النحاس، أبو زكريا أحمد بن إبراهيم الدمشقي الدمياطي (ت: ٨١٤هـ/١٤١١م): مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام، بيروت، دار البــشائر الإســلامية، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج١، ص٥٦٦.

[(٢)] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٥٦٩.

عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ)[١]. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لآيتي سورة التوبة: "ثم بين الله الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها:

١- ما هو لازم للشخص لا ينفذه عنه وهو الضعيف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوه، ولهذا بدأ به.

٢- ومنها: ما هو عار من سبب مرض عنّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله.

٣- أو بسبب فقر لا يقدر على التجهيز للحرب.

فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا"[٢].

د- الهدنة أو السلم مع الأعداء:

وضح الإسلام كل ما يتعلق بالسلم والهدنة مع الأعداء إذا رأى المسلمون المصلحة في ذلك، ولتوضيح ذلك فلا بد من معرفة صنوف الكفار من حيث علاقة المسلمين بهم، وأهم منهم: إما أهل عهد، وإما من ليس له عهد.

وأهل العهد ثلاثة أصناف وهم:

أ- "أهل الذمة: وهم الذين يعطون عقداً مستمراً للبقاء في دار الإسلام إذا أعطوا الجزية والتزموا أحكام الإسلام.

ب- المستأمنون: وهم الذين يعطون عقداً مؤقتاً للبقاء في دار الإسلام لغرض شرعي، كسماع كلام الله تعالى، أو تجارة أو سفارة.

---

[١] سورة التوبة، الآية: ٩٢-٩٣.

[٢] ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت:٧٧٤هـ/١٣٧٢م): تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص٥٩٣.

ج- أهل الصلح والهدنة: وهم الكفار الذين بينهم وبين دولة الإسلام عهد، إمـــا عهـــد هدنة وهو الاتفاق على إيقاف الحرب لمدة معلومة، وإما معاهدة مطلقة"[١].

والذين لا عهد لهم صنفان في الجملة وهما:

أ- "إما كفار أصليون محاربون: وهم الذين لا عهد لهم ولا ذمة، سواء أكانوا محـــاربين فعلاً أم لا، فإن من ليس له عهد لا يستبعد منه الحرب للمسلمين.

ب- وإما مرتدون عن الإسلام"[٢].

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه صالح أهل مكة على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، ودخل حلفاؤهم من بني بكر معهم، وحلفاؤه من خزاعة معه، فعدت حلفاء قريش على حلفائه فغدروا بهم، فرضيت قريش و لم تنكره، فجعلهم بذلك ناقضين للعهد، واستباح غزوهم من غير نبذ عهدهم إليهم؛ لأنهم صاروا محاربين له، ناقـــضين لعهـــده برضاهم وإقرارهم لحلفائهم على الغدر بحلفائه.

وثبت عنه أنه صالح اليهود، وعاهدهم لما قدم المدينة، فغدروا به، ونقضوا عهـــده مراراً، وكل ذلك يحاربهم ويظفر بهم، وآخر ما صالح يهود خيبر علـــى أن الأرض لـــه ويقرهم فيها عمالاً له ما شاء، وكان هذا الحكم منه فيهم حجة على جواز صلح الإمام لعدوه ما شاء من المدة، فيكون العقد جائزاً، له فسخه متى شاء، وهذا هو الصواب، وهو موجب حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ناسخ له"[٣].

وهل الأصل السلم أم الحرب؟ اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو الحرب.

القول الثاني: أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم.

---

(١) ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (ت: ٧٢٨هـ/١٣٢٨م): مجموع الفتاوى، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢٨، ص٤١٤.

(٢) المصدر السابق ذاته، ج٢٨، ص٤١٤.

(٣) انظر، ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥١هـ/١٣٥٠م): زاد المعاد في هدي خير العبـــاد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٥، ص٩٣.

والراجح أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو "دعوتهم إلى دين الإسلام كمرحلة أولى لا يسبقها غيرها، بل هي البوابة لتحديد نوع العلاقة"[1]؛ لأن الأمة مخاطبة بنشر دينها وعقيدتها.

أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله و لم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: "أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسماً لم يكن لهم عهد و لم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب"[2].

وعلى هذا ينقسم الكفار إلى ثلاثة أقسام هي:

- القسم الأول: من يستجيب منهم لدعوتنا ويعتنق ديننا، فهؤلاء إخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، قال الله تعالى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)[3].

---

[1] هيكل، محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، مصدر سابق، ج١، ص٨٢٨.

[2] ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٩-١٦٠.

[3] سورة التوبة، الآية: ١١.

- القسم الثاني: من لا يقبل الدخول في الإسلام، لكن لا يقف في طريق دعوته، ولا يقاتل من يدعو إليه، ويلقي إلينا السلم سواء كان من أهل العهد أو لم يكن، فهؤلاء الأصل في حقهم المسالمة، ما لم يعتدوا بقول أو فعل، وعلى هؤلاء تحمل الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالسلم، وأباح فيها الإحسان للكفار كقوله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[1].

- القسم الثالث: من يرفض الدخول في الإسلام، ويقف في طريق دعوته، أو ينقض عهداً مع المسلمين، أو يعتدي على أحد منهم بقول أو فعل، أو يخطط لذلك مستقبلاً، فهؤلاء الأصل في حقهم الحرب، وهي المرحلة التالية لدعوتهم إلى دين الإسلام، وعلى هؤلاء تحمل الآيات الواردة بقتال المشركين كقوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)[2]، وقوله تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)[3]، وقوله تعالى: (واقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)[4].

هـ- موالاة الأعداء:

لقد نهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء في آيات عدة، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)[5]، وقال تعالى: (لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)[6]، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ

---

[1] سورة الممتحنة، الآية: ٨.

[2] سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

[3] سورة التوبة، الآية: ٢٩.

[4] سورة التوبة، الآية: ٥.

[5] سورة النساء، الآية: ١٤٤.

[6] سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[١]، فاتخاذهم أولياء هو اعتبارهم أصدقاء وأحباباً وأنصاراً، وذلك يظهر بالحفاوة بهم وإكرامهم وتعظيمهم، ومما يوضح ذلك قوله سبحانه وتعالى: (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)[٢]. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ)[٣]، "فالواجب على المسلمين أن يبغضوا الكافرين وأن يعادوهم في الله، وأن يجاهدوهم بالله ولإعلاء كلمة الله، وهذا لا يمنع من معاملتهم في أمور الحياة كالتجارة، ولا يوجب الغدر بما أعطوا من عهد، بل يجب الوفاء بعهدهم كما قال تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)[٤]، فبغض الكفار والبراءة منهم من أصول الدين، ومن مقتضى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت"[٥]، ولكن ذلك لا يوجب ولا يبيح الخيانة أو الظلم، فالظلم حرام ونقض العهد حرام، قال الله تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)[٦].

وقد ذكر العلماء صوراً من موالاة الأعداء، من ذلك:

- الرضا بكفرهم أو الشك فيه أو الامتناع عن تكفيرهم أو الإقدام على مدح دينهم، قال الله تعالى عن كفر الراضي: (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا)[٧]، وقال تعالى موجباً

---

[١] سورة المائدة، الآية: ٥١.

[٢] سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

[٣] سورة الممتحنة، الآية: ١.

[٤] سورة التوبة، الآية: ٤.

[٥] ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد (ت: ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م): الدرر السنية في الأجوبة النجدية، د.ن، ط٥، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٨، ص١١٣.

[٦] سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

[٧] سورة النحل، الآية: ١٠٦.

ومشترطاً الكفر بالطاغوت: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[١].

- التحاكم إليهم: كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٢].

- مودهم ومحبتهم"[٣]: قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٤].

- الركون إليهم والاعتماد عليهم وجعلهم سنداً وظهيراً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[٥].

- الانخراط في مجتمعاتهم والانضمام إلى أحزابهم وتكثير سوادهم والتجنُّس بجنسياتهم لغير ضرورة، والخدمة في جيوشهم، والعمل على تطوير أسلحتهم.

- نقل قوانينهم وتحكيمها في بلاد المسلمين، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[٦].

- التولي العام لهم واتخاذهم أعواناً وأنصاراً وربط المصير بهم، قال الله تعالى ناهياً عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٧].

- توليتهم المناصب الإدارية التي يرأسون بها المسلمين ويذلونهم ويتحكمون في رقاب الموحدين ويحولون بينهم وبين أدائهم عباداتهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٨].

---

[١] سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

[٢] سورة النساء، الآية: ٦٠.

[٣] ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (ت: ٧٢٨هـ/١٣٢٨م): الإيمان، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٣.

[٤] سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

[٥] سورة هود، الآية: ١١٣.

[٦] سورة المائدة، الآية: ٥٠.

[٧] سورة المائدة، الآية: ٥١.

[٨] سورة النساء، الآية: ١٤١.

- وكذلك جعلهم في بيوت المسلمين يطلعون على العورات ويربون أبناء المسلمين على الكفر، ومن هذا ما وقع في هذا الزمان من استقدام الكفار إلى بلاد المسلمين عمالاً وسائقين ومستخدمين، ومربين في البيوت وخلطهم مع العوائل والأسر المسلمة.

- انتساب الأبناء إلى المدارس التنصيرية والكليات والجامعات التنصيرية وسكنهم مع عوائل الكفار.

- الإقامة في بلاد الكفر بغير حاجة ولا ضرورة، ولهذا فإن المسلم المستضعف الذي لا يستطيع إظهار شعائر دينه تحرم عليه الإقامة بين الكفار إذا كان يقدر على الهجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[١]، فلم يعذر الله تعالى في الإقامة في بلاد الكفار إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة، وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله تعالى ونشر الإسلام في بلادهم، فالإقامة بين ظهرانيهم محرمة لغير ضرورة.

- مدحهم والذبّ عنهم والإشادة بما هم عليه من المدنية والحضارة، والإعجاب بأخلاقهم ومهاراتهم دون نظر إلى عقائدهم الباطلة ودينهم الفاسد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٢].

- تعظيمهم وإطلاق ألقاب التفخيم عليهم والبدء بتحيتهم وتقديمهم في المجالس، وفي المرور في الطرقات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تَبْدَءوا الْيَهُودَ وَلا النَّصَارَى بِالسَّلامِ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ)[٣].

---

[١] سورة النساء، الآية: ٩٧-٩٩.

[٢] سورة طه، الآية: ١٣١.

[٣] صحيح مسلم، ج٤، ص١٧٠٧، رقم الحديث ٢١٦٧.

- الاستغفار لهم والترحم عليهم: قال الله تعالى: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)[١].

فهذه طائفة من الأمثلة التي توضّح قاعدة تحريم موالاة الكفّار.

ومن أخطر صور موالاة أعداء الله في هذا العصر:

- القتال معهم، سيما ضد المسلمين.
- التجسس على المسلمين لصالح الكافرين.
- الدخول معهم في أحلاف، سيما ضد طائفة من المسلمين.
- السماح لهم بإنشاء قواعد عسكرية في ديار الإسلام.
- تولي الحكم نيابة عنهم في البلاد التي اغتصبوها من المسلمين.
- العمل على تنفيذ مخططاتهم.
- عقد المؤتمرات والندوات لتهيئة جو التعايش السلمي معهم في ديار الإسلام.
- العمل وتولي المناصب القيادية في المنظمات الدولية التي يهيمن عليها الكفار، حيث لا يلي ذلك إلا من وثق به الكفار واطمأنوا له.
- فتح الأجواء والطرق البرية والمياه الإقليمية لطائرات العدو وسفنهم لغزو ديار الإسلام.
- الخضوع والاستكانة والتنازل لهم مقابل البقاء في الحكم أطول مدة ممكنة[٢].

و - الإعداد للقوة في الإسلام:

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يربي صحابته رضي الله تعالى عنهم تربية كاملة تشمل جميع الجوانب الدنيوية والأخروية، فرباهم عليه الصلاة والسلام على العبادة والخلق والاستقامة، واهتم بالبدن كما اهتم بالعقل والروح، فأعدّ النبي صلى الله عليه وسلم صحابته رضي الله عنهم للقتال ورباهم على الجهاد من خلال ثلاث جوانب هي: الإعداد الإيماني، والإعداد النفسي، والتدريب:

---

[١] سورة التوبة، الآية: ١١٣.

[٢] انظر، الجلعود، محماس بن عبد الله: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، الرياض، د.ن، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٢، ص٦٤٥ وما بعدها.

١- الإعداد الإيماني: الإعداد الإيماني من أعظم ركائز الإعداد للجهاد في سبيل الله تعالى، وقد غرسه النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه رضي الله عنهم من خلال:

- **الصلاة**: سمى الله جل وتعالى الصلاة في كتابه الكريم إيماناً فقال: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)[١] أي صلاتكم، وقال عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوص)[٢]، ولو تأملناها لوجدناها تتحدث عن رصّ الصفوف في ساحات الجهاد، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرب الصحابة رضي الله عنهم على رصّ الصفوف في الصلاة، حتى قال العلماء بأن آية الصف دليل على وجوب رصّ الصفوف في الصلاة. إن رصّ الصفوف في الصلاة تدريب عملي ميداني يومي خمس مرات، والنبي صلى الله عليه وسلم اعتنى غاية العناية برص الصفوف، فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: (اِستَوُوا وَلا تَخْتَلفُوا فَتَختَلِفَ قُلُوبُكُم لِيَلِنِي منكُم أُولُو الأَحْلاَمِ والنُهَى ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُم ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُم)[٣]، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (مَالِي أَراكُم رَافِعِي أَيدِيكُمْ كَأَنّها أَذنَابُ خَيلٍ شُمْس؟ اُسكُنوا فِي الصّلاة)، قال ثم خرج علينا فرآنا حلقاً فقال: (مَا لِي أَراكُم عزِين؟)، قال: "ثم خرج علينا فقال: (أَلاَ تَصفّونَ كَمَا تَصُفُّ الملائكةُ عِندَ رَبها؟)، فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: (يُتِمّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلْ وَيَتَراصّونَ فِي الصّف)[٤].

إذا تأملنا هذه النصوص العملية أدركنا أن وراء القضية أمراً آخر أعظم من ظاهر الفعل الذي نراه، فكيف لو علمنا أن طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد كانت تعتمد على نظام الصفوف؟ فكان هناك صفّ للنبّالة، وصفّ للرماة، وصفّ لأصحاب الرماح،

---

[١] سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

[٢] سورة الصف، الآية: ٤.

[٣] صحيح مسلم، ج١، ص ٣٢٣، رقم الحديث ٤٣٢.

[٤] صحيح مسلم، ج١، ص ٣٢٢، رقم الحديث ٤٣٠.

وصفّ لأصحاب السيوف، يتراصون في الصفّ، وإذا سقط شهيد من بينهم فإنهم سرعان ما يسدون تلك الثغرة؛ لكي يبقى الصف مكتملاً مستقيماً متماسكاً.

واستمر الصحابة رضي الله عنهم على نظام الصفوف في الجهاد حتى غيّره خالــد بن الوليد رضي الله عنه وذلك بعدما صارت الأمة الإسلامية تواجه بعض المعــسكرات، وكانوا متطورين في طرق القتال، فكانت المصلحة تقتضي أن يواجه المسلمون أعــداءهم بطرق قتالية أخرى توازي طرق أعدائهم، حيث إن طريقة الصفوف التي كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن توقيفية، بل هي وسيلة تتغير بتغير الأحوال والظــروف والمصلحة.

- **الإخاء**: قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[1]، فقام النبي صلى الله عليــه وســلم بإجراء مميّز لم يسبق أن حصل في تاريخ أمة من الأمم، وهو أنه جعل من الصحابة رضي الله عنهم كتلة فريدة من نوعها في تماسكها وذلك بالإخاء بين المهاجرين والأنصار. ماذا يمثل المهاجرون وماذا يمثل الأنصار رضي الله عنهم؟. كان المهاجرون رضــي الله عنــهم يمثلون كتلة إيمانية عظيمة جداً، فقد نشؤوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنــه وتلقوا تلك الدروس الخاصة وتلك الشحنات الإيمانية العميقة مباشرة من النبي صــلى الله عليه وسلم، وزاد في صقلهم وإعدادهم ما لاقوه في شعب أبي طالب من الحصار، أكلوا خلالها ورق الشجر والجلود، ثم ما لاقاه بعضهم من لهيب السياط على ظهورهم تعذبهم قريش على مدى ثلاثة عشر عاماً، فكل هذه الأمور وما صاحبها أنشأت لنا جيلاً قويــاً إيمانياً تمثل في المهاجرين رضي الله عنهم، فكانوا قوة إيمانية حقيقية، أما الأنصار رضي الله عنهم فكانوا يمثلون الحماس، تلك الشرارة التي تتقد رغبة وصدقاً لنصرة هذا الدين حيث المال والعدد والاستعداد. فلما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار تسابق الأنصار رضي الله عنهم، وكان كل واحد منهم يريد أن يُدخل إلى بيتــه كتلــة إيمانية لتؤثر في نفسه وزوجه وأولاده، ليفوح عبق الإيمان في دور الأنصار، فحصل مـــن جرّاء هذا الإخاء تلاحم حقيقي لم يحصل قط في التاريخ، وضربت أروع الأمثلة، منها:

---

[1] سورة الحجرات، الآية: ١٠.

"في معركة اليرموك وبينما المسلمون يتجولون بين القتلى كان أحدهم يبحث عن ابن عم له، فرآه جريحاً وهو في رمق الموت، فأسرع فأحضر له قليلاً من الماء ليسقيه، فلما وصل إليه بالماء سمع الجريح أنين جريح آخر بجواره يئن من الألم وينازع الموت، فأشار لابن عمه: اذهب بهذا الماء إليه لعله أحوج مني. فذهب مسرعاً، فلما وصل إليه فإذا بجريح ثالث بجوارهما يئن من الألم وينازع الموت، فأشار له: اذهب بهذا الماء إليه لعله أحوج مني، فلما وصل إلى الثالث إذا به قد أسلم روحه، فرجع مسرعاً إلى الثاني فإذا به قد فاضت روحه، فرجع مسرعاً لابن عمه فإذا به قد مات أيضاً"[١]. أي إخاء هذا؟ وأي إيثار هذا؟ وأية تربية هذه التي تربى عليها أولئك النفر؟.

- **بذل المال:** ربى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته رضي الله عنهم على بذل المال في سبيل الله تعالى حتى أصبح المال من أرخص ما يملكون، ومن أمثلة ذلك:

- لما نزل قول الله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)[٢] "جاء أبو الدحداح رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: آالله يريد منا القرض. قال: (نعم)، قال: إذاً ابسط لي يدك، فبسط له النبي صلى الله عليه وسلم يده، فقال له: إني أقرضت ربي بستاني. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (بخ بخ)، فينطلق أبو الدحداح مسرعاً إلى زوجته وهي في البستان مع أولادها فيقول لها من خارج البستان ولا يدخل: أخرجي أنت وأولادك فقد أقرضت ربي بستاني، فقالت له: نعم ما فعلت"[٣].

---

[١] أبوخليل، شوقي: اليرموك، دمشق، دار الفكر، ط٤، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥.

[٢] سورة الحديد، الآية: ١١.

[٣] ابن كثير، اسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٤، ص٤٧٩.

- ولما دعا النبي صلى الله عليه وسلم للإنفاق لجيش العسرة ضرب الصحابة أروع الأمثلة "فأنفق عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما أموالاً طائلة، وأنفق عمر رضي الله عنه نصف ماله، وأنفق الصديق رضي الله عنه ماله كله"[1].

ونحن نعلم أن المال من أعز الأشياء على النفس، ولهذا قدّمه الله جل وتعالى في عدد من الآيات على النفس، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[2].

- **بذل النفس:** ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم على بذل النفس في سبيل الله تعالى التي وهبها الله جل وتعالى لهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[3]. إذاً هناك تجارة مع الله تعالى. وهل اشترى المؤمنون هذه الصفقة؟ يقول جل وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾[4]، فالبائع في هذه الآية المؤمن، والمشتري هو الله، والمبيع النفس والمال، والثمن الجنة.

٢- الإعداد النفسي: إن أعظم ما تحتاج إليه النفس حين الإعداد للجهاد هو ضبط هذه النفس عن الجنوح والشطط والهوى، واستقامتها على منازل الدين كلها؛ لأن الجنوح والشطط في الجهاد أمر خطير، فالجهاد ليس مجرد حماس طائش ولا نزوة طارئة ولا انفعالات هائجة، إنما هو منزلة ومقام عظيم من منازل ومقامات هذا الدين، ينبغي أن

---

[1] باشميل، محمد بن أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى، القاهرة، دار المطبعة السلفية، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١٠، ص٤٧.

[2] سورة الصف، الآية: ١٠.

[3] سورة الصف، الآية: ١٠.

[4] سورة التوبة، الآية: ١١١.

يُخضع للنصوص الشرعية التي تتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية، التي تدور على جلب المصالح ودرء المفاسد.

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة هو وصحابته "وكانت قريش تصب عليهم ألواناً من التعذيب والتنكيل والأذى والإهانة والسخرية والضغط، حتى رأى الصحابة رضي الله عنهم أن ما عندهم من الإيمان والعزة لا يستقيم مع ما يتعرضون له من الإذلال والإهانة، فجاؤوا يستأذنون الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع لقتال قريش، والنبي صلى الله عليه وسلم يأمرهم بضبط النفس"[1]. إنه الإعداد النفسي لهم، فلما ألحّ الصحابة على النبي صلى الله عليه وسلم بالقتال أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)[2]، فنزلت الآيات تؤيد رأي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدير رحى الصراع مع معسكر الكفر والشرك. كان حماساً ورغبةً صادقةً في الدخول في صدام عسكري مع المشركين.

لكن متى يحتاج المسلم إلى ضبط النفس؟ إنه يحتاجها في كل وقت، وفي أوقات الفتن يحتاجها أكثر، ولهذا لما وقعت الفتنة بين الصحابة رضي الله عنهم اعتزل كثير من الصحابة الفتنة، ولم يقاتلوا ومنهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وهو من هو في الجهاد والقتال والفروسية! فاعتزل الفتنة، ولم يحضر "الجمل، ولا صفين، بل اتخذ سيفاً من خشب، وتحول إلى الربذة، فأقام بها مديدة"[3].

هذه هي التربية التي تجعل المسلم يعي متى يجاهد في سبيل الله ومتى يمسك عن الجهاد في سبيله.

---

[1] قطب، سيد (ت: ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م): في ظلال القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج٢، ص٤٤٩.

[2] سورة النساء، الآية: ٧٧.

[3] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٩.

٣- التدريب: لو تأملنا السنة العملية في هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إعداده لأصحابه رضي الله عنهم على القتال والجهاد في سبيل الله لرأينا تدريبه لهم عليه الصلاة والسلام يتمثل في ثلاثة جوانب هي:

أولاً: رصّ الصفوف في الصلاة خمس مرات كل يوم في صفوف منتظمة متراصّة.

ثانياً: التدريب على الرمي: قال الله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)[١]. وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: (وَأَعِدُوا لَهُم مَا استَطَعْتُم مِنْ قُوةٍ" أَلاَ إِنّ القُوَّةَ الرَّمْي أَلاَ إِنّ القُوَّةَ الرَّمْي أَلاَ إِنّ القُوَّةَ الرَّمْي)[٢]، ويحذر النبي صلى الله عليه وسلم من عبد يتعلم الرمي ثم ينساه، فقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنّا أَو قَدْ عَصَى)[٣]. وكان الصحابة رضي الله عنهم يتدربون على الرمي إلى أن يحين وقت صلاة المغرب، يقول رافع بن خديج رضي الله عنه: "كُنّا نُصَلِّي المَغْرِبَ مَعَ النّبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلّم فَيَنْصَرِفُ أَحَدُنَا وَإِنَّهُ لَيُبصِرُ مَوَاقِعَ نَبْلِه"[٤]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشجع الصحابة على التدريب وتعلم الرمي، فقد مر عليه الصلاة والسلام على نفر من أسلم يرمون فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ارمُوا بَنِي إِسْمَاعِيل فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً، ارمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَن)، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَا لَكُمْ لاَ تَرمُون)،. قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ارمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلُكُم)[٥]، ولا شك أن التدريب على الرمي من الإعداد الذي ذكره الله جل

---

[١] سورة الأنفال، الآية: ١٧.

[٢] صحيح مسلم، ج٣، ص١٥٢٢، رقم الحديث ١٩١٧.

[٣] صحيح مسلم، ج٣، ص١٥٢٢، رقم الحديث ١٩١٩.

[٤] أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب بيان أن أول وقت المغرب عند غروب الشمس. ورواه البخاري، ج١، ص ٢٠٥، رقم الحديث ٥٣٤.

[٥] صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٦٢، رقم الحديث ٢٧٤٣.

وتعالى في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم﴾[١].

ثالثاً: السباق على الخيول: لا شك أن السباق على الخيل من أهم الطرق العملية في التدريب على القتال والجهاد، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعقد مباريات السباق بين الصحابة رضي الله عنهم على الخيل، وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (لاَ سَبْقَ إِلاّ فِي خُفٍّ أَو فِي حَافِرٍ أَو نَصْلٍ)[٢]. وعقد الإمام أبو داود في سننه باباً فقال: باب في الجلب على الخيل في السباق، وساق حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لاَ جَلَبَ* وَلاَ جَنَب)[٣].

ز- مصادر السلاح:

كان أفراد الجيش الإسلامي في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعده بفترة، يقومون بأنفسهم تأمين الأسلحة التي يحتاجونها في القتال، فكان الصحابي رضي الله عنه هو الذي يتولى تأمين احتياجاته من الأسلحة سواء كانت هجومية كالسيف والرمح، أو دفاعية كالدرع والخوذة والمغفر، ومن مصادر السلاح:

١- السوق المحلية: الفرد المقاتل في الغالب كان يحصل على سلاحه عن طريق الشراء من السوق المحلية: فقد جاء في قصة سعد السلمي الذي زوجه النبي صلى الله عليه وسلم من بنت عمرو بن وهب وجمع له أربعمائة درهم صداقاً لزوجه، وجاء في هذه القصة التي رواها أنس بن مالك رضي الله عنه ما يلي: ".. فبينما هو في السوق ومعه ما يشتري لزوجه إذ سمع صوت النفير ينادي: يا خيل الله اركبي، فنظر نظرة إلى السماء، ثم قال:

---

[١] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

[٢] السجستاني، أبي داود سليمان بن الأشعث، (ت: ٢٧٥هـ/٨٨٨م) سنن أبي داود، مراجعة وتعليق عزت عبيد دعاس، حمص، دار الحديث، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م، ج٢، ص ٣٤، رقم الحديث ٢٥٧٤.

* الجلب في السباق: أن يتبع الرجل فرسه رجلا فيزجره ويصيح حثاً له على الجري.

[٣] سنن أبي داود، ج٢، ص ٣٥، رقم الحديث ٢٥٨١.

اللهم إله السماوات والأرض وإله محمد صلى الله عليه وسلم، لأجعلن هذه الدراهم اليوم فيما يحب الله ورسوله والمؤمنون، فاشترى فرساً وسيفاً ورمحاً واشترى مجنة فأقبل يطعن برمحه، ويضرب بسيفه، كل ذلك يقتل أعداء الله إذ قالوا: صرع سعد، فأمر صلى الله عليه وسلم بسلاحه وفرسه وما كان من شيء فقال: (اذْهَبُوا بِهِ إلى زَوجِه)[١]، وكانت السوق المحلية لبيع السلاح تعتمد على التصنيع المحلي لتغطية حاجة المشترين؛ إذ كانت حرفة الحدادة معروفة عندهم في ذلك الوقت، وكانت السيوف من الآلات التي تنتجها مصانع الحدادة، ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا من أهل هذه الحرفة خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: "كنت قيناً - أي حداداً - في الجاهلية وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث، قال: دعني حتى أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت الآية: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)[٢]، ومما يدل على وجود صناعة السهام بالمدينة النبوية في ذلك العهد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشجع عليها، كما في الحديث الذي رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ يُدْخِلُ بالسّهْمِ الوَاحِدِ ثَلاَثَةَ نَفَرٍ الجَنّة، صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِه الخَيْرَ، والرَّامِي بِهِ، وَمُنبِلَه)[٣]، ولم تكن السوق المحلية هي الممول الوحيد لحاجة المقاتلين من السلاح، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يزود جيشه أحياناً بالعتاد الحربي عن طريق عقد صفقات السلاح مع السوق الخارجية، وقد دل على ذلك ما جاء في الحديث حول

---

[١] ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت: ٦٠٦هـ/١٢٠٩م): جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص٦٢٥.

[٢] صحيح البخاري، ج٢، ص٧٣٦، رقم الحديث ١٩٨٥.

[٣] سنن أبو داود، ج٣، ص١٩، رقم الحديث ٢٥٢٣.

مصير سبايا بني قريظة "أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً"[١].

٢- مصادرة أسلحة العدو: ففي إجلاء يهود بني قَيْنُقَاع بعد أن نقضوا المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم حاصرهم عليه الصلاة والسلام خمس عشرة ليلة أشد الحصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة وأن لهم نساءهم والذرية، وله صلى الله عليه وسلم الأموال ومنها السلاح"[٢]. وفي إجلاء يهود بني النضير بعد نقضهم المعاهدة أيضاً، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، فتحصنوا في حصونهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل[٣]، ويدخل في هذا أيضاً الفداء الذي كان يفرض على بعض الأسرى لدى المسلمين، فلما أسر نوفل بن الحارث ببدر قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (افد نفسك برماحك التي بجدة)، قال: أشهد أنك رسول الله، ففدى نفسه بها وكانت ألف رمح"[٤].

٣- التعاقد مع الجهات المالكة للسلاح: وهذا التعاقد لا يشترط أن يكون ملزماً للطرف المالك للسلاح، كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم عند تهيؤه لغزوة حنين، ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك، فقال: (يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق به عدونا غداً)، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: (بل عارية

---

[١] السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٥٨١هـ/١١٨٥م): الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الفكر، ج٣، ص٢٧١.

[٢] الحلبي، علي برهان الدين (ت:١٠٤٤هـ/١٦٣٤م): السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، مكة المكرمة، دار الباز للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. ج٢، ص٢٢١.

[٣] انظر، السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الأنف، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤٠.

[٤] الكتاني، عبد الحي (ت: ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م): التراتيب الإدارية، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، ج٢، ص٣٨.

مضمونة حتى نؤديها إليك)، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح"[1].

٤- تصنيع الجيش الإسلامي الذاتي: وهذا ما يجب أن تسعى الدول الإسلامية إليه اليوم؛ حتى تستغني عن الأعداء في الحصول على السلاح لجيوشه.

لما حاصر النبي صلى الله عليه وسلم المشركين من أهل الطائف المنهزمين من غزوة حنين، وكانت الطائف منيعة التحصين ولديها من التموين ما يكفيها لمدة طويلة، بحيث إن أحد قادتها وهو "عبد يا ليل" أعلن حين دعاهم خالد بن الوليد رضي الله عنه أن ينزلوا إليه من حصنهم للمبارزة، أعلن قائلاً: لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم في حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا. عندها نصب النبي صلى الله عليه وسلم المنجنيق على الطائف بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث لم يكونوا يعرفونها من قبل، قال سلمان: إنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون فنصيب من عدونا. ويقال: إن سلمان رضي الله عنه هو الذي عمله بيده[2].

وفي وقتنا هذا أدهش إخواننا في فلسطين العالم وهم يقاومون المحتل المعتدي بصواريخ القسام، وهي تصنيع محلي ذاتي صنعته الأيدي المتوضئة بإمكانات بسيطة لكن لها من الفاعلية ما يقلق العدو ويرهبه.

ح- الإنفاق على الجهاد في الدولة الأموية:

كان للدولة الأموية نظام مالي دقيق برز دوره في الفتوحات الإسلامية، وكانت مصادر دخلها تشمل الآتي:

١- الزكاة: وهي أهم مكونات النظام المالي الإسلامي؛ وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة إذ قال الله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا

---

[1] السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الأنف، مصدر سابق، ج٤، ص١٢٣.

[2] انظر، الحلبي، علي برهان الدين: السيرة الحلبية، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٤.

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)[١]. "وأجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة واتفاق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال مانعيها في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه"[٢]. وأسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم "يجمعها ويقوم على توزيعها وكذلك فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، أما في عهد عثمان رضي الله عنه لما كثرت الأموال رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام"[٣]، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشي ونحوها فقد استمرت الدولة في جبايتها وإنفاقها.

وكانت الزكاة في الدولة الأموية تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموي هما "الزراعة وقطاع التجارة وبخاصة في ظل نظام العشور"[٤]، وكان ديوان الصدقات، هو الديوان الذي يتولى النظر في أمور "الزكاة والصدقات التي تجبى من القادرين والمتمكنين مالياً ليتم توزيعها على مستحقيها في الوجوه الشرعية التي ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة"[٥]، ويعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة إلى عدم "تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها في الحال إلى مستحقيها"[٦]، ويمكن القول: إن نظام الزكاة كان مطبقاً في العهد الأموي وفقاً للأسس الشرعية الخاصة به وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كانت في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله حيث "وثق الشعب بالدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام، فسارع

---

[١] سورة البينة، الآية: ٥.

[٢] ابن قدامة: المغني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٣٤.

[٣] الكاساني، أبوبكر بن مسعود (ت: ٥٨٧ هـ/١١٩١م): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٢، ص٨٢٠.

[٤] ضياء الدين، محمد: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٧١.

[٥] المسعودي، نجم: الدواوين في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٦١.

[٦] الجفري، عصام هشام: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٦٦.

الناس إلى دفع الزكاة، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة، فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة"[١].

٢– الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة، وهي ضريبة على الذمي المستوفي لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية عملاً بقوله تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[٢]، وهي ثابتة بالإجماع، "ولم يضف الأمويون شيئاً يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول: إن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتمثلت ضوابطها في تحديد الشريحة التي تؤخذ منها الجزية متمثلة في الذكور العقلاء البالغين"[٣]، وحددت الفئات المعفاة منها وهم: "الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم"[٤]، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يساراً وإعساراً، حيث كانت تفرض على الفرد الغني (٤٨) درهماً سنوياً، وعلى المتوسط (٢٤) درهماً سنوياً وعلى ما دون ذلك (١٢) درهماً سنوياً بشرط أن يكون ذا حرفة[٥].

٣- الخراج: هو إيراد الأراضي التي افتتحها المسلمون "عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السواد من العراق والشام"[٦]، "وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية، وبلغت غلة الخراج في منطقة السواد على سبيل المثال عام ٥٤-٦٦هـ/٦٧٤-٦٨٦م بلغ ١٣٥ مليون درهماً، وأما منطقة

---

[١] المصدر السابق ذاته، ص ٦٦.

[٢] سورة التوبة، الآية: ٢٩.

[٣] الجفري، عصام هشام: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٦٦.

[٤] البصري، علي بن محمد (ت: ٤٥٠هـ/١٠٥٨م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م، ص١٤٤.

[٥] انظر، الجفري، عصام هشام: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٦٧.

[٦] أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت: ١٨٢هـ/٧٩٨م): الخراج، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٤.

الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج في هذه المنطقة وفقاً لما وضعه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الذي فرض ضرائب ذات شقين على أهل المدن، شق منه جزية، والآخر منه خراج على النحو التالي:

أ- على أهل قنسرين حوالي مليون وخمسمائة ألف درهم.

ب- على الأردن ستمائة ألف درهم.

جـ- على فلسطين حوالي ستمائة ألف درهم[١].

وكان للخراج في عهد الدولة الأموية ديوان خاص به يسمى ديوان الخراج: "وهو الذي يتولى النظر في جباية ضريبة الخراج، ويقوم بجمعها وتسجيلها، ووضع تقديرات لها؛ لأنها أعظم واردات الدولة"[٢].

٤- العشور: هي الأموال التي يتم تحصيلها من التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء أكانت داخلة أم خارجة من أرض الدولة، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر، "ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: العاشر، أي الذي يأخذ العشور"[٣]، وأول من وضعها في الإسلام هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، "فرضها على الحربي بنسبة العشر، وعلى الذمي بنسبة نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر"[٤]، واستمر هذا النظام في العهد الأموي مع بعض التعديلات.

٥- الصوافي: هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من "أرض الفيء كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من البلاد المفتوحة عنوة، بحق الخمس أو باستطابة نفوس الغانمين، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه"[٥]، ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض

---

[١] انظر، الجفري، عصام هشام: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٧٤-٧٦.

[٢] العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، مصدر سابق، ص١٧٧.

[٣] أبو يوسف: الخراج، مصدر سابق، ص٢٧١.

[٤] سلام، أبي عبيد القاسم (ت: ٢٢٤هـ/٨٣٨م): الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، بيروت، دار الفكرللطباعة، ط٢، ١٤٠٨ه/١٩٨٨م، ص٤٧٥.

[٥] البصري، علي بن محمد: الأحكام السلطانية، مصدر سابق، ص١٩٢.

من كان يتولى استثمارها على أن يؤدي لبيت المال ما عليها، "وأول من أقطع عثمان بن عفان رضي الله عنه"[١] وذلك بدافع زيادة غلتها، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفيء فبلغت غلتها آنذاك خمسين مليون درهماً[٢]، وانتبه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه للصوافي في وقت مبكر، "وكتب إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها، فأصبحت تحت تصرف معاوية رضي الله عنه المباشر، فكان يسد منها بعض حالات العجز في النفقات العامة، وبلغت غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم"[٣].

٦- خمس الغنائم: وتعرّف بالغنيمة وهي ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة، وفي العصر الأموي ازدادت حركة الفتوحات وبالتالي زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال، وقد "اتبع الأمويون النهج العمري ذاته بالنسبة للغنائم والأراضي المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين، وترك الأرض فيئاً لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها"[٤].

وتطورت موارد أخرى لخزينة الدولة في عهد عبد الملك بن مروان لم تكن موجودة من قبل، فحصل تطور في القطاع الزراعي، وتطور في التجارة، "واشتهرت في عصر عبد الملك بن مروان الحرف والصناعات مما كان له الأثر الإيجابي في زيادة موارد بيت المال، وأحدث دوراً لضرب العملة وتعريب النقد"[٥].

وبقي الوضع على ما هو عليه حتى عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي أحدث الانقلاب الهائل في سياسة الحكم بشكل عام، وشمل ذلك سياسته المالية في الإيرادات.

---

[١] البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن جابر (ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤٠٣ھ/١٩٨٣م، ص٢٧٣.

[٢] البصري، علي بن محمد: الأحكام السلطانية، مصدر سابق، ص١٩٣.

[٣] خماش، نجدة: الإدارة في العصر الأموي، مصدر سابق، ص١٩٧.

[٤] المصدر السابق ذاته، ص ٢١.

[5] العش، يوسف: الدولة الأموية، مصدر سابق، ص٢٣٤.

بدأ عمر سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب، فأنفق في رد المظالم حتى "أنفذ بيت مال العراق وجلب إليه من الشام"(١)، وأنفق على المشاريع الزراعية ومشاريع البنى الأساسية، وأنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع فئات الشعب، وسعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة، فرفع الجزية عمن أسلم، وألغى الضرائب الإضافية التي كانت تؤخذ من المزارعين، وألغى المكوس والقيود، وحافظ على حقوق بيت المال المسلوبة، فأعاد إليه القطائع والمظالم وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، وبالغ في الاقتصاد في الإنفاق الإداري والحربي، وأدى ذلك إلى إطلاق الطاقات، فنمت الزراعة والتجارة ونمت الإيرادات فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور وفاضت ميزانية الدولة، فوجّه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الاقتصادية، ويلاحظ أنه كلما استقام أمر الدولة، وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغرّاء فاض ميزانها المالي، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاق ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما أعوج أمر الدولة وحادت عن سبيل الشريعة اختل التوازن المالي، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاها(٢).

(٤) ابن الحكم، أبو محمد عبد الله: سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م. ص١٢٩.

(١) انظر، عابدين، بشير كمال: السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، عمان، دار المأمون، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٥٨.

الباب الثاني

ميادين فتوحات الدولة الأموية

- الفصل الأول: الميدان الشمالي البيزنطي:

أ- التخطيط الاستراتيجي عند معاوية رضي الله عنه للاستيلاء على القسطنطينية:

١- الاهتمام بدور صناعة السفن.

٢- تقوية الثغور البحرية.

٣- الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط.

٤- تحصين أطراف الشام الشمالية.

ب- الحصار الأول للقسطنطينية.

ج- الحصار الثاني للقسطنطينية.

د- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

١- الفتوح في أرمينية.

٢- الفتوح في أرض الروم.

٣- الجهاد في البحر الأبيض المتوسط.

هـ- الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك.

- الفصل الثاني: الميدان الأفريقي:

أ- عقبة بن نافع وفتح أفريقية.

ب- فتوحات حسان بن النعمان الغساني.

ج- فتح قرطاجنة.

- الفصل الثالث: الميدان الأوروبي:

أ- فتح الأندلس.

ب- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك.

ج- معركة طولوشة.

د- الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك.

هـــ- معركة بلاط الشهداء.

- الفصل الرابع: الميدان الآسيوي:

أ- فتوحات سعيد بن عثمان بن عفان.

ب- مواصلة الفتوحات في المرحلة الثانية من الدولة الأموية.

ج- فتح إقليم بخارى.

د- فتح سمرقند.

هـــ- فتح السند.

و- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك.

ز- الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك.

الباب الثاني

ميادين فتوحات الدولة الأموية

اتسعت فتوحات الدولة الأموية اتساعاً عظيماً منذ عهد معاوية رضـــي الله عنـــه الذي لم تكد تستقر له الأوضاع حتى جهّز الجيوش وأنشأ الأساطيل، وأرسل قـــوّاده إلى أطراف الدولة لتثبيت دعائمها، بعد أن حاول الفرس والروم استغلال فترة الفتنة بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما. ويمكن أن نحصر ميادين فتوحات الدولة الأمويـــة في أربعـــة ميادين هي:

- الميدان الشمالي البيزنطي.
- الميدان الأفريقي.
- الميدان الأوروبي.
- الميدان الآسيوي.

الفصل الأول
الميدان الشمالي البيزنطي

رأت الدولة الأموية أن الخطر الأكبر عليها هو من جهة الدولة البيزنطية، التي خسرت أهم أقاليمها في الشرق - الشام ومصر - إلا أن تنظيمها لا زال سليماً لم يمس، فعاصمتها باقية، وممتلكاها في آسيا الصغرى وأوروبا وشمال أفريقية لا زالت شاسعة وإمكانياها كبيرة، وقدرها على المقاومة هائلة، وهي لم تكف عن مناوأة المسلمين، فهي العدو الرئيسي والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين، وكان معاوية رضي الله عنه رجل المرحلة وقادراً على فهم وتقدير هذا الخطر وعلى مواجهته أيضاً، فقد كان متواجداً بالشام منذ مطلع الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووالياً عليه لمدة عشرين سنة تقريباً، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسي مع الدولة البيزنطية، وأكسبه طوال إقامته بالشام خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم، مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، فليس غريباً أن نرى معاوية رضي الله عنه يولي حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه، ويرسم للدولة نحو الدولة البيزنطية سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية.

باشر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عام ٤١هـ/٦٦١م بعد أن استقر أمر خلافته في تطوير الأسطول البحري؛ ليكون قادراً على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم، ومبعث العدوان والخطر الدائم على المسلمين. وضع أمامه هدفاً واضحاً وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيداً للاستيلاء عليها، ولعل معاوية رضي الله عنه كان يرمي إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاها بالاستيلاء على عاصمتها، فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هي مركز الدولة ومستقر

الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت في يده فإن هذا سيؤدي إلى شلل كامل في الدولة كلها(١).

أ- التخطيط الاستراتيجي عند معاوية رضي الله عنه للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية رضي الله عنه على أن يكون زمام المبادرة دائماً في يده، فالقسطنطينية تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على سواحل مصر والشام، وسعى لتحقيق هذا الهدف في عدة اتجاهات هي:

١- الاهتمام بدور صناعة السفن في مصر والشام، "واختيار أمهر الصناع للعمل فيها، واغداق الأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل"(٢)، بعد أن أدرك معاوية رضي الله عنه بحسه العسكري وفكره العبقري أن معارك المسلمين مع الروم سيكون "قوامها الأسطول البحري، وزاد هذا الإحساس عمقاً تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة في معركة ذات الصواري لقهر الأسطول الإسلامي، ومع أن الروم باؤوا بفشل ذريع في هذه المعركة إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد، ولم ينتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين في البحر، كانوا يظنّون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها؛ لأنها لا زالت في دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة في ذات الصواري* فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراحوا يستعدون لذلك"(٣).

---

(١) انظر، عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: العالم الإسلامي في العصر الأموي، القاهرة، دار الإتحاد التعاوني للطباعة، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٢٤١-٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص٢٤٥.

* ذات الصواري: معركة بحرية وقعت بين المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد والروم بقيادة قسطنطين عام ٣١هـ/٦٥٢م، وقد وصف بعض المؤرخين المعركة أنها كانت يرموكاً ثانياً على الروم، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحراً إسلامياً بعد هذه المعركة. (أبوخليل، شوقي: معركة ذات الصواري، دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٦١).

(٣) الوكيل، محمد سيد: الأمويون بين الشرق والغرب، مصدر سابق، ج١، ص١٥٤.

٢- تقوية الثغور البحرية في مصر والشام، "حصّن المدن الساحلية وزودهـا بـالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد لنقل الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظامـاً عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التي يتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو، واعتني بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطـاً أشـد الارتبـاط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط كل الأتقياء المتحمسين العـاملين علـى إعـزاز الإسـلام ونصرته"[١].

٣- الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط، "فاستولى على جزيرة "قبرص"، ثم على جزيرة "رودس"، وأمر ببناء حصن بها، وبعث إليها جماعة من المـسلمين يتولـون الدفاع عنها، وجعلها رباطاً يدفعون منه عن الشام، وأحاط المـسلمين في رودس بـالجو الإسلامي الديني ويعلي راية الإسلام بين أهاليها فأرسل إليها الفقيه "مجاهد بـن جـبر"* يقرئ الناس القرآن الكريم"[٢] وأراد معاوية رضي الله عنه أن يتوج حملاته البحرية بغلـق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصـول إلى بـلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك في الاستيلاء على جزيرة "كريت"، إذ تـسيطر هـذه الجزيرة تماماً على بحر إيجة، وأرسل معاوية رضي الله عنه قائده "جنادة بن أميـة الأزدي" لفتح رودس ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام غير أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لاتساعها واكتفـى بالإغـارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم.

٤- كان من الضروري لكي تؤتي هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهـدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية التي تشكل الحدود بـين الـدولتين الإسـلامية

---

[١] العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ص٦٨.

* مجاهد بن جبر: مولى بني مخزوم، تابعي مفسر من أهل مكة، تنقل في الأسفار واستقر في الكوفة، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، توفي وهو ساجد عام ١٠٤هـ/٧٢٢م، (الأعـلام، الزركلي: ج٥ ص٢٧٨).

[٢] العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، مصدر سابق، ص ٨١.

والبيزنطية ولتكون سنداً للقوات الزاحفة على القسطنطينية. لقد وصـــل المـــسلمون في فتوحاتهم الأولى في عهد الخلفاء الراشدين إلى أطراف الشام الشمالية، وحالت سلـــسلة جبال "طوروس" دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان البيزنطيون قد خربـــوا عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكيا؛ لئلا يستفيد منها المسلمون، وخربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطرســـوس[١]، فـــاهتم معاوية رضي الله عنه بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، "فاهتم أولاً بمدينة أنطاكيا الـــتي كانت معرضة دائماً للغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع في تعميرها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكيا بأن منحهم إقطاعات من الأرض وحصّن الرباط المخصص للدفاع عنهم، وأولى تدريجياً تعمير المدن الواقعة بـــين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضي البيزنطيين، حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس، الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى"[٢]، ولكي تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميداناً عملياً لتدريب جند المسلمين، وتعويـــدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة، دأب معاوية رضي الله عنه على الغـــزو المستمر، "وأصبح هذا النشاط العسكري يعرف بغزوات الصوائف والـــشواتي"[٣]، فـــلا تكاد تمر سنة وإلا ونجد ذكراً لها عند الطبري رحمه الله وغيره لغزو في البر أو البحر كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم[٤].

---

[١] انظر، البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص١٦٨.

[٢] العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، مصدر سابق، ص١١٠.

[٣] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص ٢٤٨.

[٤] انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٥، ص٢٢٧-٢٣٤.

ب- الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث معاوية رضي الله عنه عامي ٤٧-٤٨هـ/٦٦٧-٦٦٨م سرايا لتغير على الأراضي البيزنطية لتمهد طريق الوصول إلى القسطنطينية، "فتمكن مالك بن هبيرة* من قضاء الشتاء في الأراضي البيزنطية"(١)، وشهد عام ٤٩هـ/٦٦٩م أول حصار إسلامي لمدينة القسطنطينية ذلك أن نجاح توغل قوات المسلمين في الأراضي البيزنطية، وبعث معاوية رضي الله عنه قواته في البر والبحر بقيادة فضالة بن عبيد الليثي يساعده يزيد بن شجرة الرهاوي** تجاه القسطنطينية، ووصل الأسطول الإسلامي إلى "خلقيدونية" ضاحية من ضواحي القسطنطينية على البر الآسيوي وحاصرها توطئة لاقتحامها في محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدري وفتكه بكثير من جند المسلمين علاوة على حلول الشتاء القارص جعل ظروف الجيش المحاصر صعبة للغاية، فما كان من فضالة إلا أن استنجد بمعاوية طالباً منه أن يمده بقوات إضافية، فأرسل معاوية رضي الله عنه مدداً من الجيش بين أفراده مجموعة من الصحابة أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أيوب خالد بن يزيد الأنصاري رضي الله عنهم، وكان القائد العام لهذه الفرقة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وعندما وصل يزيد بقواته إلى "خلقيدونية" انضم إلى الجيش المرابط هناك وزحفوا نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها حصاراً استمر ستة أشهر، وتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات القوتين، وأبلى يزيد في هذا الحصار بلاءً حسناً وأظهر

---

* من رؤساء كندة في العصر الأموي، وكان مع معاوية أيام صفين، وغزا في البحر وولي حمص لمعاوية، توفي عام ٦٥هـ/٦٨٤م. (الأعلام، الزركلي: ج٨ ص١٨٤).

(١) العقيلي، عمر: خلافة معاوية، الرياض، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. ص١٠٨.

** أمير حازم شجاع، من أصحاب معاوية، كان يغزو الثغور ويشهد الفتوح إلى أن استشهد في إحدى غزواته، نسبته إلى الرها، أو الرهاوة، كلاهما بفتح الراء، قبيلة من العرب، أما المدينة المشهورة فبضم الراء. (الأعلام، الزركلي: ج٨ ص١٨٤).

من دروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بفتى العرب[١]. ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام، "وتوفي أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه عند القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها"[٢]، وكان للنار التي قذفها المتحصنون على جيش المسلمين "من أهم الأسباب التي أعاقت فتحها، فقد أحرقت النار كثيراً من متاع المسلمين"[٣]، ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (أَوَّلُ جَيشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَة قَيْصَرْ مَغْفُورٌ لَهُم)[٤]، واشترك في غزو القسطنطينية "عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم طلباً للمغفرة التي بشّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥].

ج- الحصار الثاني للقسطنطينية:

ضيّق معاوية رضي الله عنه الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة والاستيلاء على جزيرتي رودس وأرواد، وكان لجزيرة أرواد التي تسميها المصادر الأوروبية "كزيكوس" أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامي منطلقاً لحصاره الثاني للمدينة أو حرب السنين السبع ٥٤-٦٠هـ/٦٧٤-٦٨٠م، ذلك أن معاوية رضي الله عنه أعدَّ أسطولاً ضخماً وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطاً أمام أسوارها من عام ٥٤هـ/٦٧٤م إلى عام ٦٠هـ/٦٨٠م[٦]، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية، "واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية شهرين، تخلله مناوشات بين

---

[١] انظر، العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، مصدر سابق، ص١٦٤.

[٢] ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق مكتب التراث، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٩م، ج٢، ص٤٨٠.

[٣] الوكيل، محمد سيد: الأمويون بين الشرق والغرب، مصدر سابق، ج١، ص٥٩.

[٤] صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٦٩، رقم الحديث ٢٧٦٦.

[٥] الغيث: خالد محمد، مرويات خلافة معاوية، مصدر سابق، ص٣٢٠.

[٦] انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٥، ص٢٩٣-٣٢٢.

أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشـــق القـــوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والـــسهام، واستمر هذا الوضع سبع سنوات"[١]، أرهق البيزنطيين وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزل بهم خسائر فادحة، ورغم ذلك لم تستطع القوات الإسلامية اقتحـــام المدينـــة أو التغلب على حرّاسها المدافعين عن أسوارها.

أدرك معاوية رضي الله عنه أن مدة الحصار طالـــت دون أن يتحقـــق الهـــدف، وكانت الدولة البيزنطية توّاقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها الذي أرهقها وأنهـــك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً "يدعى يوحنا مـــن أشـــهر رجالهـــا الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة تراجعت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية إلى الـــشام وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة"[٢].

توفي معاوية رضي الله عنه، "وآل الحكم إلى عبد الملك بن مروان الذي شـــعر في أواخر عام ٧٣هـــ/٦٩٢م أن الدولة استعادت قوتها وأنها تستطيع اســـتئناف جهادهـــا، وتعلي إرادتها، بعد أن ساءت العلاقات بين دولة الروم والدولة الإسلامية في تلك الفترة، وأخذ الروم يتأهبون للانتقاض على الدولة الأموية، فكان عبد الملك لهم بالمرصاد فعـــيّن أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية ليكون القائد في هذه الجبهة، وامتنع عبد الملك إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة، فأثار ذلك حنق الأمبراطور الروماني البيزنطي، فأعلن الحرب وقاد جيشاً كبيراً لغزو المسلمين من ناحية أرمينية، فلاقاه "محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة وفر الأمبراطور ناجياً بنفسه، وانفض عنه أكثر جنوده، وكان ذلك عـــام ٧٤هـــــ/٦٩٣م، فزعزعت هذه الوقعة الدولة البيزنطية"[٣]، واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضـــغطه

---

[١] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٢٥١-٢٥٢.

[٢] المصدر السابق ذاته، ص٢٥٣.

[٣] الريس، محمد ضياء الدين: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، مصدر سابق، ص٢٠٨.

على الدولة البيزنطية عبر الحدود وانتظمت غزوات الصوائف والشواتي، وتوغل داخل الأراضي البيزنطية القريبة، فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي يقودها محمد بن مروان. وفي عام ٨١هـ/٧٠٠م بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح "قاليقلا"*، وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي عام ٨٤هـ/٧٠٣م تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية داخل دولة الروم في آسيا الصغرى وهي مدينة "المَصِّيصَة"** فبنى حصنها ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون يسكنوها من قبل، وبنى مسجدها، وهكذا اندفعت قوة المسلمين تفتح المعاقل وتستولي على الحصون داخل أرض العدو في دولة الروم منذ تحققت الوحدة في عهد عبد الملك(١). ولقد أثبت عبد الملك بعد إعادة الوحدة السياسية أن الدولة "قادرة على التفوّق وإحراز السيادة وتحقيق النصر على البيزنطيين، وأن قوتها الموحدة قادرة على الاندفاع في الجبهات كافة"(٢)، واستمرت الجيوش الإسلامية في جهادها طوال مدة ولاية الوليد ثم سليمان.

كانت عيون البيزنطيين مفتوحة دائماً على حدودهم مع المسلمين، فجبهة الحدود ملتهبة على الدوام، والغزو الإسلامي لا يكاد يتوقف، ولكي يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكري المستمر "أرسل الإمبراطور البيزنطي

---

* قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد من نواحي أرمينة الرابعة، صاروا في بعض الفترات كملوك الطوائف حتى ملك أرمينا قس، وهو رجل من أهل أرمينية ، فاجتمع له ملكهم ثم مات فملكتهم بعده امرأة وكانت تسمى قالي، فبنت مدينة وسمتها قالي وقاله، فعربت العرب قالي قاله فقالوا قاليقلا. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤ ص٣٣٩).

** المصيصة: بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى، كذا ضبطه الأزهري وغيره من اللغويين، وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، كانت من مشهور ثغور الإسلام، قد رابط بها الصالحون قديماً، وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٥ ص١٦٩).

(١) انظر، الريس، محمد ضياء الدين: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، مصدر سابق، ص٢٠٩.

(٢) الناطور، شحادة: تجديد الدولة الأموية، مصدر سابق، ص١٤٩.

"انسطاس" سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب، وتعرض على الخليفة الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم ونشاط الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية، وعاد السفير إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد، وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة، فأخذ "انسطاس" برأي سفيره، وأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة، واهتم وجدد أسوار المدينة لاسيما الجهات المطلة منها على البحر حيث كان التداعي قد دب فيها ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع، وبينما كان يمضي الخليفة الوليد في استعداداته للزحف على العاصمة البيزنطيين وافته منيته عام ٩٦هـ/٧١٥م، فخلفه أخوه سليمان ليواصل جهوده في هذا الميدان"[١].

يرجع اهتمام الخلفاء بفتح القسطنطينية لرغبتهم الشديدة في أن يكونوا المقصودين بقوله عليه الصلاة والسلام: (لتُفتَحَنّ القُسطَنطِينيَةَ فَلنِعمَ الأَمِيرُ أَمِيرَهَا، وَلنِعْمَ الجَيشُ ذَلِكَ الجَيْش)[٢]، يضاف إلى ذلك رغبة سليمان الشديدة في وضع حد للهجمات البيزنطية المتكررة على الشواطئ الشامية والمصرية التي من شأنها بث حالة من عدم الاستقرار في تلك النواحي وتمس بسيادة الدولة الإسلامية، "هاجم البيزنطيون الساحل وسبوا امرأة وجماعة، وللمرأة فيهم ذكر إذ ذاك، فغضب سليمان وقال: ما هو إلا هذا نغزوهم ويغزوننا، والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك"[٣].

---

[١] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٢٥٦.

[٢] مسند الإمام أحمد رقم الحديث ١٩٦٩.

[٣] عبابنة، علي إبراهيم: خلافة سليمان بن عبد الملك، مصدر سابق، ص١٧٧.

شملت الاستعدادات للحملة معظم العالم الإسلامي، فقد ضمت الحملة البرية نحو "مائةً وعشرين ألفاً من الشام والجزيرة والموصل، وضمت الحملة البحرية ألف مركب من أهل مصر وأفريقية، ويبدو أن تقدير المسلمين لحصانة القسطنطينية وطول أمد الحرب تقدير سليم وقوي؛ حيث إنهم أدركوا أن حصارها يتطلب قوات كبيرة ووقتاً طويلاً وأسلحة متنوعة، لذلك جمعوا آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك من الأسلحة"[١].

تجاذبت قادة المسلمين العسكريين خطتان حول سير الحملة: الأولى طرحها موسى بن نصير، وفحواها أن على المسلمين احتلال المدن والحصون التي دون القسطنطينية لتجريدها من المواقع الحصينة المحدقة بمسالكها، والتي قد تعيق حركة الجيش الإسلامي، ويستمر الأمر بهذه الخطة حتى تفتح القسطنطينية. أما الخطة الثانية: فطرحها مسلمة بن عبد الملك الذي ارتأى أن اتباع خطة موسى يحتاج إلى أمد بعيد جداً حتى يتحقق حصار القسطنطينية وفتحها، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرة إلى القسطنطينية دون التعرض للمدن والحصون المحدقة بجانبي الطريق إلا ما كان ضرورياً، ويبدو أن رأي مسلمة لقي قبولاً لدى الخليفة ومستشاريه العسكريين، لذلك تقرر سير الحملة حسب خطته، "وسار سليمان من القدس إلى دمشق ومضى حتى نزل دابق، وأقسم ألا ينتقل منها حتى يفتح القسطنطينية، فأقام بها"[٢]. تحركت الحملة عام ٩٨هـ/٧١٧م بقيادة مسلمة بن عبد الملك من سوريا براً وبحراً باتجاه القسطنطينية واستمر مسلمة في سيره ووصلت الحملة البرية القسطنطينية عام ٩٨هـ/٧١٧م ووصلها الأسطول عام ٩٩هـ/٧١٨م، وضرب المسلمون الحصار على المدينة وقاتلوا الروم قتالاً شديداً واستبسلوا في جهادهم ورغم المصابرة التي استمرت قرابة سنة، إلا أن المحاولة فشلت وخسر المسلمون خسارة كبيرة في العدد والعدة.

---

[١] عبابنة، علي إبراهيم: خلافة سليمان بن عبد الملك، مصدر سابق، ص١٨١.

[٢] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٥٣٠.

بعدها سعى البيزنطيون إلى عقد صلح مع مسلمة، حيث عرض دفع دينار عــن كل رجل محتلم في القسطنطينية، وهذا دليل آخر على سوء الأوضاع الداخلية[1].

تولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمر الخلافة بعد وفاة سليمان، فوجه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية، أمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التي وجهها لمسلمة خمسمائة فرس؛ لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك، وكان قرار عمر بن عبد العزيز رحمه الله بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً، لا لأنَّ عمر غير مبــال إلى حــروب الفــتح والاستيلاء، بل لأنّ موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوســاً منــه، فــأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد، إذ لم يغفل عمر أبداً عن غــزو الــروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية الغربية، لقد أحسن عمر بن عبد العزيز رحمــه الله بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية؛ لأن الموقف العسكري كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار[2].

د- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

"نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملــك بعــد حالــة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

١- الفتوح في أرمينية: استأنفت الحملات العسكرية المنظمة إلى الثغور في عهد يزيــد، ومنها يتبين عودة الخزر إلى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم في أرمينية وهذا ما دفع أمير أرمينية آنذاك "إلى القيام بحملة على الخزر، فلقيهم بمرج الحجارة في شهر رمضان في ذات العام، "وقد كلب الشتاء فدارت المعركة وهُزم المسلمون وقتل منهم جماعة واستولى

---

[1] انظر، بطاينة، محمد ضيف: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمــويين، عمــان، دار الفرقــان للنــشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٢٦٠-٢٦١.

[2] انظر، خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، جدة، دار الأنــدلس الخــضراء، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٥٥-٢٥٩.

الخزر على عسكرهم وغنموا ما فيه"[١]. وأطمعت الهزيمة التي تلقاها المسلمون عام ١٠٣هـ/٧٢١م على يد الخزر في أرمينية الأقوام القوقازية والتركية في المسلمين، "فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية وشنّوا غاراتهم وتوغلوا في البلاد مما دعى الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمي* على أرمينية وأذربيجان عام ١٠٤هـ/٧٢٢م وأسند إليه مهمة صد الخزر وأمر بحربهم وأمده بجيش كبير وأمره بحرب الأعداء وقصد بلادهم"[٢]، وفي ذلك دلالة على جدّية الخليفة في مواجهة الموقف بالجبهة الأرمينية، فقد اختار القيادة القديرة وزودها بالجيش الكافي لتحقيق الأهداف، و لم يكن همه تطهير البلاد الإسلامية من وجود الغُزاة، بل مهاجمتهم في بلادهم ردعاً لهم وإحياء لهيبة المسلمين في نفوسهم حتى لا يعودوا لحربهم مرة أخرى، "فسار الجراح بجيشه حتى وصل أرمينية فنزل برذعة ليعطي جنده قليلاً من الراحة، بعد عناء السفر من دمشق الشامية حتى برذعة في الديار الأرمينية، وليعد نفسه وينظم صفوفه لمواجهة الخزر الذين ما أن سمعوا بمقدم الجراح في جيشه ذاك، حتى ارتدوا عن البلاد الإسلامية التي كانوا قد استولوا عليها"[٣]. وأخذ الجراح وجنده قسطاً من الراحة ثم توجه نحو الخزر إلى مدينة باب الأبواب وأخذ الاحتياطات اللازمة في خط سيره وبث السرايا والطلائع أمامه، ولما وصل مدينة باب الأبواب وجدها خالية وبث سراياه على ما يجاوره من البلاد فنصروا وغنموا، وكان الجراح قد ارتحل في عشرين ألفاً من جنده بعد أن بعث سراياه فنزل على نهر

---

[١] الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، القاهرة، دار القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢٦٢.

* هو: أبو عقبة، أمير خراسان وأحد الأشراف الشجعان، دمشقي الأصل والمولد، ولي البصرة للحجاج، ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز، ولاه يزيد إمارة أرمينية وأذربيجان، استشهد غازياً بمرج أردبيل عام ١١٢هـ/٧٣٠م (الأعلام، الزركلي: ج٢ ص١١٥).

[٢] الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٦٤.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص٢٦٥.

الرّان على ستة فراسخ من مدينة باب الأبواب واجتمع إليه جند السرايا بعد أن أدوا الهدف الذي وجهوا من أجله، فأصبح في خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين".

ويظهر أن تلك الإغارات الإسلامية وما حققته من نصر ومغانم قد أثارت الخزر فتوجهوا إليه في أربعين ألفاً بقيادة ابن ملكهم ويدعى "نارستيك بن خاقان" ونزلوا على نهر الرّان فدارت بين الفريقين عام ١٠٤هـ/٧٢٢م معركة عظيمة نصر الله تعالى فيها المسلمين وهزم الخزر وقتل منهم الكثير وأسر وغنم المسلمون جميع ما معهم، وسهل النصر الذي حققه المسلمون في معركة الرّان مهمة الجراح في إخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم، وذلك أعقاب التخلص من القوة الرئيسية للخزر التي لم تعد قادرة على مواجهة المسلمين ذلك الحين على الأقل، فجرد الجراح جيشه لفتح مدن وحصون الخزر هناك"[١].

تابع الجراح فتوحاته ففتح رستاق*، وفتح حصن بَلَنجر** عام ١٠٤هـ/٧٢٢م بعد قتال دار بين الفريقين في معركة عظم فيها الأمر على الجميع حتى كان النصر حليف المسلمين على أعدائهم الخزر فاستولى المسلمون على حصنهم عنوة وغنموا ما فيه، فكانت غنائم عظيمة أصاب الفارس منها ثلاثمائة دينار. وأما صاحب بلنجر فقد تمكن من الفرار في خمسين من قومه، فشرى الجراح زوجته وأولاده وخدمه وبعث إليه بالأمان، فرد إليه حصنه وأهله وأمواله ليكون صنيعة للمسلمين وعيناً لهم على أعدائهم، فقدم للمسلمين معلومات قيمة عن اتفاق الخزر واجتماعهم على قطع الطريق على المسلمين، فتوجه الجراح إلى حصن الوبندر وصالح أهله ثم رجع بجيشه إلى "شَكّى" بعد سماع أخبار

---

[١] الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٦٦-٢٦٨.

* مدينة بفارس من ناحية كرمان. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٣ ص٤٩).

** بفتحتين وسكون النون، مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج١ ص٥٨١).

تتعلق باجتماع الخزر لحربه من صاحب بلنجر وبعد نزوله "شَكّى"* كتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك بما فتح الله على يديه ذاكراً له اجتماع الخزر لحربه وسأله المدد فوعده الخليفة بذلك إلا أن الأجل قد أدركه قبل إنفاذ المدد إليه، "وبعد تولي هشام بن عبد الملك الخلافة حرص على إكمال ما بدأه سلفه فأقر الجراح على ولاية أرمينية وأمد بما يمكنه من صيانة الثغور ودفع الأعداء عن ديار الإسلام[(١)].

٢- الفتوح في أرض الروم: تمثلت الجهود العسكرية التي تمت في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ضد الروم في تحصين الثغور وصيانة الحدود والدفاع عنها والفتح براً عن طريق الصوائف والشواتي، وما تم خلال ذلك من فتوحات في آسيا الصغرى، والغزو بحراً لجزر الحوض الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن طريق أفريقية، وكان عهد يزيد بن عبد الملك خالياً من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين، وفي معاودة التفكير في فتح القسطنطينية عاصمتهم العتيقة وإن كانت الصوائف والشواتي التي وجهت لآسيا الصغرى قد حفلت بكثير من الانتصارات وفتح كثير من المدن والمواقع الرومانية"[(٢)].

٣- الجهاد في البحر الأبيض المتوسط: "تابع ولاة الخليفة يزيد بن عبد الملك على أفريقية جهود من سبقهم من أمراء الشمال الإفريقي، فقد قام يزيد بن أبي مسلم أمير أفريقية (١٠١-١٠٢هـ/٧١٩-٧٢٠م) بغزو جزيرة صقلية عام ١٠١هـ/٧١٩م، ووجه عام ١٠٢هـ/٧٢٠م محمد بن أوس الأنصاري في غزوة بحرية إلى صقلية، فعادت الحملة سالمة غانمة، وهي محاولة لضرب تلك القاعدة البيزنطية الهامة وتهديداً للأعداء وإشغالهم

---

* بفتح أوله وتشديد ثانيه، ولاية بأرمينة ينسب إليها الجلود الشكية مشهورة على نهر الكُرّ قرب تفليس. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٣ ص٤٠٥).

(١) الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٧٠-٢٧٤.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص٢٧٦.

عن مهاجمة الساحل الإفريقي، وأما ولاية بشر بن صفوان* على أفريقية ١٠٢-١٠٩هـ/٧٢٠-٧٢٧م فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية على جزر سردانية وكورسيكا وصقلية، وولايته هذه تعتبر علامة مميزة في تاريخ البحرية الإسلامية الناشئة في أفريقية؛ إذ وصلت تحت أمرته لها مطلع القرن الثاني الهجري إلى مرحلة الفتوة، وذلك بعد استيلاء المسلمين على السواحل البحرية الشرقية في أسبانية، وكان غزواته على قواعد الروم القريبة لإرهاهم وإشغالهم عن محاربة سواحل المغرب(١).

هـ- الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك:

تقلصت الفتوحات الإسلامية في عهد هشام بن عبد الملك واقتصرت على غزوات يحدث فيها تقدم قليل، ثم يعود المسلمون على إثرها إلى ثغورهم، أو تُفتح رقعة صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض أعداء المسلمين العهد مما يضطر المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانية ودفع الجزية.

واستمرت الغزوات في أرض الروم طيلة أيام هشام فكانت تندفع الصوائف والشواتي مجاهدة في البر والبحر، ولكن لم تحدث معها تغييرات في الحدود وإنما توغل في أرض الروم، ثم عودة إلى الحصون الكائنة على مرتفعات جبال طوروس، وكان أشهر قادة تلك الغزوات: "مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله البطال، وسعيد بن عبد الله، وإبراهيم بن هشام، والوليد بن القعقاع العبسي، والنعمان بن يزيد بن عبد الملك، ومسلمة بن هشام

---

* أمير المغرب، وأحد الشجعان ذوي الرأي والحزم. ولي مصر أولاً عام ١٠١هـ/٧١٩م من قبل يزيد، ثم جاءه كتاب يزيد بتأميره على أفريقية عام ١٠٢هـ/٧٢٠م، فخرج إليها وأقام بالقيروان، وغزا صقلية وغيرها، ومات بالقيروان. (الأعلام، الزركلي: ج٢ ص٥٤).

(١) انظر، الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٨٦-٢٨٩.

بن عبد الملك. وفي عام ١٠٧هـ/٧٢٥م غزا معاوية بن هشام الصائفة، وكان على جيش الشام ميمون بن مهران فقطع البحر إلى قبرص(١).

وفتح مسلمة بن عبد الملك "عام ١٠٨هـ/٧٢٦م مدينة قيصرية (٢) ثم رجع عنها إلى الثغور "ووصل سعيد بن هشام عام ١١١هـ/٧٢٩م إلى مدينة قيصرية أثناء توغله في أرض الروم وهَزم عبد الله البطال قسطنطين وجيشه وأسره، ووصل سليمان بن هشام إلى مدينة قيصرية ثانية"(٣).

ورابط معاوية بن هشام عام ١١٣هـ/٧٣١م "في ناحية مرعش وكان قد فتح حصن خرشنة* قبل عام"(٤).

وكثر الغزو في أرمينيا وبلاد "اللان" أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة: الحجاج بن عبد الملك، والجراح بن عبد الله الحكمي، ومسلمة بن عبد الملك، وأشرس بن عبد الله السلمي، والحارث بن عمرو الطائي، واسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد، وغزا الحجاج بن عبد الملك بلاد اللان فصالح أهلها على أن يؤدوا الجزية إلا أنهم نقضوا العهد فغزاهم مسلمة بن عبد الملك من جهة باب الأبواب وهزمهم عام ١١٠هـ/٧٢٨م، وسار الترك إلى أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو عام ١١٢هـ/٧٣٠م فردهم على أعقابهم مهزومين، وتحركوا من جهة بلاد اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان في العام ذاته واستشهد

---

(١) انظر، شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٣.

(٢) ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق مكتب التراث، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٣، ص٣١٨.

(٣) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٣.

* بلد قرب ملطية من بلاد الروم، وسمي خرشنة باسم عامره، وهو خرشنة بن الروم بن اليقن. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص٤١٠).

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٣٤٠.

رحمه الله تعالى ومن معه من الجند بأردبيل* وأخذ الترك مدينة أردبيل، فوجه هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة في شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار في أثرهم حتى تجاوز باب الأبواب فخلف عليها الحارث بن عمرو الطائي. وعاد إليهم مسلمة في العام التالي ١١٣هـ/٧٣١م ففرق جنده في أرضهم فقتلوا وسبوا، وكان ممن قتلوا ابن خاقان الترك، فتأثر خاقان لما حلّ بابنه فتقدم إلى مسلمة إلا أنه هُزم عام ١١٤هـ/٧٣٢م، ورجع مسلمة عن الباب، وعاد الترك إلى نقض العهد، فأرسل إليهم مروان بن محمد بعثين عام ١١٧هـ/٧٣٥م، الأمر الذي جعلهم يقرون بالجزية و لم يلبثوا أن نقضوا العهد فغزاهم عام١٢٠هـ/٧٣٨م إسحاق بن مسلم العقيلي ومروان بن محمد الذي افتتح بلاد السرير فدانت له، وأدت الجزية عام ١٢١هـ/٧٣٩م، وتوفي في ذلك العام مسلمة بن عبد الملك الذي أقض مضاجع الروم والترك[1].

* من أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة كبيرة جداً، قيل: إن أول من أنشأها فيروز الملك، وسماها باذان فيروز، وقيل لعلها منسوبة إلى أردبيل بن أرميني بن لنطي بن يونان. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج١، ص١٧٤).

[1] انظر، شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٦.

الفصل الثاني

الميدان الإفريقي

كانت جبهة شمال أفريقية من أولى الجبهات التي وجه الأمويون إليها اهتمامهم؛ لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية، وتخضع من ناحية أخرى لنفوذ الدولة البيزنطية العدو اللدود للمسلمين، التي صمم أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه تضييق الخناق عليها، ففي أول عهده عام ٤١هـ/٦٦١م أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى أفريقية ثم أرسله ثانية عام ٤٥هـ/٦٦٥م على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل أفريقية وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش فبعث ملك الروم إلى أفريقية بطريقاً يقال له: "نقفورا" في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة "سوسة"* اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفور عاد منهزماً من غير قتال، ورجع ابن الزبير رضي الله عنه إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة "جلولاء"** فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى

---

* سوسة: مدينة صغيرة بنواحي أفريقية، بينها وبين القيروان ستة وثلاثين ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٣، ص٣٢٠).

** جلولاء: هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس بينها وبين خانقين سبعة فراسخ وهي على طريق خراسان وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس عام ١٦هـ، وهذه التي بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص١٨١).

فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة[١].

عاد معاوية بن حديج بعد هذه الفتوح إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة "أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية"[٢]، واستعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب وترك عليها "رويفع بن ثابت الأنصاري والياً عام ٤٦هـ/٦٦٦م فغزا منها أفريقية (تونس) ودخلها عام ٤٧هـ/٦٦٧م، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر"[٣]، وتحدثت المراجع عن كثرة السبايا في هذه الغزوة، وبقي رويفع بن ثابت في ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد* ولاية مصر وبرقة، وبقي عليها أميراً "ومات بها عام ٥٦هـ/٦٧٦م وقبره معروف في الجبل الأخضر ببرقة في مدينة البيضاء وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيباً مفوهاً"[٤].

---

[١] انظر، الصلابي، علي: الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، الشارقة، دار الصحابة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٠٩.

[٢] سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب الكبير، بيروت، دار النهضة العربية، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١، ص٨٥.

[٣] الصلابي، علي: صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقي، عمان، دار البيارق، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٣٣٢.

* من كبار الأمراء في صدر الإسلام، وفد على معاوية وشهد معه معارك صفين، فولاه إمارة مصر عام ٤٧هـ/٦٦٧م ثم أضاف إليه المغرب، ولما توفي معاوية أقره يزيد، وهو أول من جعل بنيان المنائر التي هي محل التأذين في المساجد. (الأعلام، الزركلي: ج٧ ص٢٢٤).

[٤] شواط، الحسين بن محمد: مدرسة الحديث في القيروان، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج١، ص٤٨٦.

أ- عقبة بن نافع وفتح أفريقية:

أسند معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قيادة حركة الفتح في أفريقية إلى هـذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو أفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال أفريقية كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص رضي الله عنه أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في أفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قيادة الفتوحات في أفريقية أرسل إليه "عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه"[١]، وسار في مجموعة حتى نزل بمغمداش من "سرت" *، فبلغه أن أهل ودان**، قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة "قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان***، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا"[٢].

---

[١] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨٣.

* سرت: مدينة بين برقة وطرابلس (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٣، ص٢٣٢).

** ودان: جنوب أفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة أفريقية، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٥، ص٤٢٠).

*** فزان: جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٢٩٥).

[٢] عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر، مصدر سابق، ص١٣٢.

واصل عقبة فتوحاته، ففتح قصور "كُوّار*، وغدامس**، وغيرها"[1]، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيرة المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية اللازمة للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي.

عُزل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية وبعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين للهجرة، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين للهجرة، فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: "يا رب املأها علماً وفقهاً وأملأها بالمطيعين لك واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك وامنعها من جبابرة الأرض"[2].

خرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا أولاده فقال لهم: "إني قد بعت نفسي من الله عز وجل وعزمت على من كفر به حتى أُقتل فيه وألحق به! ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أو لا؛ لأن أملي الموت في سبيل الله. وأوصاهم بما أحب ثم قال: عليكم سلام الله! اللهم تقبل نفسي في رضاك! ثم مضى بعسكره فكانت النصارى تهرب من طريقه يميناً وشمالاً وهو يستفتح البلدان ويغزو في سبيل الله"[3].

---

* كوار: إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٥٥٢).

** غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٢١٢).

[1] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٢٦٩.

[2] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، بغداد، جامعة بغداد، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص١٢٦.

[3] ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٢٣.

سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم، فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم، ولكن منَّ عليهم بالصبر فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم، فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة، ثم استمر غرباً قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له: (أَرَبَه) وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة، فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم، ورحل عقبة إلى (تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقد اجتمع الروم والبربر في إقليم تاهرت اجتماعاً عظيماً[١].

التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم ولكنهم انتصروا أخيراً وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة حيث قابل بطريق من الروم اسمه (يوليان) الذي أهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه، ثم سأله عن الأندلس فعظم الأمر عليه، فسأله عن البربر، فقال: "هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله، وهم بالسوس الأدنى، وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد"[٢].

استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع "بربر أطلس الوسطى فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادي درعا حيث بنى مسجداً في مدينة درعا، ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة

---

(١) انظر، ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٢٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٥٩٠.

الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة (أغمـــات)"[1]. اتجـــه عقبة بعد ذلك نحو الغرب إلى مدينة تفيس حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر فلم ينفعهم تحصنهم فدخل المدينة منتصراً وبذلك "أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (ايجلي) التي بنى فيها مسجداً ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (ايفران) على البحر المحيط"[2]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحريـــر معظـــم بـــلاد المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك، ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفاً منه، واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس، فنـــزله ولم يكن به ماء، فلحق الناس عطش كثير أشرفوا منه على الهلاك، فصلى عقبة ركعتين ودعا، فبحث فرس له الأرض بيديـــه فكشف له عن صفاة فانفجرت الماء، فنادى عقبة في الناس فحفـــروا أحـــساء كـــثيرة وشربوا، فسمي ماء الفرس"[3].

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل "مسجد درعـــة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى"[4]، وكان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القـــرآن الكريم وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء "شاكر الذي بنى رباطاً ما بـــين بلـــدتي مـــراكش وموجادور، ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بـــالمغرب الأقـــصى بسيدي شاكر"[5]، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعـــاً مثـــل قبائل "صنهاجة وهسكورة وجزولة"[6].

---

(1) ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٢٦.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٥٩٠.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٥٩٠.

(4) المالكي، أبوبكر عبد الله بن محمد: رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، راجعه محمد العروســـي المطوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج١، ص٤٠.

(5) ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٢٧.

(6) نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٣٣.

ب- فتوحات حسان بن النعمان الغساني:

استشهد زهير البلوي وأصحابه في معركة مع البيزنطيين في مدينة درنة شرق ليبيا ودفن مع أصحابه وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة الشهداء، وكان ذلك عام ٧١هـ/٦٩٠م، وكان وقع استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه عظيماً على الخليفة عبد الملك بن مروان، لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتماماً خاصاً إلى الوضع في شمال أفريقية، لذلك نراه يجهز جيشاً كبيراً قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني الذي كان رجلاً ورعاً تقياً، يدل على ذلك تسميته بالشيخ الأمين، وقد أقر الخليفة حسان بن النعمان أن يقيم بمصر استعداداً لإنجاز مهمته وكتب إليه يقول: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس وأخرج إلى جهاد أفريقية على بركة الله. وقد وصف ابن الأثير رحمه الله عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته بقوله: فلم يدخل أفريقية قط جيش مثله[١]، وتمكن هذا الجيش من فتح المناطق التي مر بها، وكان على مقدمته كل من "محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي"[٢]، ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة جيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير في هذه الحملة.

ج- فتح قرطاجنة:

وصل حسان القيروان ودخلها دون أن "يواجه أي مقاومة، ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل، وسار حسان إلى قرطاجنة، وكان صاحبها أعظم ملوك أفريقية، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة"[٣]، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائداً إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى مما اضطر حسان لفتحها مرة ثانية، فهدم المسلمون ما أمكنهم منها؛ لكي لا يعود إليها من يطمع

---

[١] انظر، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٨٢.

[٢] عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر، مصدر سابق، ص٢٧٠.

[٣] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٨٢.

بالتحصن بها. ثم أعقب حسان حملته هذه بحملة على "صطفورة وبنـــزرت فافتتحهمـــا ولم يتبع المنهزمين من الروم الذين تحصنوا في مدينة باجة، ولا البربر الـــذين تحـــصنوا في مدينة بونة وعاد حسان إلى القيروان؛ لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حـــتى صحوا"[١].

وبعد ضرب الروم التفت حسان إلى زعامة البربر فقال: "دلوني على أعظم مـــن بقي من ملوك أفريقية؟ فدلوه على إمرأة تملك البربر وتعرف بالكاهنة، والتقى حسان بن النعمان بالكاهنة عند نهر يدعى نيني أو مسكيانة على مرحلة من باغاي ومجانة فانتصرت الكاهنة وقتل من المسلمين خلق كثير وانسحب حسان إلى قابس"[٢]، هيمنت الكاهنـــة على المغرب كله بعد حسان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: "إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي فـــلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر"[٣]، واستجاب لها قومها من جراوة الذين كان يغلـــب علـــيهم الطـــابع البدوي فذهبوا إلى كل ناحية "يقطعون الشجر ويهدمون الحصون"[٤]. فكانت أفريقيـــة من "طرابلس إلى طنجة ظلا وقرى متصلة فأخرجت جميع ذلك، وقد أضر هذا التخريب بالبرانس والأفارقة حتى ألجأهم إلى الفرار وطلب المساعدة وخرج يومئذ من النـــصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة فيتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية"[٥]، وملكت الكاهنة أفريقية "وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم"[٦].

وكان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البيزنطيين ووجدوا في خروج حسان من أفريقية والفوضى التي عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم في الشمال الإفريقي،

---

[١] المالكي، أبوبكر عبد الله: رياض النفوس، مصدر سابق، ج١، ص٤٩.

[٢] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٥١.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٥٣.

[٤] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٨٣.

[٥] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٥٤.

[٦] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٨٣.

فجهز الإمبراطور "ليونتوس" الذي خلف "جستنيان الثاني" عام ٧٦هـ/٦٩٥م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى أفريقية وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة عام ٧٨هـ/٦٩٧م دون مقاومة تذكر واضطر أبو صالح نائب حسان عليها أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين ودخلها البطريق يوحنا، ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بالأوضاع في المشرق وأقام حسان في منطقة طرابلس قرب سرت في المكان المسمى قصور حسان خمس سنين وحين استقرت الأوضاع في المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى أفريقية في أواخر عام ٨١هـ/٧٠٠م[١].

وبلغ الكاهنة قدومه فأحضرت ولدين لها وخالد بن زيد وقالت لهم: "إني مقتولة فامضوا إلى حسّان وخذوا لأنفسكم منه أماناً، فساروا إليه وبقوا معه"[٢]. سار حسّان نحوها ودارت المعركة بين الكاهنة وحسان على مقربة من "قابس وانتهت بنصر كبير للمسلمين، وبمقتل الكاهنة عند بئر سمي بئر الكاهنة، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان في عام ٨٢هـ/٧٠١م، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها"[٣]. وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض أفريقية للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب.

نهج حسان السياسة ذاتها التي سار عليها أبو المهاجر وهي تأليف البربر وإشراكهم في الفتوح ولعله توسع في ذلك "بإدخالهم في الجيش على نطاق واسع"[٤]، فكانت سياسته خطوة كبيرة في اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففي حملته الأولى عين "هلال بن شروان اللواتي قائداً على مقدمته مع اثنين من العرب هما محمد بن بكير وزهير بن قيس"[٥]، واستعان بالبربر كعيون فقد أرسل أحد رجالهم الذي أسلم طوعاً ليأتيه

---

[١] انظر، نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٥٥.

[٢] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٨٣.

[٣] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٥٨.

[٤] عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر، مصدر سابق، ص ٢٠١.

[٥] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٥٨.

بالأخبار عما يجري في معسكر الكاهنة، ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقاً بإخلاصه وحسن إسلامه مما أدى إلى إسلام نفر كبير من البربر"[١]، وظهر نجاح سياسته من خلال استغاثة أهل قابس وقفصه وأهل نقراوة به فسره ذلك.

حين جند ساوى حسان البربر بينهم وبين العرب المسلمين وذلك وفقاً لمبادئ المساواة في الإسلام ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم، ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خططاً للبربر. ويبدو أن حساناً اعتبر أرض المغرب أرضاً أسلم عليها أهلها.

وبنى حسان داراً لصناعة السفن وأنشأ مدينة إسلامية ثانية هي تونس التي أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديداً للبلاد. وصارت تونس "ثانية العواصم الأفريقية حين أولاها حسان اهتمامه، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة، واهتم بتعليم البربر مبادئ الإسلام وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم"[٢]، وبث الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر "فبنوا المساجد واستلموا المنابر ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات عام ٨٥هـ/٧٠٤م"[٣]، وانتشرت "الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادئ القراءة والكتابة"[٤].

---

[١] المالكي، أبوبكر عبد الله: رياض النفوس، مصدر سابق، ج١، ص٥٤.

[٢] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٦٢.

[٣] ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٤٢.

[٤] نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج٢، ص٣١١.

الفصل الثالث

الميدان الأوروبي

أ- فتح الأندلس:

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيريَّة (أسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر الفتح الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أعلى موسى بن نصير ومن معه كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس، وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة قادة وجيشاً في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية، فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، وكانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الايبيريَّة من المسلمين "البربر الذين تحمسوا لدعوة الإسلام حباً لها وتضحية من أجلها لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطِّلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الإدعاءات وإسقاط المفتريات المزوّرة التي تشير تلميحاً أو تصريحاً إلى إعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عاري من الحجج والبراهين والأدلة وإنما هي أوهام لا تحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي"[(١)].

ويمكن القول: إن فكرة فتح الجزيرة الايبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً، بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى أسبانيا لو استطاع. وسبق للمسلمين

[(١)] الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، دمشق، دار القلم، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. ص٤٣-٤٤.

نشاط على شواطئ أسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيورْقــة ومَنورقــة واليابسة، ويذكر الذهبي أنه في عام ٨٩هـ/٧٠٨م جهز موسى بن نصير ولده عبــد الله فافتتح جزيرتي مَيورْقة ومَنورقة أما الاتصال بيُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الأسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو في الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكــر في تنفيــذ فكرة الفتح، ولكن كيف تم الاتصال بالجانب الأسباني؟. اختلفت الأقــوال فيمــا إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي وأين؟ وعلى كل حال فإن اتصالات الجانب الأسباني بموسى ومساعداتهم أثناء عمليات الفتح ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفــتح أو عجّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله تعالى في تحقيق ما يصبو إليه من هداية الناس.

استشار موسى الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) قبل اتصالاته بيُليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة بادي الأمر بالقيام بمثل هــذا العمل الكبير خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكــن موسى أقنع الخليفة بالأمر ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكــان بالــسرايا أو الحملات الاستطلاعية.

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهز حملة استطلاعية مؤلفة من خمــسمائة جنــدي منهم مائة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زُرعة وهو مسلم من البربر وجــاز هذا الجيش المضيق من سبتة بسفن يُليْان أو غيره ونزل قــرب أو في جزيــرة بالومــا في الجانب الأسباني وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف[١].

كان إبحار هذه الحملة من "سبتة في رمضان عام ٩١هـ/٧١٠م وقد جال طريف في المدينة والنواحي المحيطة بها واستطلع أخبار العدو في تلك الجهات"[٢]، وعادت حملــة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح، فقــد درس أحــوال

---

[١] انظر، الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص٤٤-٤٦.

[٢] سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيــع والنــشر، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م. ص٣٣٤.

المنطقة وتعرّف على مواقعها وأرسل جماعات إلى عدة أماكن منها "جبل طارق لهذا الغرض فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خُطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل"[١].

تيقن لموسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصحّ عنده ما نقل إليه من أحوال الأندلس، فبعث طارق بن زياد في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي وأقلهم من العرب، ولما احتاج طارق إلى اعداد في فترة تالية أمدّه موسى بخمسة آلاف فتمّ جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند أن يُعموُا أخبار الحملة على الناس، لذلك أحضر يوليان السفن إلى سبتة ليلاً وأخذت تنقل الجنود تباعاً، ويبدو أن عملية إبحار الجند اقتضت أكثر من ليلة، فقيل إن الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنون في النهار حتى لا يشعر بهم أحد، وكانت السفن تختلف بين سبتة والأندلس، وأهل الأندلس لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل الأندلس بالحملة كانت عملية الإبحار قد تمت بسلام في رجب من عام ٩٢هـ/٧١١م، ونزل طارق بالجند عند جبل "كالبي" وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف بجبل طارق، وقيل لما ملك رئيس الموحدين عبد المؤمن الأندلس وعبر جبل طارق أمر ببناء مدينة على الجبل وسماه جبل الفتح ولكن الاسم لم يثبت له، وظل اسم جبل طارق جارياً على الألسنة، وسار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها وكان لذريق في شمال الأندلس مشغولاً في محاربة البشكنس وقيل في محاربة الفرنسيين، فأرسل خليفته "تدمير، يُعْلِمُه بالهجوم الإسلامي فعاد لذريق مسرعاً لصده وفي طريقه لقتال المسلمين عرّج على العاصمة طليطلة دون أن يدخلها وصالح أسرة غيطشة ودعاهم والقوط المخالفين له إلى الانضمام إليه في حرب العدو المشترك فساروا معه، وقيل: إن لذريق عهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته إلى ابني غيطشة[٢].

---

[١] الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص٤٦.

[٢] انظر، بطاينة، محمد ضيف: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، مصدر سابق، ص٢٩٩-٣٠٠.

علم طارق بالحشود التي حشدها لذريق لمجابهته فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها ويطلب منه مدداً فأمدّه موسى بخمسة آلاف مقاتل، ويصف المقري نقلاً عن بعض المؤرخين أن جند طارق أقبلوا "وعليهم (الزرد) وفوق رؤوسهم (العمائم البيض) وبأيديهم (القسي العربية) وقد تقلدوا السيوف وحملوا الرماح فلما رآهم لذريق دخله منهم الرعب"[(١)]. وذكر ابن الأثير: أن طارقاً لما ركب البحر "غلبته عينه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القسّي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه وقويت نفسه و لم يشك في الظفر"[(٢)].

لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن والأرض، وأصبح من الواضح أن طارقاً أكثر حرية من خصمة بعد سقوط ولاية (الجزيرة الخضراء) بيده وهزيمة قائد القوط (بنج) وهلاك فرقته بكاملها على يدي جيش طارق، وأصبح قادراً على اختيار المكان المناسب للقتال، فقد كان اختيار ميدان القتال من قبله من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقاً الممتدة عدة كيلومترات والتي يصب فيها نهر البرباط الذي يمر بوادي البرباط وأسند ميسرته إلى الوادي المذكور غرباً، كما أسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال (رتينا) العالية جنوباً، منتظراً أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار، وما أن استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوباً لمواجهة طارق وجيشه في المكان الذي اختاره هذا الأخير، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٩٢هـ/٧١١م وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادي[(٣)].

---

(١) التلمساني، أحمد بن محمد المقري (ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج١، ص٢٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠٩.

(٣) سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي، مصدر سابق، ص٣٣٩-٣٤١.

التقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان عام ٩٢هـ/٧١١م واتصلت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام استشهد فيها ثلاثة آلاف من المسلمين ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل: إن لذريق غرق وقتل كثير من جيشه، ومما يروي عن أبناء غيطشة أنهم خذلوا لذريق وتركوهم وأنصارهم مواقفهم أمام المسلمين ظناً منهم أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم بالغنائم عادوا إلى بلادهم وبقي الملك لهم، ولعل خذلان آل غيطشة وأنصارهم للذريق كان بدافع الانتقام منه[١]، ولا شك أن هذا الفتح مثل غيره يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم وحرصهم على الشهادة في سبيلها. وبعد هذا النصر العظيم "تعقب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الإيبيرّية"[٢].

خاف طارق بعد سنة تقريباً من عبوره إلى الأندلس وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت، أن يُغلب وأن يَستغل القوط قلة جيشه فأرسل إلى موسى يستنجده، فاستخلف موسى على القيروان "ولده عبد الله ونهض من القيروان عام ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم"[٣]، وتحرك بجيشه نحو شذونة فكانت أول فتوحاته ثم توجه إلى مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان دخلوا إليهم كأنهم فُلاّل وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب وأوقعوا بالأحراس فملكت المدينة فافتتحها. وتوجه بعد ذلك إلى أشبيلية جارتها فحاصرها وهي أعظم مدائن الأندلس فامتنعت شهراً على موسى ثم فتحها الله عليه ثم سار إلى مدينة ماردة وفتح في طريقه إليها لَبْلَة وباجة ثم فتح ماردة صلحاً بعد قتال وجهاد عظيم، وأقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجند من العناء ويستعد لاستئناف السير. ووجه موسى ابنه عبد

---

[١] انظر، بطاينة، محمد ضيف: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، مصدر سابق، ص٣٠٠-٣٠١.

[٢] الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص٥٧.

[٣] سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، د.ط، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م. ص٦٨.

العزيز من ماردة إلى أشبيلية، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة اجتمعت فيها وقتلوا العديد من المسلمين منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة وبلغه الخبر خلال الحصار فأعاد عبد العزيز فتح أشبيلية ثم فتح لبلة وباجة، وأصبحت المدن والقرى تتساقط أمام جيوش الفاتحين كتساقط الأوراق من على الأشجار في فصل الخريف.

سار موسى في بداية ذي القعدة عام ٩٤هـ/٧١٣م صوب طليطلة وكتب إلى طارق بالتوجه إليه في مجموعة من جيشه ثم جاءه طارق، فكان لقاؤهما عند طليطلة أو قرطبة، ويرجح الدكتور الحجي أن اللقاء كان خارج مدينة طلبيرة التي تبعد ١٥٠كم غرب طليطلة، ووصل موسى وطارق إلى طليطلة في أواخر عام ٩٤هـ/٧١٣م وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء أو جله في طليطلة يرتبون أحوالها وينظمون شؤوها ويستريحون ويتهيأون ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيريَّة، وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد أخبار الفتح، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس، وقام المسلمون بالدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس حقائق الإسلام وشرحه لهم بعد أن رآه أهل البلاد عملياً في خلق الفاتحين. ولعلهم أرسلوا فرقاً إلى بعض المناطق، فقد كان طارق خبر أحوال طليطلة لاسيما شمالها، إذ كان قد وصل إلى مدينة "المائدة" في منطقة وادي الحجارة[1].

تهيأ الجيش الإسلامي عند انتهاء الشتاء وحلول الربيع عام ٩٥هـ/٧١٤م لترك طليطلة ثم أوغل شمالاً ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح بلنسية وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعُوثاً من جانب الخليفة الوليد عبد الملك يحمل إلى موسى بن نصير أمر الخليفة بالقدوم إلى دمشق، ولكن فتح الأندلس لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثاً وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية وأشتوريس ويكمل فتح الأندلس ويكون مغيث شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث، ومشى في ركاب موسى إلى جليقية والأشتوريس ففتحها، وتعقب موسى وطارق فلول القوط حتى اضطرّ هؤلاء إلى الفرار

---

[1] انظر، الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص٨٣-٨٥.

إلى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الأندلس، ولما تأخرت أخبار موسى قلــق الخليفة الوليد على مصير الجيش الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقــارب أربــع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولاً ثانياً فوصل الرسول الأندلس وموسى في مدينــة لَــكْ بجليقية يُوجَّهُ السرايا والبعوث التي بلغت صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي علــى البحر الأخضر - خليج بسكاي - من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى إلى الرســول وعاد إلى طليطلة ثم غادرها إلى قرطبة ومنها إلى أشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبــد العزيز والياً واتخذ منها عاصمة للبلاد، و لم تمكث أشبيلية طويلاً عاصمة للبلاد فاستعيض عنها بقرطبة منذ عام ٩٧هـ/٧١٦م.

ظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الأندلس، ويبدو أن موسى اختار اشبيلية عاصمة له في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس لوقــوع اشــبيلية في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبــات الحفــاظ علــى الــبلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الأطراف بعيداً عن الوسط و لم تقترب من خطوط المواجهــة مع الأعداء بعيداً عن بلاد المغرب وإمداداتها.

غادر ركب موسى وطارق بن زياد الأندلس في ذي الحجة عام ٩٥هـ/٧١٤م ومعه الأسرى والغنائم الوفيرة والهدايا الثمينة وغيرها من الكنوز، فلما بلغ طنجة ترك ابنه عبد الملك فيها حاكماً ثم انصرف منها إلى القيروان فأقرّ ابنه عبد الله الذي كــان قــد استخلفه في أثناء غيابه في الأندلس، ثم سار من هناك يريد دمــشق فوصــلها في عــام ٩٦هـ/٧١٥م قبل وفاة الوليد(١).

ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاتــه عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوروبا كلها والوصــول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمــشق وأمــره بوقف الفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى بن نصير أن يمــضي قدماً في فتوحاته هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإســلامية،

(١) انظر، بطاينة، محمد ضيف: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، مصدر سابق، ص٣٠٧-٣٠٨.

ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى و لم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوروبا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء. وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوروبا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق هو تقويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوروبا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية.

ب- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة "يزيد بن عبد الملك بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله والذي لجأ لذلك في شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى الذي شاهدها عهده"[١].

شهد عصر الخليفة يزيد بن عبد الملك حمله من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس، وهي الغزوة التي قادها "السمح بن مالك الخولاني (١٠١-١٠٢هـ) إلى تلك الأصقاع"[٢].

---

[١] مصطفى، نادية محمود: الدولة الأموية دولة الفتوحات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د.ن، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٢٣٣.

[٢] الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٩٠.

بدأ السمح حملته في بداية عهد يزيد بن عبد الملك ومهد لغزو ما وراء البرتات بتوجيه البعوث والسرايا إلى بلاد الغال خلال انشغاله بالتنظيمات التي قام بها بالأندلس، كان السمح رجلاً قوي الإيمان جم النشاط من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة توفرت فيه الحكمة والخبرة والعقل فاجتمع عليه الناس ورضوا به، وكانت ولايته تجديداً للغزو واستئنافاً لفتح ما وراء البرتات، واتخذ من مدينة برشلونة قاعدة لتجمع الجيش الإسلامي المتوجه لفتح بلاد الغال، وزحف السمح في جيش كبير من برشلونة مخترقاً جبال البرتات من الشرق ناحية روسيون وعبر باربينيان حتى أشرف على سبتمانيا من بلاد الغال، وظل يتقدم بجيشه حتى وصل إلى مدينة أربونة وأصبحت قاعدة مسلحة للمسلمين واستمر في زحفه واستولى على قرقشونة، وما صادفه من مدن وحصون ذلك الأقليم، واستطاع السمح اجتياح جنوب بلاد الغال والتغلب على كل القوى التي قاومته وتصدت لزحفه حتى أتم فتح جميع نواحي سبتمانية، وبعد أن فرغ من فتح إقليم سبتمانية ونظم أموره حتى اتجه بجيشه غرباً نحو مجرى نهر الجارون قاصداً إقليم اكتيانية "أكوتين" وبالذات عاصمتها مدينة طولوشة، واتجاهه هذا يعني أن غزوه موجه إلى مملكة الفرنج، فقصد طولوشة وفي طريقه إليها فتح مدينة طرسكونة، ثم استمر في زحفه حتى نزل طولوشة فضرب السمح عليها الحصار، وجدَّ في قتال أهلها مستخدماً المنجنيق وسائر آلات الحصار حتى أوشك أهلها على التسليم لكن الأمير "أودو" هبَّ لإنقاذ المدينة ففك المسلمون عنها الحصار والتفتوا لقتال أودو وجيشه(١).

ج- معركة طولوشة:

روعت فتوحات السمح بن مالك في سبتمانيا الأمير أودو، "فهب لإنقاذ عاصمته وسار بجيشه حتى اقترب من طولوشة والمسلمون محاصرين لها، فلما علموا بمقدمه اضطروا لفك الحصار عن المدينة والتفتوا إليه، وكان جيشه عشرة أضعاف الجيش

(١) انظر، الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٩١-٣٠٠.

الإسلامي"[1]، التقى الجيشان بالقرب من طولوشة وقد أعدَّ السمح جنده معنوياً وبثَّ فيهم روح الجهاد الصادق وقرأ عليهم بعض آيات النصر، ونشب القتال في معركة عنيفة غير متكافئة، صدق فيها المسلمون القتال وبلغت من الهول ما لا يتصوره العقل حتى خيل عند تلاقي الجمعين أن الجبال تلاطمت، وظل القتال سجالاً بين الفريقين، وقد أبدى المسلمون فيه ضروباً من الشجاعة وهم يقتدون بقائدهم الذي كان يشدهم بقوله وفعله ويجدونه في كل مكان يحمل على الأعداء فلا يقف في وجهه شيء، غير أن القائد المسلم أصيب برمح في رقبته خر على أثره شهيداً، فلما رأى المسلمون ما أصاب أميرهم فت ذلك في أعضادهم وأثر في نفوسهم فاختل نظام الجيش حينها وولوا عليهم أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن الغافقي الذي نجح في قيادة الجيش وتمكن من الإنسحاب ببقية الجيش في مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين، وإصابتهم في حالة التقهقر حتى وصل أربونة، وكان حدوث هذه المعركة واستشهاد السمح بن مالك الخولاني في ٩ ذي الحجة عام ١٠٢هـ[2]. وتعتبر قيادة عبد الرحمن الغافقي لهذا الجيش الولاية الأولى ولكن رغم قصرها "لم تدم أكثر من ستة أشهر، إلا أن رجوع الغافقي بالجيش سيكسبه تجربة يعود منها بعدها إلى فتح تلك المناطق على نطاق أوسع"[3].

استمر عبد الرحمن الغافقي أميراً للأندلس بتقديم أهل الأندلس له مُنذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولاني في التاسع من ذي الحجة عام ١٠٢ هـ/٧٢٠م، حتى قدوم "عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً للأندلس من قبل بشر بن صفوان عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على أفريقية والمغرب وذلك في صفر عام ١٠٣هـ/٧٢١م"[4]. وكان

(١) زيتون، محمد: المسلمون في المغرب والأندلس، القاهرة، دار الوفاء للطباعة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٩٨.

(٢) انظر، الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٣٠٢.

(٣) المزروعي، وفاء: جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، القاهرة، دار القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٦٦.

(٤) ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج٢، ص٤٩.

عنبسة من طراز السمح بن مالك "رجلاً تقياً وإدارياً بارعاً وعسكرياً فذاً وكان حريصاً على الإسلام وأميناً على دولته"[1]، فكان خير خلف لخير سلف، لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور في الأندلس وإخماد الفتن فيها ومن ذلك توجهه إلى المنطقة الشمالية في الأندلس للقضاء على حركة "بلاي" وإخماد التمرد الذي قام به أخيلا بن غيطشة في مدينة طركونة حتى استقام له أمرها، ثم أعد نفسه للجهاد وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفسه وكان بداية ذلك عام ١٠٥هـ/٧٢٣م، وبذلك يكون الإعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وقد يكون خروجها قد تم أواخر زمنه أيضاً. أما ما تم على يد عنبسة من فتوحات في بلاد الغال فإن ذلك قد حدث في خلافة هشام بن عبد الملك[2].

د- الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك:

وصل عبد الرحمن الغافقي إلى ولاية الأندلس للمرة الثانية وكان من القادة الأفذاذ الذين عرفهم التاريخ الإسلامي وقد اشتهر عبد الرحمن الغافقي بورعه وتقواه وصلاحه وإيمانه القوي، وكان يقول: "لو كانت السماوات والأرض رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً"[3].

عبر عبد الرحمن جبال البرينة في أوائل عام ١١٤هـ/٧٣٢م مع حوالي "سبعين ألفاً من المسلمين بعد أن احتفل في بنبلونة بإعداد حملته، ففتح عبد الرحمن مدينة آرل ثم بوردو "بُزدال" حيث سجل عبد الرحمن نصراً رائعاً على الدوق أُودو، وأسرع أُودو إلى شارل مارتل يستنجده"[4]، وبخاصة بعد أن اجتاح الغافقي نصف فرنسا الجنوبي كله من

---

[1] الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص١٩٠.

[2] انظر، الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٣٠٨.

[3] العمري، عبد العزيز: الفتوح الإسلامية عبر العصور، الرياض، دار إشبيليا، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٨٦.

[4] أبوخليل، شوقي: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٠٧.

الغرب إلى الشرق، ووصلت جيوش المسلمين للمرة الثانية إلى أبواب باريس في غضون سبع سنوات، واستولوا على بواتيه وتقدموا صوب مدينة تور، وأدرك شارك مارتن أن دولة الفرنجة ذاتها هي خطوة المسلمين التالية فقرر التحالف مؤقتاً مع دوق أوكيتانيا لمواجهة الخطر الإسلامي المشترك، فكانت المنازلة الكبرى بين الجيش الإسلامي والجيش الفرنجي في عام ١١٤هـ/٧٣٢م في سهل يقع شمال بواتيه، فعرفت المعركة في المصادر الأجنبية باسم معركة بواتيه، ولكنها عرفت في المصادر العربية باسم بلاط الشهداء لكثرة من استشهد من المسلمين وعلى رأسهم الغافقي ذاته فكانت الهزيمة[١].

هـ- معركة بلاط الشهداء:

يعتبر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه أول واضع لخطة الفتوحات الإسلامية في أوروبا، إذ ندب عبد الله بن سعد بن أبي سرح لفتح بلاد شمال أفريقية، ووافته البشائر بفوز جيوشه على النصارى، فندب عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع وكانا على الأسطول، فأمرهما بالمسير إلى الأندلس، وكتب لهما في ذلك تلك الوصية الرائعة التي يقول فيها: "إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس، وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر"[٢]. وقد اتخذ ولاة شمال أفريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الإسلامية التي يسيرون عليها، فهي تعني حصار القسطنطينية من البر الأوروبي، وتفيد في إضعاف المدد الممكن للقسطنطينية عند حصارها. وأول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية، الأمير حسان بن النعمان، وذلك بعد أن دان له شمال أفريقية بالطاعة، فقد أنشأ في تونس دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصُنع الأسلحة، وجلب لها الصنّاع من سكان مصر، وسار على منهاجه موسى بن نصير. وكان بعدها أن اجتاز طارق بن زياد بتكليف من ابن نصير بجيوشه إلى الأندلس، حيث فتحها الله تعالى له، ووصل المسلمون إلى حدود فرنسا ثم عبروا الحدود فاتحين، وجرت هناك معارك كثيرة، كان أهمها "معركة بلاط الشهداء".

---

(١) انظر، مصطفى، نادية محمود: الدولة الأموية دولة الفتوحات، مصدر سابق، ص٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧.

ولعل التاريخ الإسلامي كله لم يقدم إلينا حادثاً جللاً، كان لـــه مـــن الخطـــورة والأهمية وبُعد الأثر، ما كان لموقعة بلاط الشهداء، فلو لم يُردّ المسلمون في سهل "تـــور" لَمَا كانت ثمة أوروبا نصرانية، بل لعله ما بقيت نصرانية على الإطلاق، ولكان الإســـلام يسود أوروبا. ولحكمة أرادها الله عز وجل كُسر المسلمون في هذه المعركة وتوقف المـــد الإسلامي و لم يدخل أوروبا. ولكن هل بلاط الشهداء نصر أم هزيمة؟.

بطل معركة بلاط الشهداء القائد الشجاع والمحنك العجيب عبد الرحمن الغـــافقي رحمه الله، فمن هو هذا البطل؟. إنه أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، نسبة إلى غافق، "وهي قبيلة من الأزد من اليمن. تابعي من أفذاذ الرجال، جمـــع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام، والسهر على مصالح العباد، وبعـــد النظـــر في السياسة، قائد رشحه إيمانه وإمكاناته القيادية وعبقريته الحربية للقيادة، ولكن الظروف لم تتكافأ مع عبقريته العسكرية، ولله الأمر من قبل ومن بعد"[(١)].

أخباره قليلة جداً، لا تتناسب مع الدور الكبير الذي قام به في تاريخنا الإسلامي، ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء، التي ختمت حياة الغافقي، كانت أليمـــة الوقـــع عنـــد مؤرخينا، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة، وأصاب الإيجاز سيرة عبد الرحمن، فتعمـــدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة إليه، مع عظيم تقديرهم له.

رحل إلى أفريقية، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك بدمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. ظهرت براعتـــه في إنقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في "طولوشة"، وتولى على إثر معركة طولوشة عام ١٠٢هـــ/٧٢٠م، فانتقل إلى "أربونـــة"، فانتخبـــه المسلمون أميراً عليها وأقره عامل أفريقية، ولما نشأ خلاف بينه وبين عنبسة بن ســـحيم، عُزل عبد الرحمن وولي عنبسة مكانه، فصبر عبد الرحمن مدة يغزو مع الغزاة، إلى أن ولاّه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس عام ١١٢هـــ/٧٣٠م، فطاف أقاليم الأندلس، ينظـــر

---

(١) مؤنس، حسين: فجـــر الأنـــدلس، القـــاهرة، العـــصر الحـــديث للنـــشر والتوزيـــع، ط١، ١٤٢٢هـــ/٢٠٠٢م، ص٢٦١.

في مظالم الناس، ويقتص من القوي للضعيف، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة، ويستبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة، متأهباً لفتح بلاد الغال أو غاليا، والتي عرفت عند المسلمين باسم: "الأرض الكبيرة"، وهي فرنسا حالياً.

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وأفريقية إلى مناصرته، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة، فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس. جمع القلوب وساد الوئام في جيشه، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً بعد فتن، فقد كان عادلاً حليماً نقياً، رحب به جميع سكان الأندلس، كان حاكماً بارعاً ظهرت مواهبه الحربية في الغزوات، حكيماً قديراً في شؤون الحكم والإدارة مصلحاً مستنيراً، يضطرم رغبة في الإصلاح، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً.

رحبت الأندلس قاطبة بتعيين عبد الرحمن والياً عليها، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وكان يمرن المجاهدين على استعمال السلاح، ويثير فيهم نخوة القتال، وجمعت هيبته كل القبائل؛ لأنه كان سليماً من النزعة العصبية التي ابتلي بها غيره، ومن دلائل ذلك، أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل أفريقية المتعصب لقيسيته، أقامه على الأندلس وهو يمني من غافق، لذلك ساد الوئام في الإدارة والجيش، وعني بإصلاح الجيش، وتنظيمه عناية خاصة، فحشد الصفوف من مختلف الولايات، وأنشأ فرقاً جديدة مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة مؤمنة من الضباط العرب، وحصّن القواعد والثغور الشمالية.

وصف الحميدي عبد الرحمن بالصلاح، والسيرة الحميدة والعدل وحبه الشديد للجهاد في سبيل الله، وتحدثت المصادر الأوروبية النصرانية عن شجاعته النادرة، ومقدرته الحربية العظيمة. رضي الله عن عبد الرحمن وأرضاه، لئن كان عنبسة من طراز عقبة بن نافع، تستهويه الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية، فإن عبد الرحمن من طراز حسان بن النعمان وطارق بن زياد، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر، فيعمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكي يتم الفتح، وتدخل البلاد في حوزة الإسلام[١].

---

[١] انظر، مؤنس، حسين: فجر الأندلس، مصدر سابق، ص٢٦٣.

فتح المسلمون الأندلس فتح استقرار وإقامة، فطبعت معالمها بالحضارة الإسلامية، وفكَّر موسى بن نصير في عبور جبال البرانس، لبسط السيادة الإسلامية على فرنسا، ومن ثمَّ الاتجاه شرقاً لفتح القسطنطينية معقل النصارى، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي من هذه المغامرة، إذ لم يحدث تاريخياً، أن جيشاً قد اخترق أوروبا من الأندلس حتى شواطئ البحر الأسود دفعة واحدة، فاستدعى الوليد موسى وطارقاً.

كانت ولاية السمح بن مالك الخولاني عام ١٠٠هـ/٧١٨م، الذي يشبَّه بعمر بن عبد العزيز رحمه الله في إسلامه وتقواه وخلقه، وهو من أفاضل عرب أفريقية ومن خيرة الولاة الذين تولوا أمر الأندلس، وأعاد الحماس إلى الجند الإسلامي لمعاودة الغزو في فرنسا، فنقل مركز الخلافة إلى قرطبة، لإعادة التنظيم الإداري، ولتأمين الجبهة الداخلية استعداداً للفتح خلف جبال البرانس.

سار السمح إلى أرض فرنسا، واتخذ "أربونة" قاعدة لعملياته الحربية في فرنسا، فأعاد ترميم الحصون، ودعَّمها بجند مسلمين، وتتبَّع مجرى نهر "الجارون"، واتجه غرباً حتى وصل "طولوشة" التي قاومت حتى وصلتها الإمدادات، وأخذ السمح يشد من أزر جنده المسلمين ويتلو عليهم بروح مؤمنة مستنيرة صادقة قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[1]، ولكن السمح أصيب بطعنة عميقة بالغة في المعركة التي دارت على أسوار "طولوشة" عام ١٠٢هـ/٧٢٠م ففتّ ذلك من عضد الجند المسلمين فارتدوا جنوباً، وهذه تعتبر أول نكسة للمسلمين في أرض فرنسا، وسقط السمح شهيداً، وانسحب المسلمون بعد أن فقدوا قائدهم المغوار البطل، وكان عبد الرحمن الغافقي أحد جنود السمح في هذه المعركة، فأجمع الجيش المسلم على اختياره للقيادة، ورأى من الحنكة أن يرجع إلى الجنوب، ولكن حزنه الأليم على استشهاد السمح ورفاقه جعله يفكر جدياً في الانتقام لمصارع الأبطال، واستئناف الغزو والهجوم، وكانت تلك ولاية عبد الرحمن الأولى، التي لم تدم إلاّ بضعة أشهر. عين عامل أفريقية يزيد بن أبي مسلم، عنبسة بن سحيم الكلبي عام ١٠٣هـ/٧٢١م أميراً على الأندلس، فقضى عنبسة السنوات الأربع

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

الأولى من إمارته في تنظيم أمور الأندلس وإنهاء الخلافات العصبية، ثم واصل فتوحاتــه في فرنسا، فسار على الساحل حتى وصل نهر "الرون"، حيث فتح وادي الرون مدناً كثيرة.

اكتسح المسلمون بقيادة عنبسة حوض الرون، بزحف ظافر علّق عليه مؤرخــون معاصرون له، بأن الله تعالى قذف في قلوب الكفار الرعب، فلم يتــصدَّ أحــد منــهم للمسلمين إلا لطلب الأمان، وفتح المسلمون المناطق الفرنسية الجنوبيــة والــشرقية، و لم يجدوا مقاومة إلا في مدينة "سانس" الواقعة على بعد ثلاثين كيلو متــراً فقــط جنــوبي "باريس"، وفيها تصدى أسقف المدينة للزحف الإسلامي، وكان قد استعد له من قبــل، فحصن المدينة وحشد مواطنيه، فهبوا معه لحماية مدينتهم، ونجحوا في إيقــاف الزحــف الإسلامي. أدرك عنبسة بعد هذا الزحف المظفر، الذي أوصله إلى ضواحي باريس، أنــه توغل أكثر مما ينبغي، فخشي أن يقطع العدو خطوط تموينه أو طريق عودته، وبخاصة أنه سمع بانبعاث العصبية في الأندلس من جديد، ووقع خلاف فيما بين العرب والبربر. وهذا الذي شعر به عنبسة، كان حدساً صحيحاً، فبينما كان في طريق عودته داهمتــه جمــوع كبيرة من النصارى، فالتحم معهم، وأصيب بجراح بالغة في شعبان عام ١٠٧هـــ/٧٢٥م، استشهد على إثرها، فعادت بقية الجيش بقيادة عذرة بن عبد الله الفهري إلى "أربونة"[(١)].

وينبغي أن نلاحظ أن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ولــو كان عنبسة على نية الفتح الثابت، لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن، ولأقــام الحاميات في بعضها على عادة المسلمين في فتوحهم. ومهما يكن من الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر، فخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية و لم يدرك هذا الشأن بعد ذلك فاتح مسلم آخر.

استعد الغافقي استعداداً كبيراً لغزو فرنسا، وأعلن الدعوة للجهاد في ســبيل الله، وأعلن هذه الدعوة في أفريقية والأندلس، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحية، وتجمــع لديه عدد ضخم من المجاهدين، بلغ ما بين سبعين إلى مائة ألف مجاهد، وبدأ تحركــه في أوائل عام ١١٤هــ/٧٣٢م. جمع عبد الرحمن الغافقي المجاهدين وخرج باحتفال مهيــب

[(١)] انظر، مؤنس، حسين: فجر الأندلس، مصدر سابق، ص٢٤٧-٢٤٨.

ليعبر جبال البرانس واتجه شرقاً ليضلل النصارى عن وجهته الحقيقية، فأخضع مدينة "أرل" التي خرجت عن طاعة المسلمين، ثم اتجه إلى "دوقية"، فانتصر على الدوق انتصاراً حاسماً، ومضى الغافقي في طريقه متتبعاً مجرى نهر "الجارون" ففتح "بردال" واندفع شمالاً ووصل إلى مدينة "بواتييه"[١].

اهتزَّت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها لِسُقُوط نصف فرنسا الجنوبي كله في يدي عبد الرحمن الغافقي خلال بضعة أشهر، وفتح الفرنجة أعينهم على الخطر الداهم، ودبَّ الصريخ في كل مكان يدعو العجزة والقادرين إلى الوقوف في وجه هذا الهوْل القادم من الشَّرق ويَحُضُّهُمْ على التَّصَدِّي له بالصدور إذا عزَّت السيوف، ويدعوهم إلى سدِّ الطريق أمامه بالأجساد إذا انعدم العَتَاد، فاستجابت أوروبا لدعوة الدَّاعي وأقبل الناس ومعهم الشَّجر والحَجَر والشَّوك والسِّلاح. أصبح عجز الدوق واضحاً في مواجهة المسلمين، فاستصرخوا "شارل مارتل"، فلبى شارل النداء، وكان قبلها لا يحفل بحركات المسلمين في جنوب فرنسا بسبب الخلاف الذي بينه وبين الدوق الذي كان سببه طمع شارل بالدوقية، وبذلك توحدت قوى النصرانية للوقوف في وجه المسلمين، ورحب شارل بالفرصة ليبسط نفوذه على بلاد الدوق وأراضيها الواسعة، بعد أن شعر بالخطر الإسلامي.

اجتمع النصارى إلى "شارل مارتل"، وقالوا له: "ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟! كنا نسمع بالمسلمين ونخافهم من مطلع الشمس حتى أتوا مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم! فأجابهم: "الرأي عندي ألاّ تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرئاسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر"[٢].

---

[١] مؤنس، حسين: فجر الأندلس، مصدر سابق، ص٢٦٧.

[٢] التلمساني، أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب، مصدر سابق، ج١، ص١٢٩.

فكان والله كذلك، بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والذين جاؤوا من الحجاز، والبربر والعرب، والمضريَّة واليمنية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء.

أدرك الغافقي هذه القضية وصارت تشغل فكره وخاف من لهو جنده بالغنائم الكثيرة التي حصلوا عليها في معركتهم الأولى وكانوا يجروها في أثناء زحفهم، وفكر جدياً في حملهم على تركها في أرضها؛ لئلا تشغلهم عن القتال فتكون وبالاً عليهم، لكنه لم يشأ وهو في مأزق كذلك المأزق أن يغيظهم ويخسر بذلك توحد قلوبهم، وبقي واثقاً بشجاعتهم في القتال. والحق أنه عندما وقف المسلمون في وجه النصارى، لم يكن سكان أوروبا يتمنون خسارة المسلمين وهزيمتهم، لقد تمنى قسم كبير من سكان فرنسا انتصار المسلمين، بعدما سمعوا بتحسن حال الاسبان بعد دخولهم في حوزة المسلمين الفاتحين، حيث انتقلوا من الرق والضرائب المالية الباهظة إلى الحرية والعدالة والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم.

كان عدد جيش النصارى أكبر من جيش المسلمين، فبينما كان النصارى سيلاً من الجند المتدفق، لم يكن الجيش المسلم يزيد على سبعين ألف مسلم في أصح الروايات، وقد يصل إلى مائة ألف في روايات أخرى، "كان جُلّهم من البربر؛ لأن كثيرين من عرب أفريقية والأندلس كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزرع من ناحية أخرى، وهذا لا يعني عدم وجود أعداد من العرب مع الغافقي، فقد كان معه معظم اليمنيين لأنه يمني، ولأن غالبية سكان نواحي إقليم "سرقسطة" كانوا من اليمن، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين في ناحية جبال البرانس وما يليها"(١).

وكان موقف النصارى الاستراتيجي أيضاً أجود وأفضل، وبخاصة معرفتهم للمواقع، وألفتهم للتحرك فيها، ومعرفة دروب المنطقة، مع قدرة على القتال في جو شات مطير، تعودته جسومهم، وأرض موحلة ألفتها خيولهم.

---

(١) مؤنس، حسين: فجر الأندلس، مصدر سابق، ص٢٦٢.

وكان مدد النصارى البشري والتمويني قريباً، بينما المسلمون على بعد يجاوز ألف كيلومتر عن عاصمة الأندلس، بعيدون مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الأموية، ويكفي أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق وجبال البرانس، ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة في نواحي فرنسا كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ.

ولا ننسى الغنائم التي حملها الجيش الإسلامي: فالمسلمون حملوا الغنائم التي أخذوها من أيدي عدوهم، ولو أحسنوا لبعثوا نفراً منهم ليودعها "أربونة" أو "برشلونة" حتى يطمئنوا عليها، وتخلوا أيديهم للعمل المقبل، وينتهي اشتغال فكرهم بها، ولكنهم حرصوا عليها أكثر من حرصهم على النصر، وانقلبت الغنائم إلى ثقل يرهقهم، أضعف حركتهم، فكانت الغنائم سبب هزيمتهم كما سيأتي.

انزعجت أوروبا انزعاجاً صارخاً لتقدم الجيوش الإسلامية، وفزع زعماؤها فأرسلوا صيحاتهم الصليبية في آفاق أوروبا، وبذلوا أقصى ما يقدرون عليه لإشعال نار الكراهية للإسلام، وتأكيد العداوة لرجاله، وكان ملك النصارى ضعيفاً عاجزاً، ويتولى حاجب القصر "شارل مارتل" قيادة أموره، فتجمع حوله الصليبيون، وقدموه قائداً للنصرانية. ولما بلغ "شارل مارتل" نبأ قدوم الجيش الإسلامي اتخذ الأهبة، وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرئبة للظفر وجنود متطلعة للقتال، ولم يكتف بما لديه من النصارى في فرنسا، بل بعث يستقدم جنداً من حدود "الراين"، فأتته نجدات من جنود أجلاف أقوياء، يحاربون شبه عراة في مثل هذا الجو البارد، يلبسون جلود الذئاب والنمور، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية، يرسمون للوحشية البدائية صوراً مزعجة حمراء. لقد اجتمع لشارل مارتل بذلك جيش كثيف، قادر على الثبات والمنازلة ضاقت بجموعه الكثيفة سهول فرنسا، فتقدم إلى شمال "بواتييه" في اتجاه "تور"، وفي "تور" التقى جيشان يختلفان عَدَداً وعُدَداً ولغةً وديناً وهدفاً وحضارةً.

أصح الأقوال أن المعركة "كانت في منطقة تسمى "بواتييه" وتسمى المعركة بلاط الشهداء وبلاط تعني "القصر"، فبلاط الشهداء معناها "قصر الشهداء"، مما يفيد أن مكان الموقعة كان بجوار قصر أو حصن كبير، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة"[١].

وقلما ذكر التاريخ معركة لها ما بعدها مثل هذه المعركة، فكان النصارى من جهة يذبون عن ديانتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم، وكان المسلمون من جهة ثانية على اعتقاد راسخ أنهم يقاتلون في سبيل الله، لنشر عقيدة التوحيد لتعم رسالتها أوروبا كلها.

التقى الجمعان في أواخر شعبان عام ١١٤هـ/٧٣٢م، رابط كل منهما أمام الآخر مدة ثمانية أيام، وكان المسلمون هم الذين بدؤوا القتال، وكان النصارى قادمين من حروب ابتسم لهم فيها النصر، فكانت حماستهم تغلي مراجلها، ويزيد فيهم وجود "شارل مارتل"، الذي كلما ظهرت ثلمة اندفع وسدها بنفسه حماسة وعزيمة.

هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل هجمات شديدة في بداية الأمر، حاولوا بها خرق صفوف النصارى، غير أنهم كانوا يجدون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران في ثباتها، فكانت تتكسر عليها حملات المسلمين. استمر القتال أول يوم طول النهار، ولم يحجز بين المسلمين والنصارى سوى الظلام، وفي اليوم التالي تجدد القتال، ورخصت النفوس في سوق المنايا، وحمل المسلمون حملات مستميتة، إذ لم يكونوا ينتظرون من النصارى مثل هذا الثبات، ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً. وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم، إذ أغارت فرقة من النصارى على معسكر المسلمين، الذي فيه متاعهم. فاخترقت صفوف المسلمين في موضع، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم، وكانت شيئاً عظيماً جداً، فريع الجند الإسلامي المحارب، وخشي الكثيرون من أفراده أن يستولي عليها النصارى، فالتفت بعضهم وعادوا إلى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها، وهنا اضطربت صفوف المسلمين، واتسعت الثغرة التي نفذ منها النصارى، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية، وحاول عبد

---

[١] مؤنس، حسين: فجر الأندلس، مصدر سابق، ص٢٧١.

الرحمن الغافقي جهده أن يثبّت جنده ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق، وأصابه سهم أودى بحياته، وكان ذلك نذير شؤم على جيش المسلمين. وصبر المسلمون حتى أقبل الليل، فانتهزوا فرصة الظلام، وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل وكان ذلك في أوائل شهر رمضان عام ١١٤هـ/٧٣٢م. وحينما أسفر الصبح نهض النصارى، فلم يجدوا من المسلمين أحداً، فتقدموا على حذر من مضارب المسلمين، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات، فظنوا أن في الأمر خدعة، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين، إما لأنهم خافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركاً، أو لأن "شارل مارتل" تبين ما نزل بالمسلمين، فرأى أنه يستطيع العودة إلى الشمال مطمئناً إلى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده.

اندفع المسلمون في تراجعهم نحو الجنوب مسرعين، واتجهت جموعهم نحو "أربونة" وحينما أحسوا ألا أحد من النصارى يتتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد بعد أن انتهت معركة بلاط الشهداء.

تعتبر معركة بلاط الشهداء معركة فاصلة في تاريخ العالم، فقد ترتب عليها تغير مجرى التاريخ إلى حد كبير، فلو انتصر المسلمون في بلاط الشهداء، لاكتسح الإسلام أوروبا كلها، وما بقيت نصرانية على وجه الأرض، ولتُلي القرآن الكريم وفُسِّر في اكسفورد وكمبردج. ولو انتصر المسلمون لتخلَّصت أوروبا من ظلماتها وجهالتها واستبدادها وحطَّمت الاستغلال والاضطهاد، كما كانت ستتخلَّص من عار محاكم التفتيش السوداء فيما بعد.

بالغ النصارى الأوروبيون في تقدير "عدد القتلى من المسلمين حتى أوصلهم بعضهم إلى ٣٧٥ ألفاً، وهذا بطبيعة الحال غير معقول، فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد أو ما يقاربه، على كثرة الحروب في ذلك الوقت، فضلاً عن صعوبة التموين والمواصلات"[١].

---

[١] الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص٢٠٢.

لم يفقد المسلمون ما كان تحت أيديهم في فرنسا بعد بلاط الشهداء، بل ظلت لهم "أربونة" وما حولها، على أن الذي لا ريب فيه أن غزوة الغافقي هذه كانت آخر محاولة جدية قام بها المسلمون لغزو بلاد النصارى. والحق أن انهزام المسلمين في بلاط الشهداء لم يكن هو الذي أوقف تقدمهم؛ لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين، الموت أحب إليهم من الحياة، وكانت الهزائم لا تعني في حسابهم شيئاً، ورأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة في شمال أفريقية أيام عقبة بن نافع فلم يمنعهم ذلك من العودة والإصرار على الفتح، إنما الذي أوقف تقدم المسلمين هم المسلمون أنفسهم؛ بما شجر بينهم من فتن العصبية، وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ والنظرة الجاهلية إلى الحياة.

لو انتصر المسلمون في بلاط الشهداء، لدخلوا فرنسا وتم تحويلها إلى الإسلام، ولو استقر لهم الأمر في فرنسا لاتجه نظرهم إلى ما وراءها، ومن هنا كانت أهمية "بلاط الشهداء" في تاريخ النصرانية، فقد حالت بينها وبين الزوال حقاً.

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في بلاط الشهداء وأقاموا حكم الإسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الأندلس؛ لأن الذي أعاد النصرانية في الأندلس، إنما هو عجز المسلمين عن فتح فرنسا.

لم يُسْحَق الجيش الإسلامي في بلاط الشهداء بالمعنى المفهوم للهزيمة الساحقة، ولكنه كان ارتداداً، بل انسحاباً منظماً من تلقاء نفسه، فقد لبث يقاتل طوال المعركة الفاصلة حتى المساء، محتفظاً بمراكزه أمام العدو ولم يرتد أثناء القتال، والدليل على هذا القول، رهبة النصارى من مطاردة المسلمين وحذرهم من اللحاق بهم عقب بلاط الشهداء وتوجسهم من كون انسحاب المسلمين خديعة حربية، وخطّة مبيَّتة، ولو أن الجيش الإسلامي انتهى تماماً كما تصوره الرواية النصرانية الكنسية لبادر النصارى إلى مطاردته والإجهاز عليه، ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده.

إن أفدح خسارة في بلاط الشهداء كانت استشهاد الغافقي رحمه الله؛ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع بهيبته وقوة إيمانه وشخصيته الملتزمة بإسلامه الصافي أن يجمع

الإسلام في الأندلس، فكان استشهاده في هذا المأزق العصيب، ضـــربة شـــديدة لُمثـــل الإسلام، ولمشاريع الخلافة في افتتاح أوروبا.

استشهد الغافقي في بلاط الشهداء، استشهد وهو يحاول رأب الـــصفوف الـــتي تصدَّعت عندما هاجم النصارى الغنائم التي كانت مكدَّسة خلف الصفوف، ومع هـــذا كله فإن على ذاكرة التاريخ أن لا تنسى أولئك الذين بذلوا وأظهروا كل ضروب الفداء والتضحية والصدق والإخلاص والبسالة والشجاعة، ولكنهم أصبحوا قادة بـــلا جنـــود فهُزموا، أو جنوداً بلا قائد فآثروا الرجوع. وفي أغلب الأحيان فإن ذاكرة التاريخ تذكر بالفخر والإعجاب الأبطال الذين صنعوا الانتصارات وتجعلهم في مركز الصدارة، ولـــذا فهي تخلِّد الغافقي بطلاً عظيماً، وإن لم يكن قد حقق النصر في بلاط الشهداء، وذلك لما أبداه من الطموح والصدق في نشر الدعوة الإسلامية مع ثقته بنفسه وجيشه، وحزمه في أموره، ولكنه استشهد في المعركة الفاصلة وأصبح الجند بلا قائد. ولو أنه انتصر في بلاط الشهداء لعمّت شهرته الخافقين، ولأصبحت الدنيا منذ ذلك الحين مـــسلمة، ويكفـــي الغافقي فخراً أنه بالإسلام -وبالإسلام وحده- أوصل جيوش المـــسلمين إلى ضـــواحي باريس، ويكفي الإسلام فخراً أنه أوصل جيوش المسلمين إلى قلب فرنسا، فلولا الإسلام لبقيت قبائل العرب في جزيرتها ولا ندري إلى متى! تحت وصـــاية الفـــرس والرومـــان. والحقيقة التي لا جدال فيها أنه في سهول بلاط الشهداء فَقَدَ المـــسلمون ســـيادة العـــالم بأسره، وتغيَّرت مصاير العالم القديم كله، وارتد تيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتـــها الخلافة لافتتاح أمم الغرب، وإخضاع أوروبا لصولة الإسلام.

لم ينتصر المسلمون في بلاط الشهداء لأمر أراده الله تعالى، إنها مشيئته جل شأنه، ليثبت للدنيا بأسرها أن الإسلام قوة ذاتية كامنة فيه، وسيعم نوره أوروبا فيما بعد بلاط الشهداء بقرون، فها هو اليوم الدين الزاحف على عواصم الغـــرب في القـــرن الحـــادي والعشرين، وبشائره تجعل النتائج المتوقعة محققة. نجد المسلمين من أبنـــاء أوروبـــا دعـــاة إسلام، والمنارات تتعالى بـــ "الله أكبر" في عواصم ومدن الغـــرب، ليـــشهد العـــالم أن

الإسلام بلا سيف؛ لأنه الأمل المنشود، فيه التوازن الرائع بين الدين والـــدنيا، والـــروح والمادة، والعقل والقلب.

ولو أردنا أن نلخص سبب هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء في سببين:

الأول: العصبية القبلية: فبعد مقتل القائد عبد الرحمن الغـــافقي رحمـــه الله لم يـــتمكن المسلمون من الاتفاق على قائد يكمل المعركة، واستمر المسلمون في القتال حـــتى فـــك الظلام بينهم وبين عدوهم، واجتمع كبار الشخصيات والأعيان ممن كانوا مـــع القائـــد الغافقي في خيمة من غروب الشمس إلى أن طلع الفجر و لم يتفقوا مع الأسف على قائد واحد يلتف حوله المسلمون ليكملوا المعركة ضد النصارى بسبب العصبية فاتخذوا أخطر قرار وهو الانسحاب.

الثاني: الميل إلى الدنيا: فالغنائم التي غنموها قبل دخولهم هذه المعركة الفاصـــلة أتعبتـــهم فحفظوها في معسكر، وفي أثناء القتال احترق المعسكر فانصرف جزء من قلب الجـــيش ومن القادة إلى غنائمهم لحفظها من الاحتراق فحصل خلل كبير في الجيش تمكن الغافقي رحمه الله بقدرته الباهرة وقيادته الخارقة أن يحفظ توازن الجيش وأن يغذي القلـــب مـــن الأطراف وأن يستبدل القادة الذين انصرفوا دون إذنه بغيرهم، لكن مشيئة الله جل وتعالى فوق كل شيء، فإذا بسهم طائش يصيب الغافقي فيخر شـــهيداً في أرض المعركـــة في أصعب مراحلها.

كان الجيش الإسلامي يومئذ في ذروة انتصاراته الباهرة لكنَّ كاهله كان مُـــثقلاً بتلك الغنائم التي انْصبَّت عليه انصِباب الغيْث، وتكدَّست في أيـــدي جُنُـــوده تكـــدُّس السُّحب، ونظر عبد الرحمن الغافقي إلى هذه الثروة الطائلة الهائلة نظرة قلـــق وإشـــفاقٍ وتوجَّس منها خيفةً على المسلمين فقد كان لا يأمن أن تَشْغَلَ هذه النَّفائس قُلُوبَهم عنـــد اللِّقاء وأن توزِّع نفوسهم في لحظات البأس وأن تجعل إحدى عيْني الواحد منـــهم علـــى العدو المُقبل عليه وعيْنه الأخرى على الغنائم التي في يديه، ولقد همَّ بأن يـــأمر جُنُـــودَه بالتَّخلص من هذه الثروات الطائلة الهائلة ولكنَّه خشي ألَّا تطيب قلوبهم بـــذلك القـــرار

الخطير وألَّا تسمح نُفُوسهم بالتَّخلي عن هذا الكنـــز الثمين فلم يجد وسيلة خيراً مـــن أن تجمع هذه الغنائم في مخيمات خاصَّة وأن يجعلها وراء المُعسكر قبل إنشاب القتال.

تمثل هذه المعركة نهاية المد الإسلامي في تاريخ المسلمين من جهة الغرب فلم يتقدم المسلمون خطوة بعد هذه المعركة، ولحكمة يعلمها جل وتعالى، فلو قدر انتصار المسلمين في هذه المعركة فسيدخل الإسلام أوروبا بهذه المجموعة التي تفتك بها العصبية من جهـــة، وقلبها متعلق بالدنيا من جهة أخرى، فكانت مشيئة الله تعالى أن يتوقف المد الإســـلامي عند هذه النقطة إلى أن يهيئ الله تعالى إسلاماً صافياً خالصاً نقياً يدخل أوروبا وسيدخلها إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

الميدان الآسيوي

أتم المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية رضي الله عنه أخذت دولته تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح.

ولما استقامت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه "ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان"[(١)]، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر في هذا المنصب نظراً لخبرته السابقة في هذه المنطقة، وفي عام (٤٢هـ/٦٦٢م - ٤٣هـ/٦٦٣م) "عين ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس والياً على سجستان فأتاها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطي ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وقطري بن الفجاءة، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي ففتحوا في هذه الحملة مدينة زرنج*، صلحاً ووافق مرزبانها على دفع ألفي ألف (مليوني) درهم، وألفي وصيف. ثم تقدموا نحو مدن خواش**، وخُشَّك***، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصاراً استمر لعدة أشهر، وما لبث أن جعل معاوية رضي الله عنه إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات"[(٢)].

---

(١) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٥، ص١٧٠.

* زرنج: مدينة كبيرة هي قصبة سجستان (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٣، ص١٥٥).

** خواش: مدينة بسجستان (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص٤٥٥).

*** خشك: بلدة من نواحي كابل (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص٤٢٧).

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٣٨٨.

ظل عبد الرحمن والياً على سجستان حتى قدم زياد بن أبي سفيان البصرة معيناً عليها بدل عبد الله بن عامر الذي عزله معاوية عام ٤٥هـ/٦٦٥م، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت إشراف والي البصرة، وعند وصول زياد البصرة عام ٤٥هـ/٦٦٥م "قسم خراسان أربعة أقسام هي: مرو وعليها أُمَير أحمد اليشكري والذي كان أول من أسكن العرب في مرو، ونيسابور وعليها خُلَيد بن عبد الله الحنفي، مرو الرُّود والطالقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السُّلمي، هَراة وباذغيس وبوشنج وقاديس وعين عليها نافع بن خالد الطاحي الأزدي"[١].

جعل زياد السلطة المركزية في خراسان في مدينة مرو القاعدة الأساسية فيها عام ٤٧هـ/٦٦٧م. وكان عفيفاً وله صحبة، وفي عام ٤٧هـ/٦٦٧م "سار الحكم بن عمرو إلى جبال الغور فغزا من بها، وكانوا ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا"[٢]، وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل الأشل من جبال الترك، إلا أن "الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق، واحتار الحكم بالأمر فولى المهلب الحرب فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الأثقال نحوه فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق فبادرهم إلى طريق أخرى فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب فسلم الناس بما معهم من الغنائم"[٣]، وعبر الحكم وعبر إلى ما وراء نهر جيحون* في ولايته ولم يفتح. "وكان أول من شرب من مائه من المسلمين هو أحد موالي الحكم، فقد

---

[١] البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٣٨٦.

[٢] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٨.

[٣] خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٩١.

* ما وراء النهر: جيحون بخراسان، فما كان في شرقه يقال له: ما وراء النهر وما كان غربه فهو خراسان وولاية خوارزم (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٥، ص٥٤).

اغترف بترسه بماء النهر فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك"[١].

مات الحكم عام ٥٠هـ/٦٧٠م، فخلفه الصحابي الجليل غالب بن فضالة الليثي والذي واصل سياسة سلفه في إرسال حملات منظمة في فتح طخارستان، ولكنه رغم كل الجهود التي بذلها لم يحرز أيّ تقدم يذكر في ولايات طخارستان، فعزله زياد وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثي (٥٠-٥٣هـ/٦٧٠-٦٧٣م) واستطاع الربيع بن زياد "إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة، ثم إن ابنه عبد الله الذي خلفه لبضعة أشهر من عام ٥٣هـ/٦٧٣م وخلفه خليد بن عبد الله الحنفي في إدارة الإقليم، وظل خليد في منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان عامل معاوية رضي الله عنه المعين على خراسان في عام ٥٤-٥٥هـ/٦٧٤-٦٧٥م وكان عبيد الله ابن ٢٥ عاماً"[٢].

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من ٢٤ ألف رجل قطعوا نهر جيحون على الإبل وفتحوا راميثين ونسف وبيكندة، فأرسلت (خاتون) ملكة بخارى إلى الترك تستمدهم فجاءها منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف خراسان التي تذكر، وقد ظهر منه بأس شديد، فقد ذكر شاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأساً من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بخراسان فرأيته يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا ثم يرفع رايته تقطر دماً[٣].

---

[١] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٨.

[٢] العقيلي، عمر: خلافة معاوية، مصدر سابق، ص١٣٦-١٣٨.

[٣] انظر، خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، مصدر سابق، ص١٢٥.

أ- فتوحات سعيد بن عثمان بن عفان:

تذكر المصادر التاريخية أن سعيد بن عثمان بن عفان قد اصطحب معه إلى خراسان "حوالي أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية في البصرة والكوفة، كما كان من ضمنهم حوالي خمسين عابثاً وقاطعاً للطريق من أمثال مالك بن الرِّيب المازني التميمي، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد في سبيل الله"(١).

قدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى سمرقند وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد "وأقبل أهل الصُّغد وكِش ونسف إلى سعيد في مائة ألف وعشرين ألفاً فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية فنكثت العهد، ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال فأثّر انصرافهم في معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك أعادت الصلح فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحاً"(٢).

طلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، وتخلّصت بذلك من أشدَّ أعدائها خطراً على عرشها وحاضرها ومستقبلها، وحين تمَّ الصلح بين خاتون وسعيد زارت خاتون سعيداً بمقرِّه.

غزا سعيد سمرقند فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند وحلف ألاّ يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه فطلبوا الصلح فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين،

---

(١) العقيلي، عمر: خلافة معاوية، مصدر سابق، ص١٤٠.

(٢) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٥، ص٣٠٥.

وكان معه من الأمراء المهلب بن أبي صُفرة الأزدي وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بأفريقية وعبيد الله بالمدينة وكلهم من أب واحد وأم واحدة قال تعالى: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[(١)]. هذا وانصرف سعيد بن عثمان إلى تِرْمِذ ففتحها صلحاً[(٢)].

ب- مواصلة الفتوحات في المرحلة الثانية من الدولة الأموية:

تولى قتيبة بن مسلم قيادة الفتح في الشرق، فحثّ جنده على الجهاد وسار غازياً، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين (بلخ) وساروا معه فقطع نهر (جيحون) فتلقاه "ملك (الصغانيان) بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه؛ لأنّ ملك شومان*، كان يسيء جواره، وسار قتيبة منها إلى (أخرون) و (شُومان) وهما من الصَغَانيان فصالحه ملكها على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ثم انصرف عائداً إلى (مرو)، واستخلف على جنده أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت، وفتح أخسيكث**، وبهذا الفتح الكبير استهل قتيبة ولايته لخراسان عام ٨٦هـ/٧٠٥م"[(٣)].

ج- فتح إقليم بخارى ٨٧-٩٠هـ:

يقول الطبري رحمه الله: إن قتيبة لما صالح نيزك، أقام إلى وقت الغزو ثم غزا في تلك السنة ٨٧هـ/٧٠٦م فقطع النهر وسار إلى بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل قريباً منها استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول، ولم يعرف له خبر شهرين، وأبطأ

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) انظر، البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٠١-٤٠٢.

* شومان: بلد الصغانيان من وراء نهر جيحون (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٣، ص٤٢٤).

** أخسيكث: وهي مدينة فرغانة القديمة (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج١، ص١٤٨).

(٣) خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، مصدر سابق، ص٣٨٦.

خبره على الحجّاج، فأشفق الحجّاج على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم، فكانت بين الناس قتال بالرماح، ثم تزاحفوا والتقوا وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاؤوا واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليها رجلاً من بني قتيبة، ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمس فراسخ فرجع إليهم، وقتل من كان في المدينة وغنم غنائم كثيرة ورجع قتيبة إلى مرو، وقوى المسلمون فاشتروا السلاح والخيل وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة، ويضيف الطبري أن حملات قتيبة على إقليم بخارى استمرت بصفة منظمة كل سنة، وكان غزوه يتم في فصل الصيف فإذا دخل الشتاء عاد إلى مرو، وفي عام ٨٨هـ/٧٠٧م ترك أخاه بشاراً على مرو وعبر النهر ففتح نومشكت ورامثنة من أعمال بخارى صلحاً بناء على طلب أهلها، ولكن هاله حلف من أهل فرغانة والصغد في مائتي ألف عليهم ابن أخت ملك الصين "كور مغايون" وواضح من هذا التجمع الكبير أن الأمم في هذه المناطق قد تداعت وتحالفت على المسلمين، ولكن الله نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف ثم عاد إلى مرو.

استأنف قتيبة في عام ٨٩هـ/٧٠٨م فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجّاج، فلقيه في طريقه جمع من أهل كش ونسف فظفر بهم ومضى إلى بخارى، فتصدى له ملكها "وردان خذاه" فلم يستطع الاستيلاء عليها فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجّاج يخبره فطلب منه الحجّاج أن يصورها له فبعث إليه بصورتها، فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذي يأتيها منه وأمره بالمسير إليها، فسار إليها عام ٩٠هـ/٧٠٩م، ومع أن وردان خذاه كان قد استجاش الصغد والترك ليساعدوه في التصدي لقتيبة، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة واستولى على بخارى وكتب بالفتح إلى الحجّاج، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات[١].

---

[١] انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣٠-٤٣١.

د- فتح سمرقند:

ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: "أنه لما احتضر عبد الملك بن مروان، دخل عليه ابنه الوليد فبكى، فقال له عبد الملك: ماهذا؟ أتحن حنين الجارية والأمَة؟ إذا أنا مت فشمِّر وأتزر، والبس جلد النَّمر، وضع الأمور عند أقرانها"(١).

بويع الوليد بالخلافة بعد وفاة والده عبد الملك بن مروان عام ٨٦هـ/٧٠٥م، وكان الوليد عند أهل الشام أفضل خلفائهم، تُمثِّل خلافته العصر الذهبي في الحكم الأموي من حيث الفتوح ونشر الإسلام، ومن حيث الإصلاحات والبناء والتنظيمات الإدارية.

لقد بدأ عصر الفتوحات الإسلامية أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت الخطوة الثانية الكبرى أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكانت الخطوة الثالثة أيام الوليد بن عبد الملك وتُمثِّل سنة ٩٣هـ/٧١٢م قمَّة الفتوح الإسلامية على مرِّ التاريخ، حيث نظَّم الوليد بن عبد الملك الفتح وجعله دائماً ورافقه نشر الإسلام، وفُتحت "سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، والدَّيبُل على يد محمد بن القاسم الثَّقفي، وطليطلة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد، فتضاعفت في السنوات العشر من حكم الوليد بن عبد الملك مساحة رقعة أرض الإسلام"(٢).

وقام بإصلاحات جمّة وأشاد مرافق إسلامية، فهو أول من بنى المستشفيات في الإسلام للمرضى، وأول من اتَّخذ داراً للضيافة، وأول من بنى الأميال في الطرق، "وهو باني جامع دمشق الكبير، المشهور بالجامع الأموي، الذي لا يُعرف في الآفاق أحسن بناء منه، بدأ ببنائه في ذي القعدة عام ٨٨هـ، وأتمَّه أخوه سليمان، وهدم المسجد النبوي

---

(١) ابن كثير، الحافظ اسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٩، ص٦٧.

(٢) المصدر السابق ذاته، ج٩، ص٩٥.

بالمدينة والبيوت المحيطة به، ثم بناه بناءً جديداً، وصفَّح الكعبة المشرفة والميزاب والأساطين في مكة، وبنى صخرة بيت المقدس، وعقد عليها القبة"[1].

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، واليه على المدينة، في تسهيل "الثَّنايا وحفر الآبار في البلدان، وأمره أن يعمل الفوَّارة بالمدينة، فعملها وأجرى ماءها، فلما حجَّ الوليد ورآها أعجبته، وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطُّرق، وعمل الآبار"[2].

يعدُّ عصر الوليد بن عبد الملك صفحة جليلة خالدة في تاريخ الإسلام، لقد دخلت جيوشه الصين، وكانت عام ٩٣هـ/٧١٢م قمّة مجده الخالد، عندما كانت يمناه في الدَّيْبُل والسِّند، ويسراه في طليطلة والأندلس، وناظراه نحو القسطنطينية.

يعتبر قتيبة بن مسلم الباهلي من أهم القواد الذين اعتمد عليهم الوليد بعد الله عز وجل. كان أبوه مسلم يسابق الخيل، فإذا اشتدَّ جريه، وقف حتى تكاد تسبقه، ثم يجري فيسبقها.

ولد قتيبة في بيت فروسية عام ٤٩هـ/٦٦٩م من قبيلة خاملة الذكر، تبرّأ الناس منها، ويضرب بلؤمها المثل، ولم تزل العرب تصف باهلة باللُّؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خفت عنهم تلك السِّمة وشرفت قبيلته بسبب هذا القائد الفارس قتيبة بن مسلم وبنيه.

يحكى أن أعرابياً لقي شخصاً في الطريق فسأله: "ممَّن أنت؟ فقال: من باهلة، فرثى له الأعرابي، فقال ذلك الشخص: وأَزيدك أني لست من صميمهم، ولكن من مواليهم، فأقبل الأعرابي عليه يقبِّل يديه ورجليه فقال له: ولم ذاك؟ فقال: لأن الله تبارك وتعالى ما ابتلاك بهذه الرَّزية في الدنيا إلاّ ليعوِّضك الجنَّة في الآخرة. إلى هذه الدرجة كان الناس ينظرون إلى هذه القبيلة، وكل هذا تغيّر بعد بروز قتيبة بن مسلم"[3].

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٩، ص١٦٥.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص١٩٠.

[3] ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ط، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج٤، ص٩٠.

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجَّاج بن يوسف الثقفي: "انظر لي رجلاً حازماً ماضياً لأمرك فسمّى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي فكتب إليه: وَلِّه. فصار قتيبة أمير الرَّي ثم أمير خُراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي؛ لأنه كان أمير العراقَيْن وكلَّ ما كان يليهما، فخراسان كانت مضافة إلى الحجَّاج، وكانت تولية قتيبة لخُراسان بعد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة.

كان قتيبة شهماً مقداماً نجيباً فارساً خلوقاً، من مفاخر المسلمين فهو مع بطولته ودماثة أخلاقه، داهيةٌ عظيمُ المكانة، مرهوبُ الجانب، رَوِيٌّ لا يتعجَّل، وراويةٌ للشِّعر عالمٌ به وحسب ابن آدم أن تُعَدَّ معايبه، فلقد كانت فيه حِدَّة واعتداد بنفسه"(١).

ويبقى الإنسان بعمله، يرفعه أو يخفضه، لا بنسبه، ويبقى بمآثره لا بحسبه فقط، فكم من الَّذين لم يملكوا إلاّ شرف الانتساب إلى قبيلة علا ذكرها، وسما صيتها، وذاعت مفاخرها، نسيهم التاريخ؛ لأن هذا الانتساب الوراثي والذي لا فضل فيه للإنسان لم يقرن بجليل الأعمال، وقتيبة من الفاتحين الأبطال الخالدين، ألا يكفيه أنه ما كُسِرت له راية.

ويكفي قتيبة أن ميدان عملياته، كان في منطقة تختلف كلِّيّاً عن طبيعة بيئته، فسار بخطوات بطيئة، ولكنها محسوبة مدروسة، خَطَّط لها بدقِّة، مع وضع عدد من الاحتمالات الممكنة، حسب حسابها، ووضع لها الحلول المناسبة، لذلك بقي الفتح خالداً حتَّى يومنا هذا فيما وراء النهر وشرقي الصِّين، فما أَضرَّت "باهلةُ" بمواهب قتيبة العسكرية، بل رفع قتيبة باهلةَ إلى مكانة سامقة. إنه قتيبة بن مسلم رحمه الله فاتح بلاد ما رواء النهر "سمرقند".

كانت منطقة ما وراء النهر ميدان عمليات قتيبة. ويراد به ما وراء نهر جَيْحُون بخُراسان، فما كان في شرقيِّه يقال له بلاد الهياطلة، وفي الإسلام سَمَّوه ما وراء النهر، وما كان في غربيِّه فهو خُراسان وولاية خُوارزم. وما وراء النهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلةً، وأنزهها وأكثرها خيراً، وأمَّا مياههم فإنها أعذب المياه وأبردها وأخفّها

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٩، ص١٤٢.

قد عمَّت جبالها وضواحيها ومدنها، والثُّلوج من جميع نواحيها. تبعد عن مركز الخلافة قرابة: ٤٠٠٠كم. شتاؤها بارد جداً، قد تصل درجة الحرارة فيها إلى ٢٠ درجة دون الصفر. طرقها وعرة، ففي شرقها على حدود الصين، جبال مرتفعة جداً، تصل قممها إلى ارتفاعات شاهقة تزيد على سبعة آلاف متر. وعواصمها ومدنها الكبرى محصَّنة تحصيناً جيداً. لذا فقد واجه قتيبة مشكلات حقيقية، فبعده عن مركز الخلافة، جعل خطَّ مواصلاته طويلاً جدّاً، وهو يعمل في طبيعة جغرافية جديدة قاسية، فالبيئة الجبليَّة تحمل صعوبة في تحرُّك الجيش بمعدَّاته، وتعرقل طرق تموينه، وتكثر فيها الكمائن، وإذا ذكرت الكمائن ذكرت المباغتات وكثرة المفاجآت، وسهولة الدفاع بعدد قليل من الجند عن موقع حصين منيع.

يقف التاريخ بإجلال تجاه قتيبة، الذي تغلَّب على كلٍّ هذه المعضلات عندما وطَّد الأمن والعدل في خُراسان، فضمن نقطة انطلاق صحيحة سالمة، مع استطلاع دائم، جمع المعلومات الكافية عن بلاد ما وراء النهر، وحشد لهذه العملية أربعين ألف جندي مجاهد، ونظَّم خطوط المواصلات، فسلاح المهندسين المهرة، ضَمِن تذليل صعوبات المواصلات وإزالة العوائق وإقامة المعابر والجسور فوق العوائق المائية الكثيرة، مع مجانيق كبيرة دقيقة الرِّمايات. وكان يكمن في الشتاء بعد تأمين الدِّفء لجنده من حيث اللِّباس والخيام والأخشاب للوقود والطَّعام لهم، والعلف لخيلهم، ليبدأ الجهاد أيَّام فصل الربيع.

إن فتح سمرقند احتاج من قتيبة ثلاثة عشر عاماً منذ انطلق من مرو فوصلها بعد ثلاثة عشر عاماً، لقد كانت الخطوات بطيئة، ولكنها كانت مدروسة فجاءت خالدة باقية.

وصل قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٨٦هـ/٧٠٥م خُراسان والياً، فانطلق مستخلفاً بمرو على الأمور العسكرية "إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الأمور الماليِّة عثمان بن السَّعدي، فلما قطع نهر جَيْحون تلقَّاه ملك تلك المنطقة بهدايا ومفتاح من ذهب، ودعاه إلى بلاده فأتاه فسلَّم إليه بلاده ثم انصرف إلى مرو، وبعد كمون في مَرْوَ طيلة فصل الشتاء، "بدأ قتيبة عمليات عام ٨٧هـ/٧٠٦م مع أوائل الرَّبيع، وفي هذه

السنة قدِم "نيزك" أحد سلاطين تلك المناطق على قتيبة وصالحه على ألاّ يدخلها، وكان في يديه أسرى من المسلمين فأطلق الأسرى وبعث بهم إلى قتيبة، فصالحه على ألاّ يدخل بلادهم"[(١)].

بعدها سار قتيبة من مرو إلى "بِيكَنْد"*، وهي أدنى مدائن بخارى إلى نهر جيحون، يقال لها مدينة التُّجَّار، فلما نزل قتيبة "بساحهم واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير"[(٢)]. "وكان لقتيبة عين من العجم، أعطاه أهل المنطقة مالاً، على أن يرد عنهم قتيبة، فذهب إليه وقال: "أيها الأمير هذا عامل يقدم عليك من قبل الوليد بن عبد الملك يقول: لا تحارب هؤلاء القوم في يومك هذا، فإنك لا تدري كيف يكون الأمر بينك وبينهم! فتبسَّم قتيبة من ذلك، ثمَّ قال: يا عدوَّ الله! وما الَّذي أتاك بهذا الخبر دوني؟ أهذا شيء دبَّرته على أن أصرف جيشي هذا عن التُّرك في يومي هذا؟ ثمَّ قدَّمه قتيبة فضرب عنقه"[(٣)].

رأى المسلمون ما فعل قتيبة به، فراعهم ما فعل بجاسوسه هذا، فقال قتيبة: "أيها الناس مالي أراكم قد راعكم قتله؟ هذا عبدٌ خان الله، وقد كنت أظنه ناصحاً للمسلمين، فعرفت أنه كان غاشّاً لهم، فذروا عنكم ماكان مني إليه، وعليكم بجهاد عدوِّكم، قالوا: إنا كنَّا نظنُّه ناصحاً للمسلمين، قال: بل كان غاشّاً لهم فقد مضى لسبيله، فاغدوا على قتال عدوِّكم، فغدا الناس متأهِّبين، وأخذوا مصافَّهم، ثم تزاحفوا والتقوا واعتصم من دخل المدينة بالمدينة، فسألوا قتيبة الصُّلح فصالحهم، واستعمل عليهم أحد رجاله"[(٤)].

ارتحل قتيبة يريد الرُّجوع إلى مرو، فلما سار مرحلة أو مرحلتين، نقض أهل بيكند عهدهم وقتلوا عامل قتيبة وأصحابه، ومثَّلوا بهم، وبلغ قتيبة الأمر فرجع إليهم وقد

---

(١) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٨.

* بيكند: بالكسر وفتح الكاف وسكون النون، بلدة بين بخارى ونهر جيحون، (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج١، ص٦٣٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٩، ص٧٢.

(٤) انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣١.

تحصَّنوا بمدينتهم، فقاتلهم شهراً، وركَّز على تحصينات المدينة، واستطاع المسلمون بعد استشهاد أربعين منهم خرقها فطلب سكان بِيكَنْد الصلح، فأبى قتيبة وقاتلهم؛ لأن النصر تحقق، فظفر بهم عنوة، فقتل من كان فيها من المقاتلة، وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور هو الَّذي حرَّض التُّرك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي، فقال له سُليم الناصح: ما تبذل؟ قال: خمسة آلاف حريرة صينيَّة قيمتها ألف ألف، فقال قتيبة: ما ترون؟ قالوا: نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كَيْد هذا؟ قال قتيبة: "لا والله لا أروِّع بك مسلماً مرَّة أخرى"، وأمر به فضربت عنقه.

عمَّر أهل بِيكَنْد مدينتهم ثانية بإذن قتيبة، "ونزلوا بها على أنهم يؤدُّون إليه في كل سنة شيئاً معلوماً، فصالحهم على ذلك، وكتب عليهم بذلك كتاباً"[١]، ثم قفل ومن معه يريد مرو، فإذا بطرخان ملك الصُّغد، وملك الترك قد أقبلا في مئتي ألف يريدون قتاله، فرجع قتيبة إليهما، وتمكَّن من الانتصار عليهما.

رجع قتيبة إلى مرو، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في دفع السِّلاح وآلة الحرب الكثيرة التي عثر عليها في بِيكَنْد إلى الجند، فأذن له، وقوي المسلمون بذلك، وتنافسوا في حُسْنِ الهيئة والعُدَّة.

أمضى قتيبة الشتاء في مرو، ليبدأ عملياته الجديدة في أيام الربيع. سار في عُدَّة حسنة وعبر نهر جيحون من زَمْ إلى بُخارى، فأتى "نومشكت" وهي من بخارى فتلقَّاه أهلها، فصالحهم ثم سار إلى "رامثينة" فصالحه أهلها فانصرف عنهم.

وغزا في هذه السنة ٨٨هـ/٧٠٧م ملك الترك وهو ابن أُخت ملك الصِّين، في مئتي ألف مقاتل فكسرهم قتيبة وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً.

عاد قتيبة بجنده إلى مرو لقضاء فصل الشتاء، وفي عام ٨٩هـ/٧٠٨م سار إلى بخارى، ولكنه لم يحقِّق نصراً حاسماً، فرجع إلى قاعدته مرو، وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صَوِّرْها لي، فبعث إليه بمخطط يوضِّح موقعها والتضاريس المحيطة

---

[١] الكوفي، أبي محمد أحمد بن أعثم (ت: ٣١٤هـ/٩٢٦م): الفتوح ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٧-٨، ص١٦٤.

والمؤدية إليها، فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى بخارى، فتب إلى الله تعالى مما كان منك، ثم رسم له المكان المناسب لاقتحامها، وقال: وإيَّاك والتَّحويط ودعني وثنيات الطُّرق.

سار قتيبة عام ٩٠هـ/٧٠٩م إلى بخارى مرة ثانية، فأرسل ملكها يستنصر من حوله، ولكن قتيبة استطاع فتحها هذه المرة، ولما فتحها استأذنه نيزك طرخان في الرُّجوع إلى بلاده، وكان نيزك قد أسلم وسمِّي بعبد الله فأذن له، فرجع إلى طُخارِستان، فعصى وكاتب من حوله، وجمع الجموع، فزحف إليه قتيبة، حتى تمكن منه. واستشار قتيبة الأمراء في قتله فاختلفوا عليه، فقائل يقول: اقتله، وقائل يقول: لا تقتله، فقال له بعض الأمراء: إنك أعطيت الله عهداً أنَّك إن ظفرت به لتقتلنّه، وقد أمكنك الله منه، فقال قتيبة: والله، إن لم يبقَ من عمري إلاّ ما يسع ثلاث كلمات لأقتلنَّه، ثم قال: اقتلوه، فقُتِل، جزاء غدره ونقضه الصلح[1].

وفتح في عام ٩١هـ/٧١٠م شُومان. وكان ملك شُومان يقول: أنا أمنع الملوك حصناً، وأشدُّ الناس رمياً، فما أخاف قتيبة، فمضى قتيبة من بَلْخ فعبر النهر، ثم أتى شُومان وقد تحصَّن ملكها، فوضع قتيبة المجانيق تجاه سورها، ووضع منجنيقاً كان يسميها الفَحْجاء، فرمى العاملون عليها بأوَّل حجر فأصابوا السور، ورموا بآخر فوقع في المدينة، ثم تتابعت الحجارة في المدينة، فوقع حجر منها في مجلس الملك، فأصاب رجلاً فقتله. بعدها هشَّمت المجانيق أسوار القلعة ففتحت عنوة.

وتوقع أهل سمرقند أنه سيرتاح كعادته في ربيع القابل فجاءه رجل يُسمى "المجشَّر بن مُزاحم السُّلَمي" وأشار عليه فقال: إن أردت الصُّغْد - يعني سمرقند - يوماً من الدهر فالآن، فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام، فاستحسن الرأي، فلما أصبح من الغد، دعا أخاه عبد الرحمن وقال له: سِرْ في الفرسان وقدِّم الأثقال إلى مرو، وسِرْ في الفرسان نحو سمرقند واكتم الأخبار فإني بالأثر.

نادى في الناس فجمعهم، ثم ندبهم إلى المسير إلى سمرقند، وخطبهم فقال "إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقتٍ الغزو فيه ممكن، وهذه سمرقند شاغرة برِجْلها، قد نقضوا

---

[1] انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣٦-٤٥٨.

العهد الذي كان بيننا، منعونا ما كنّا صالحنا عليه طرخون، وصنعوا به ما بلغكم، وقد قال الله تعالى: (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)[١]، فسيروا على بركة الله، فإني أرجو أن يكون خُوارزم وسمرقند كالنَّضير وقريظة، وقد قال الله تعالى: (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا)[٢].

عبر عبد الرحمن ومن معه النهر، وسار إلى سمرقند، وعبر قتيبة بالأثر ومن معه نهر جيحون، وحوصرت سمرقند. وسمرقند مدينة مرتفعة يشرف النَّاظر بها على شجر أخضر وقصور تزهر، وأنهار تَطَّرِد[٣].

استنجد ملك سمرقند بعد خوفه من طول الحصار بملك الشَّاش، وبملك فَرْغانة وكتب إليهما: "إنَّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتَوْنا به، فانظروا لأنفسكم"، فأجمع ملك الشَّاش وملك فَرْغانة على نجدة أهل سمرقند، وأرسلا أن شاغِلُوا قتيبة ومن معه كي نفاجئهم على حين غرَّة، وانتخب أهل الشَّاش وفَرْغانة كلَّ شديد السَّطوة من أبناء الملوك والأمراء والأشدَّاء الأبطال وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة، ليفاجئوه، ولكن استطلاع قتيبة دائم ويقظ، فجاءته الأخبار بما عزم العدو عليه.

وانتخب قتيبة ستمائة من أهل النَّجدة، وجعل عليهم أخاه صالحاً أميراً، ووضع قتيبةُ عيوناً على العدوِّ حتَّى إذا قَرُبوا منه قَدْرَ ما يصلون إلى عسكره من الليل أدخل الذين انتخبهم، فكلَّمهم وحَضَّهم، فخرجوا من العسكر عند المغرب، فساروا ونزلوا على فرسخَيْن من العسكر على طريق القوم الذين وصفوا لهم، ففرَّق صالح خيله، وأكمن كميناً عن يمينه، وكميناً عن يساره، حتَّى إذا مضى نصفُ الليل أو ثلثاه، جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت، وصالحٌ واقفٌ في خيله، فلما رأوه شدُّوا عليه، حتى إذا اختلفت الرِّماح، شدَّ الكمينان عن اليمين وعن الشمال، و لم يفلت إلاّ النَّفر اليسير، وغنم

---

[١] سورة الفتح، الآية: ١٠.

[٢] سورة الفتح، الآية: ٢١.

[٣] انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٦١-٤٧٢.

المسلمون أسلحتهم، وقال بعض الأسرى: تعلمون أنَّكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلاّ ابن ملك، أو بطل من الأبطال المعدودين بمائة فارس، أو بألف فارس.

منع قتيبة بهذا الكمين وصول النَّجدات إلى ميدان المعركة بكمين ليلي والقيام بحركة خاطفة ليليَّة للقضاء على أرتال النَّجدات في معركة ليليَّة، في الوقت الذي يكون الكمين قد أوقف تقدُّمها. نصب قتيبة المجانيق حول سمرقند، ورمت بتركيز دقيق على سور المدينة، فَثَلَمَت فيها ثُلْمة، فرمَّمها المدافعون عنها بسرعة كبيرة، وجاء رجل قام على الثَّلْمة، فشتم قتيبة بعربية فصيحة، فرماه بعض الرماة فقتله، فأعطاه قتيبة عشرة آلاف[1].

طلب ملك سمرقند منازلة الجيش العربي دون غيرهم، فميَّز قتيبة العربَ من العجم، وأمر العجم باعتزالهم، وقدّم الشُّجعان من العرب وأعطاهم جيِّد السِّلاح وزحف بالأبطال على المدينة، ورماها بالمجانيق، فَثَلَم فيها ثُلْمة، وقال قتيبة: "ألحوا عليها حتَّى تعبروا الثُّلْمة، فقاتلوهم حتَّى صاروا على ثلمة المدينة، عندها قال الملك لقتيبة: ارجع عنَّا يومك هذا ونحن نصالحك غداً، فقال قتيبة: لا نصالحهم إلاّ ورجالنا على الثُّلمة، ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم. وفي اليوم التالي والمسلمون على الثُّلْمة عاود الملك يطالب بالصُّلح، فصالحه قتيبة على: الجزية، وتحطيم الأصنام وما في بيوت النِّيران، وإخلاء المدينة من المقاتلة، وبناء مسجد في المدينة ووضع منبر فيه. استلم قتيبة ما صالحهم عليه، وصلّى في المسجد الَّذي حدَّد مكانه وخطب فيه، وأتى بالأصنام، وأُلقيت بعضها فوق بعض. حتى صارت كالقصر العظيم، ثمَّ أمر بتحريقها، فتصارخ الأعاجم وتباكوا وقالوا: إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، وجاء ملك سمرقند فنهاه عن ذلك، وقال لقتيبة: أيُّها الأمير، إنِّي لك ناصح، وإنَّ شكرك عليَّ واجب، لا تَعرِض لهذه الأصنام، فقام قتيبة، ودعا بالنَّار، وأخذ شعلة بيده، وقال: أنا أحرقها بيدي، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون، وسار إليها وهو يكبِّر الله عز وجل، وألقى فيها النَّار

[1] انظر، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٢١٦-٢١٧.

فاحترقت، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال"[١].

ارتحل قتيبة عن سمرقند إلى مرو، وهو يردد قوله تعالى: (وَأَنَّه أَهْلَكَ عَاداً الأُولى، وَثَمُودَ فما أَبْقَى)[٢] مستخلفاً على المدينة أخاه عبد الله، وخلّف عنده عدداً من الجند كبيراً، وآلة من آلة الحرب كثيرة، مع تعليمات حازمة تتعلَّق بالدَّاخلين إلى سمرقند والخارجين منها. انتهى قتيبة من فتح سمرقند واخضاعها لحكم المسلمين عام ٩٣هـ/٧١٢م.

"وغزا عام ٩٤هـ/٧١٣م قتيبة الشَّاش وفَرْغانة اللذين ساعدا ملك سمرقند وتم له ذلك، وكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أثناء ذلك "أن توَجِّه بمنْ قِبَلكَ من أهل العراق إلى قتيبة؛ لأنه القائد الحقيقي للجبهة الشرقية بفرعيها: الشمالي فيما وراء النهر بقيادة قتيبة، والجنوبي في حوض السند بقيادة محمد بن القاسم، وحثهم على غزو الصين وأيهم سبق فهو عامله عليها"[٣].

توفي الحجاج عام ٩٥هـ/٧١٤م فجاء كتاب من الوليد بن عبد الملك يقر قتيبة على البلاد التي فتحها ودعا له، وحثه على مواصلة الجهاد والفتح.

أعلن قتيبة عام ٩٦هـ/٧١٥م النَّفير العام؛ لأنه قرَّر العبور من فَرْغانة إلى الصين ضمن الخطة التي رسمها الحجاج والذي خاطب قتيبة وابن القاسم بقوله: "أيّكما سبق إلى الصين، فهو عامل عليها وعلى صاحبها"[٤]. فأعلن قتيبة التَّعبئة العامة، وقال: "لا يجوزنَّ أحد النهر عائداً إلى مرو إلاّ بجواز"[٥]، أي بإذن رسمي خطِّي يؤهله العودة مما وراء النهر إلى مرو.

---

[١] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٧٥-٤٧٦.

[٢] سورة النجم، الآية: ٥٠-٥١.

[٣] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٨٣.

[٤] اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م، ج٢، ص٢٨٩.

[٥] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٥٠٠.

مضى قتيبة وجنده إلى فَرْغانة، وأرسل سلاح المهندسين ليسهلوا له الطريق إلى كَاشْغَر وهي أدنى مدائن الصين. فتح قتيبة مدينة كاشغر، وعبر بذلك نهر سَيْحُون، النهر الذي يشكل الحد الطبيعي بين الفرس والترك، وبين المغول، وعبور قتيبة له كان أول تحدٍّ مباشر من العرب المسلمين للشعوب المغولية(١).

طلب إمبراطور الصين بعد فتح كاشغر وفداً يمثّل قتيبة، وكتب إلى قتيبة كتاباً جاء فيه: "ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونُسائله عن دينكم"، فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً من أفناء القبائل، لهم جَمال وأجسام وألسُن وشُعور وبأس، بعدما سأل عنهم فوجدهم مِن صالح مَن هم منه، فكلَّمهم قتيبة وفاطنهم فرأى عقولاً وجمالاً، فأمر لهم بعُدَّة حسنة من السلاح والمتاع الجيِّد من الْخَزِّ والوَشْي واللَّيِّن من البياض والرَّقيق والنِّعال والطيب، وحملهم على خيول مطهَّمة تُقادُ معهم ودواب يركبونها. وكان هبيرة الكلابي مفوَّهاً بسيط اللسان، فقال قتيبة: ياهبيرة، كيف أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير! قد كُفيتَ الأدبَ وقل ما شئتَ أقله، وآخذ به، قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لاتضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلمُوه أني قد حلفتُ ألاّ أنصرِفَ حتى أطأَ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم"(٢).

سار الوفد وعليهم هبيرة، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم فدخلوا الحمَّام، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل، ثم مَسُّوا من الطيب وتدخَّنوا ولبسوا النِّعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا فلم يكلِّمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا، فقال الملك لمن حَضَره: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوماً ما هُمْ إلاّ نساء ما بقي منَّا أحد حين رآهم ووَجَد رائحتهم إلاّ اشتهى النساء. فلما كان الغد، أرسل إليهم فلبسوا الوشيَ وعمائم الخزَّ والمطارِف، وغدَوْا عليه فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا، فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة

---

(١) انظر، ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٩، ص١٤١.

(٢) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٥٠١.

الرجال من تلك الأُولى، وهم أولئك. فلمّا كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البَيْض والمغافِرَ، وتقلَّدوا السيوف، وأخذوا الرِّماح، وتنكَّبوا القِسيَّ، وركبوا خيولهم، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مُقْبِلَة، فلَّما دنوا ركّزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين، فقيل لهم قبلَ أن يدخلوا: ارجعوا لِمَا دخل قلوبهم من خوفهم. فانصرفوا فركبوا خيولهم، واختلجوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط، فلمَّا أمسى أرسل إليهم الملك، أن ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلكم رجلاً، فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم مُلْكي، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم منِّي، وأنتم في بلادي، وإنّما أنتم بمنزلة البيضة في كفِّي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم، قال: سَلْ، قال: لِمَ صنعتم ماصنعتم من الزيِّ في اليوم الأول والثاني والثالث؟.

قال هبيرة: أمَّا زيُّنا في يومنا الأول فلباسنا في أهالينا، وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أُمراءنا، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدونا، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا، قال الملك: ما أحسن ما دبَّرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حِرصَه وقلَّة أصحابه، وإلاّ بعثتُ عليكم من يُهلككم ويهلكه، قال له هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أوَّل خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟! وأمّا تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتلُ، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فقال الملك: فما الذي يُرضي صاحبك؟ قال هبيرة: إنه قد حلف ألاّ ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطى الجزية.

قال الملك: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، ثم دعا بصِحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قتيبة الجزية، وختم الغِلْمة وردَّهم، ووطيء التراب، فقال سوادةُ بن عبد الله السَّلُولي وكان شاعراً:

لا عيبَ في الوَفْدِ الذينَ بعثتَهُم   للصِّين إن سلكوا طريقَ المنهجِ
كسَرُوا الجفونَ على القذى خوفَ الرَّدى   حاشا الكريم هبيرةَ بن مُشَمرَجِ
لم يرضَ غيرَ الختمِ في أعناقهم   ورهائنٍ دُفعت بحملِ سَمَرَّجِ *
أدَّى رسالتك التي استَرعَيتَه   وأتاك من حنث اليمين بمخرجِ

وبعد فتح كاشغر جاء إلى قتيبة خبر موت الوليد بن عبد الملك فانكسرت همَّته لذلك.

توفي الوليد عام ٩٦هـ/٧١٥م، وتسلَّم سليمان الخلافة من بعد أخيه، ولم يكن قتيبة على وفاق مع سليمان بن عبد الملك فعزله عن ولاية خراسان. فقام بعض من كان يكره قتيبة واستغل هذا الموقف فقطعوا حبال خيمته عليه، وقتلوه مع عدد من إخوته: عبد الرحمن، وعبد الله، وصالح، وحُصَين، وعبد الكريم، وعدد من أهل بيته[١].

انتهت بهذه النهاية المأساوية صفحة من صفحات تاريخ طويل في الجهاد والفتح. فقتيبة قائد بارع، عبقريٌّ فذّ، إداريٌّ متميز، فحل ولاة الدولة الأموية، لم يُعرف منه لهو أو جمع لمال، وعُرفت منه الشجاعة في أعلى درجاتها، والثقة بالنفس والاعتزاز بها في أسمى صورها.

نشر قتيبة الإسلام وشجع سكان ما وراء النهر على اعتناقه، خصوصاً بعدما أسكن العرب المسلمين المدن الهامة، فتعرَّف السكان على الإسلام من سلوك المسلمين أنفسهم عن طريق المخالطة اليومية، وخصوصاً عندما حرَّق الأصنام أمام أعين السكّان ولم يصبه أذى من تحطيمها وإحراقها، واعتناق الإسلام الذي رافق الفتح، باقٍ إلى يومنا هذا خالد، يعتزُّ به أبناء تلك المناطق، ولا ننسى أن شعوب ما وراء النهر شاركت بعد استقرارها واستتباب الأمن فيها وبناء المساجد والمدارس، في الحضارة الإسلامية بأحسن ما تكون المشاركة، فأسماء كبيرة لامعة سطعت في سماء الإنسانية جمعاء، بفضل هذا الدين

* السّمرّج والسّمرّجة: استخراج الخراج في ثلاث مرات، فارسي معرّب، وقيل: السّمرّج يوم جباية الخراج. (لسان العرب، ابن منظور: ج٢، ص٣٠٠).

[١] انظر، ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٥٠٦-٥١٦.

وفتح تلك البلاد مثل: البخاري والخوارزمي والرازي والنَّيسابوري والبيروني والفـــارابي والغزالي والطبري وغيرهم كثير.

رحم الله قتيبة بن مسلم الباهلي، وجعله في علِّيين، لقد كان من نخبـــة الأمـــراء وخيارهم، ومن القادة النجباء الكبار، والفاتحين الشجعان، ومع هذه الـــصفات الرفيعـــة كان يعلم أن النصر من عند الله تعالى أولاً وأخيراً.

رحم الله فاتح بلاد ما وراء النهر، قتيبة بن مسلم الباهلي، أول أمير مسلم وطئت أقدام جنده أرض الصين، والقائد الذي ما هُزمت له راية مع إدارة ناجحـــة، حـــتى إن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند من غير جوار. توفي قتيبة رحمه الله تعالى في قمَّة مجده، وهو في الخامسة والأربعين من عمره. وتتعجب من الجنود الفاتحين الذين كانوا معـــه في فتح سمرقند، جاؤوا من بيئة حارَّة في شبه جزيرة العرب والكوفة والبصرة، إلى بيئة باردة ثلجيَّة في خُراسان وما وراء النهر، كيف تأقلموا؟ وكيف عملوا في هذا المناخ المغاير كليّاً لمناخ مساقط رؤوسهم وبيئتهم؟.

ولكن لا عجب إذا عرفنا أن هذا الدين يغيِّر من الناس فيجعلهم غير الناس.

هـــ- فتح السند:

كانت سوق الجهاد قائمة في بني أميَّة، ليس لهم شغل إلاّ ذلك، قد علت كلمـــة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرِّها وبحرها، وقد أذلُّوا الكفر وأهله، وليس هذا بغريب على بني أمية الذين جعلوا الجهاد في سبيل الله تعالى ومنابذة أعدائه ومحاولة إيصال الدين والحق والعدل إلى الأمصار كافة من أهم أعمالهم.

و لم تكن شبه القارة الهندية مجهولة للعرب في عصر ما قبل الإسلام، إذ كانـــت تجارها تمرُّ بالأرض العربية عن طريق البحرين، فالعراق إلى سواحل بلاد الشام ومصر، أو عن طريق اليمن ثم إلى مصر وبلاد الشام. وعرف العرب منذ القديم الهند وأحوالها عـــن طريق تجارهم، نزلوا على سواحلها الغربية، واختلطـــوا بأهلـــها ليعـــودوا إلى بلادهـــم مندهشين بما رأوا من ثراء الهند الطائل، وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات، ونفـــيس المعادن والمنسوجات. وكان للفرس نفوذ قديم في بلاد الهند، وقد اشتهرت بـــلاد الهنـــد

بأنهارها العظيمة الضخمة. وشبه القارة الهندية تضم اليوم ثلاث جمهوريات: باكستان وبنكلادش والهند، وهي كتلة بالغة الضخامة من اليابسة، تصل مساحتها إلى المليونين من الأميال المربعة، أي ما يزيد على نصف مساحة القارة الأوروبية، فيها تمثيل لمختلف عروق الإنسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم. وفيها أنواع الأجواء المتباينة من الصقيع وثلوجه في الهملايا ومرتفعاتها بالشمال، إلى قيظ المناطق الاستوائية وشواظها بأقصى الجنوب، وليس بغريب على الجحافل الإسلامية أن تخوض غمار هذه المناطق المختلفة وتتكيف معها، وتخضعها بعد ذلك لحكم الله تعالى.

ولّى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعُمان عام خمس عشرة للهجرة، فوجَّه أسطولاً إلى سواحل السِّند. وفي خلافة عمر رضي الله عنه أرسل أمير العراق أبو موسى الأشعري رضي الله عنه "الرَّبيع بن زياد الحارثي" بالخيل والفرسان والعتاد إلى مكران وكرمان للاطلاع على أحوال الهند.

وكان أوَّل من فكَّر جدِّياً بالفتح في السند، الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، عندما سار ملك السند إلى مكران واشتبك فيها مع القوات الإسلامية التي كانت تحت قيادة "الحَكَم بن عمرو التَّغلبي، فطلب عثمان رضي الله عنه من عبد الله بن عامر أمير البصرة عام ٢٩هـ/٦٥٠م إرسال عاقلٍ حكيمٍ عفيفٍ يستطلع أحوال السند والهند فأرسل عبد الله بن عامر "حُكَيْمَ بن جبلة العبدي".

وفي خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أواخر عام ثمان وثلاثين، وأول سنة تسع وثلاثين توجَّه إلى السِّند ابن الحارث بن مرَّة العبدي متطوِّعاً بإذن علي رضي الله عنه، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً، وقسّم في يوم واحد ألف رأس، ثم إنه قُتل ومن معه هناك ولم ينجُ إلا القليل من تلك السريّة، وكان مقتله عام اثنتين وأربعين للهجرة[١].

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وصل المهلب بن أبي صفرة أرض السند عام أربع وأربعين للهجرة، ويمكن اعتبار هذه الحملة أول حملة كبيرة نسبياً سلكت الطريق البريّ في محاولة جديّة لفتح الهند، ولكنها لم تنجح النجاح المطلوب في ضم جزء

[١] انظر، البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٠-٤٢١.

من الهند إلى بلاد المسلمين وترسيخ أقدامهم فيها، ولكنها نجحت في مهمتها الاستطلاعية.

وفي خلافة عبد الملك بن مروان ولي ثغر السند الحكم بن المنذر، أمَّا في خلافة الوليد بن عبد الملك، فقد أرسل ملك جزيرة الياقوت سفينةً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق، محمَّلة بالتُّحف والهدايا من الدُّرِّ والياقوت والجواهر الثمينة والعبيد، مع نسوة ولدن في بلاده مسلمات، ومات آباؤهن وكانوا تجّاراً، فأراد التَّقرب بهنّ إلى قطب العالم آنذاك ومحوره، فأرسل إلى دار الخلافة بدمشق إضافة إلى ذلك، تحفاً وطرائف مكنونة لا نظير لها، كما كان هدف النساء المسلمات زيارة بيت الله الحرام، ومشاهدة معالم دار الخلافة الإسلامية. وهبَّت رياح عاتية فقذفت بالسفينة إلى سواحل "الدَّيْبُل"* من أرض السند حيث كان يقطنها مجموعة من القراصنة، فهاجموا السفينة وقتلوا بعض ركّابها وبحَّارتها، وأخذوا الباقين من النساء والرجال والأطفال أسرى، كما سلبوا جميع الموجودات من التحف والجواهر والأموال، فصاحت امرأة من بين الأسرى: يا حجَّاج، يا حجَّاج، أغثني أغثني، وكانت هذه المرأة من بني يربوع، وفرَّ بعض التُّجار، وعدد من الذين كانوا على متن تلك السفينة، وجاء بعضهم إلى الحجاج وذكروا له ما حدث مع استغاثة تلك المرأة به فقال لبيكِ لبيكِ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك رسالة يطلب فيها الأمر بغزو السِّند والهند، ولكن الوليد لم يأذن له بذلك فكتب الحجاج رسالة ثانية مكرِّراً طلبه، فوافق الوليد بعد ذلك، وأعلم الحجاج أنه أصبح مشرفاً على الفتح في تلك البلاد، فعيَّن الحجاج ابن أخيه القائد البطل "محمد بن القاسم الثقفي" أميراً على هذا الجيش الذي سيفتح بإذن الله تعالى بلاد السند، وقبله سيؤدب قراصنة الديبُل على جرمهم وإفسادهم[1].

* الديبل: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند، وهي أكبر فرضة، وإليها تفضي مياه لهور وملتان فتصب في البحر الملح. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٢، ص٥٦٣).

[1] انظر، البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٢-٤٢٣.

كتب الحجاج إلى الوليد يطلب منه إرسال ستة آلاف مقاتل بعدتهم الكاملة من السلاح والعتاد من أشراف الشام وأبنائهم الذين تربُّوا في كنف آبائهم وهم على قيد الحياة تربية صالحة، ليكونوا مع محمد بن القاسم في حربه في بلاد السند، وليتشرفوا بالجهاد في سبيل الله.

وقف الحجاج في جموع المجاهدين خطيباً وقال: "إن الأيام ذات دول، والحرب سجال، يوم علينا ويوم لنا، فعلينا أن نصمد في اليوم الذي هو علينا، ونشكر الباري عزَّ وجل في اليوم الذي هو لنا، حتى يزيد الله النعمة علينا، وعلينا أن نذكر الله عزَّ وجلَّ ونشكره على نعمائه وآلائه، وإن نعم الله أبوابها مفتوحة لنا، ولن يُغْلَقَ أيُّ باب بوجهنا ما دمنا مع الله وفي سبيل الله"[١]. ولَّما أنهى الحجَّاج خطبته، أركب بنفسه محمد بن القاسم فَرَسَه، ووزَّع الصدقات على الفقراء، والأعطيات للناس، وبارك لمحمد بن القاسم جهاده وسفره وترحاله، وقال له: "اخرج من طريق شيراز، واطوِ المنازل واحداً تلو الآخر"[٢].

سيَّر الحجاج محمد بن القاسم عام ٩٢هـ/٧١١م، وأمره أن يقيم بمدينة شيراز من أرض فارس كي يلتحق به جند العراق والشام. "وصل محمد بن القاسم إلى شيراز، وعسكر بظاهرها والتحقت به الإمدادات تباعاً"[٣]، وأمر الحجاج بجمع كلِّ ما هو موجود من المنجنيقات والسهام والرماح، ووضعها في السُّفن الحربيَّة، وكان الحجاج قد أمر الخيَّاطين بصنع رؤوس السِّباع والفِيَلَة، حتَّى يرسلها إلى جيش محمد بن القاسم ليرهب بها الأعداء، وبعد استكمال الاستعدادات في شيراز، ووصول توجيهات الحجاج، انطلق محمد بن القاسم بطل هذا الفتح شرقاً نحو بلاد السند.

---

[١] البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٤.

[٢] الكوفي، علي بن حامد بن أبي بكر (ت: ٦١٣هـ/١٢١٦م): فتح السند، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٣٧٠.

[٣] اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٨.

يعد محمد بن القاسم من كبار القادة، ومن رجال الدهر في دولة بني أمية، ولــد عام ٧٢هـ/٦٩١م، وكان أبوه واليَ البصرة للحجَّاج، وقد عُرف محمد منـذ طفولتـه بالنُّبوغ، ولم يقارن بأترابه من الفتيان، انطلق بجيش الفتح شرقاً، حتى وصل ظاهر مدينة مُكران، فجاءت رسالة من الحجَّاج لابن القاسم، تضمنت وصايا حربية هامة يقول فيها: "إذا وصلتم إلى منازل الديبُل وسوادها، احذروا تلك المنازل واحفروا الخنـادق أينمـا وصلتم؛ لأنها ستكون ملاذاً وحماية لكم، وكونوا يقظين، وعليكم بتلاوة القرآن الكـريم والإكثار من الدعاء، واذكروا الله دائماً على لسانكم، واطلبوا النصر من عند الله تعـالى حتّى ينصركم بعونه، وقولوا كثيراً: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليِّ العظـيم، وعنـدما تصلون إلى سواد الديبُل، احفروا الخندق بعرض اثني عشر ذراعاً، وبعمـق سـتة أذرع وعندما تقاتلون العدو كونوا هادئين، وإذا رفع الأعداء عقيرتهم بالصِّياح والقول البذيء، وخرجوا للقتال لا تقابلوهم ولا تقاتلوهم حتَّى أخبركم بذلك ضمن رسائلي، تصرَّفوا بما أمليه عليكم حتَّى تتكلَّل مهمَّتكم بالنجاح والتوفيق إن شاء الله تعالى"[١].

سار محمد بن القاسم ورتب جيشه إلى مقدِّمة ومؤخِّرة، وميمنة وميسرة ووصلت السفن محمَّلة بالسِّلاح والرِّجال، ومعهم رسالة من الحجاج إلى ابن القاسم، يؤكِّد فيهـا ضرورة حفر الخنادق، ويذكر فيها أنَّه أَلحَق بجيشه كبار الأعيان والأشراف. "نزل محمد بن القاسم في سواد الديبُل، وحفر الخنادق، ورفع الرايات والأعلام، ونصب المنجنيقات، ونصب منجنيقاً عظيماً يعرف بالعروس كان يمده بالحجارة خمسمائة رجل"[٢]، وكـان وسط الديبُل معبد كبير للأصنام ارتفاعه أربعين ذراعاً، تتوسَّطه قبَّة عالية سعتها أربعـون ذراعاً، ترفرف عليها راية خضراء ارتفاعها مثل ارتفاع القبة، وكان للرّاية أربعة ألـسن تتطاير في الهواء. دعا محمدُ بن القاسم "جعونةَ السَّلمي"، أمير جند منجنيق العروس، وقال له: "إذا أمكنك أن تكسر رأس معبد الأصنام هذا، وعمود الرَّاية التي ترفـرف فوقـه، أعطيتك عشرة آلاف درهم، فقال جعونة له: إنَّ المنجنيق هو منجنيق الخلافة، وسـوف

---

[١] الكوفي، علي بن حامد بن أبي بكر: فتح السند، مصدر سابق، ص٣٧٥.

[٢] البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٤.

أطلق على عمود الرَّاية الحجارة وأكسره بإذن الله، فقال محمد بن القاسم: وإذا لم تكسره فماذا يكون شرطك؟!. قال جعونة: إذا أخطأت فاقطع يدي"[١].

وجاءت رسالة من الحجاج قبيل الهجوم يقول فيها: "إذا بدأ العدو الحرب فاجعلوا الشمس خلفهم حتَّى تردُّوا الخصم، وإذا أراد أحد من أهل السند الأمان فأعطوه الأمان أمَّا أهالي الدَّيبُل من المقاتلين والقراصنة فلا تعطوا الأمان لأيٍّ منهم"[٢].

استدعى ابن القاسم في اليوم المحدد للهجوم جعونة المنجنيقي، وأعطاه الإذن ببدء الهجوم بعد أن تهيأ الجيش للقتال، وبدأ جعونة الرمي وكبَّر المسلمون بصوت هادر حينما طارت راية المعبد مع قِسم من قاعدته وساريته من الحجر الأول الذي أطلقه جعونة بعد تصويب دقيق، ثم رمى جعونة الحجر الثاني فأصاب قبَّة المعبد فانهارت تماماً، وفي الحجر الثالث أصبح أنقاضاً مع الأرض سواء. بعدها قُرِعت الطبول، وبدأ هجوم الجيش هجمة واحدة، وتقدَّم ألفٌ من خيَّالة أهل البصرة، وارتفع هتاف الفتح الخالد، ونشيد المجاهدين الذين يعشقون الشهادة في سبيل الله: "الله أكبر"، وما هي إلاّ سويعات ويثلم منجنيق العروس بتسديدات من جعونة الدَّقيقة الناجعة، ثلمات في سور الديبُل، فوصل المجاهدون المسلمون إلى أعلى السور وأبراجه، ثم أمر بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال الأبطال، وكان أولهم صعوداً رجل من بني مراد من أهل الكوفة وفُتِحَت الديبُل عنوة، والتزم محمد بن القاسم بمواثيقه وعهوده التي أبرمها مع السُّكَّان قبل الفتح، فدعا الكاهن البرهمي الذي أعطاه الأمان، وسأله عن الأسرى المسلمين من النساء والرِّجال الذين اختطفهم القراصنة فسار مع عدد من الجند المسلمين إلى سجنهم، وفُتِحَ السجن، وأُطلق سراحهم وأُدخل مكانهم في السجن بعد سويعات مجموعة من قراصنة الديبُل، الذين قطعوا الطريق على تلك السفينة ونهبوا ما كان فيها من الهدايا والأموال ليجنوا ما قدَّمت أيديهم من البغي والعدوان، وبنى ابن القاسم في الديبل مسجداً، فكان أول مسجد في هذه المنطقة. وبعد فتح الديبُل سيَّر محمد بن القاسم المجانيق بالسفن إلى حصن آخر يسمى

(١) الكوفي، علي بن حامد بن أبي بكر: فتح السند، مصدر سابق، ص٣٧٩.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٦.

حصن "النيرون"، عَبْر مياه نهر السِّند، وموقعها حيدر آباد الحالية فعلم "داهــر" أحـد سلاطين تلك البلاد بنصر المسلمين وبمسيرهم لفتح السند كلها، فأرسل رسالة تهديد لابن القاسم، وهدَّده بقوة جيش ابنه الذي سيُفني جيش ابن القاسم، فهو يملك مائةً من الأفيال وسيركب الفيل الأبيض الذي لم ولن يقوى على مقابلته فرس ولا فارس(١).

تخيَّر محمد بن القاسم أفضل معابر نهر مهران، وأرسل داهر ابنه على رأس جيش من المقاتلين الأشدَّاء كي يتصدى المسلمين ويمنعهم من عبـور النـهر. وخـلال فتـرة المراسلات والاستعدادات والتوقف خمسين يوماً، نفـدت أرزاق المـسلمين وأقـواتهم، وكذلك قلّت أعلاف الخيل والدَّواب الأخرى التي كان يستخدمها الجيش الإسـلامي، ونَفَقَ عددٌ من الخيل بعد إصابتها بالجذام، واشتكى الجيش من قلّة الغذاء، فاضطر الجنـد إلى أكل لحوم الخيل المريضة، وعلم داهر بذلك، ففرح فرحاً شديداً وأرسل مبعوثاً إلى ابن القاسم يسخر منه، ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاده، ومنَّاه بإرسال الطعام والأعـلاف إن قرَّر الرجوع والإقلاع عن الفتح، فأجابه ابن القاسم: "إننا لسنا من الذين يرجعون عـن عزمهم وتصميمهم، وإني لأطمع بإرسال رأسك إلى العراق بعون الله تعالى"(٢).

أرسل الحجاج على الفور أَلفَيْ حصان، وبعد تدارك النقص في الغذاء والأعلاف، خصوصاً حينما جاء تُجَّار المنطقة لبيع الأعلاف والغلال لجيش المسلمين، تهيأ المـسلمون للعبور. وعندما تأكد محمد بن القاسم أن مقدمة جيشه قد وصلت إلى المعبر، وأنَّ الطُّرق ضبطت تماماً، قام وتجوَّل على ضِفة نهر مهران بنفسه، ليرى أفضل وأضيق مكان للعبور، ثم أمر بإحضار السفن وربط بعضها ببعض ليصنع منها جسراً للعبور، ونجح في العبـور وكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك.

سار محمد بن القاسم ونزل بجيشه على مقربة من النهر، وعلم داهـر بـاقتراب جيش المسلمين منه، فأمر أحد قادته بالتَّوجه لقتال محمد بن القاسم. تقدَّم جيش داهـر والتحم الجمعان من بداية الصباح وحتى وقت متأخر من المساء، وقُتل عدد من الفرسان

---

(١) الكوفي، علي بن حامد بن أبي بكر: فتح السند، مصدر سابق، ص٣٨٣.

(٢) المصدر سابق ذاته، ص٤١٩.

الأبطال الشجعان من الجانبين، ثم تراجع كلٌّ إلى موضعه، وعملت الفيلة عملها في الأيام الأولى للمعركة، وقيل كان عددها مئة فيل وكان داهر على أكبرها، وقد لبس سابغة القتال من الزَّرد، وخوذة من الحديد، ودرعاً من الفولاذ، وبجانبه اثنان من عبيده، أحدهما يُعِدُّ الرماح والسهام والثاني يقدمها إليه. وفي اليوم الرابع للقتال قدَّم محمد بن القاسم خيرة فرسانه، وقام خطيباً فيهم فقال: "إذا فزتُ بالشهادة فإن أميركم محرز بن ثابت، وإذا فاز محرز بالشهادة، فإن أميركم سعيد". وفي اليوم الخامس للقتال، ردَّ المسلمون الفيلة، وشتتوا شملها. وفي يوم الخميس العاشر من شهر رمضان المبارك عام ٩٣هـ/٧١٢م -ولعله اليوم السادس للقتال- تقدَّم جيش داهر، وداهر على فيل عظيم تحيط به الفيلة وقرَّر أن يحسم المعركة لصالحه، بعد أن عبّأ جيشه تعبئة محكمة، جاعلاً على الميمنة والميسرة سلسلتين من الفيلة، وأعاد ابن القاسم تعبئة جيشه، وجعل الفرسان ثلاثة أقسام متساوية كلٌّ ثُلث منها في الميمنة والميسرة والقلب، وعَدَدٌ في السَّاقة لحماية الجيش وجعل ثلاثمائة رجل وحملة مشاعل النفط في القلب، ومثلهم في الميسرة، ومثلهم في الميمنة، وعبَّأ رماة السهام مع أقواسهم، ثم أمر السَّقَّائين ليوزعوا الماء على العطشى؛ كي لا يتحرك أيَّ مقاتل من مكانه ولا يتركه. وكان التحام الفريقين قاسياً عنيفاً، وتوغَّل ابن القاسم في صفوف جيش داهر، ثم اختار كوكبة من المقاتلين الفرسان الأشداء للقيام بعملية التفاف وتطويق لمؤخرة جيش العدو، وكانت مغامرة عجيبة من هذا القائد البطل، وحينما حقَّق ذلك بنجاح تام، ذُعِر جند داهر وذُهلوا، وانشطروا إلى قسمين، كل قسم منهما يواجه فرسان المسلمين من المقدِّمة والمؤخرة، حينها نادى محمد بن القاسم: "يا جند المسلمين، اليوم هو يوم جهادكم، أطبقوا عليهم فقد طُوِّقوا". استمرت الحرب ضروساً حتى صلاة العشاء، وتحمّل جند العدو عدداً كبيراً من القتلى، ولاح النصر قريباً جدّاً في جانب جيش الإسلام.

جمع داهر في اليوم التالي رجاله ونظَّم صفوف جنده فقام ابن القاسم بين صفوف المجاهدين ثم ذكَّرهم بالله تعالى وكبَّر واقتحم بفرسه جيش داهر لكن جيش داهر الصامد المتماسك يقاتل بضراوة، وتساقطت السهام المشتعلة على هودج داهر، ورمى أحد الرُّماة

المهرة بسهمه المشتعل فأصاب قلب الهودج وأشعلت فيه النار، فعاد داهر بفيله إلى الوراء وقد اشتعل الهودج بالنيران وسقط معه في الماء، عندها فقبض عليه المسلمون إليه وقد تشرذم جيشه من حوله، وحلَّت به الهزيمة، وحاول داهر الخروج من بعد أن أصابه أحد الرماة المسلمين المهرة بسهم فأصابته، وتقدَّم منه عمرو بن خالد الكلابي، فعلاه بسيفه وضرب به رأسه فشقَّه نصفين حتى الرقبة وقال:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غيرُ مَعرد ... حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلاً ... متعفر الخدين غير موسّد[(١)]

حمد محمد بن القاسم الله تعالى حينما رأى رأس داهر، وشكره على نصره، وأعطى الأمان للصنَّاع والتجار، وأعادهم إلى مناطق سكنهم.

أرسل ابن القاسم رسالة إلى الحجاج فيها تفاصيل الفتح والنصر المبين ومصرع داهر وضبط البلاد، والأمان الذي أُعطي للسكّان، وإعادهم مطمئنين إلى مساكنهم وقراهم.

ونادى الحجاج وقد ملأ قلبه السرور فنودي للاجتماع في المسجد وحينما توافد الناس ملبِّين النداء وازدحم بهم المسجد صعد الحجاج المنبر فحمد الله وأثنى عليه لنصره عباده وجنده وصلَّى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: "هنيئاً لأهل الشام والعرب والمسلمين في فتح السند ثم قرأ رسالة الفتح التي أرسلها ابن القاسم"[(٢)].

تسلّم محمد بن القاسم بهذا الفتح المبارك "كل بلاد الهند والسند حتى حدود الصين"[(٣)]. وبعدها وصل بجيشه إلى حدود كشمير ودانت له البلاد من البحر حتى حدود كشمير.

---

(١) انظر، الكوفي، علي بن حامد بن أبي بكر: فتح السند، مصدر سابق، ص٤٥٢.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص٤٥٨.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٩.

عظمت فتوح ابن القاسم، فراجع الحجاج حساب نفقاته على هـذه الحملـة، فكانت ستين ألف ألف درهم، فحمل إليه محمد ابن القاسم ضعف هذا المبلغ.

أنجز محمد بن القاسم هذا الفتح كله في خمس سنوات، ما بين عام تسع وثمانين وأربع وتسعين للهجرة. وما أن أتم ابن القاسم فتحه العظيم لكل تلك البلاد، وإذا بالخبر يصل إليه بوفاة الحجاج.

توفي الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٩٥هـ/٧١٤م أيام الوليد بن عبد الملك الذي أقرّ ولاة الحجاج على ما كانوا عليه من الإمارة والفتح، وبعد هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند، مات الوليد عام ٩٦هـ/٧١٥م، وولي سليمان بن عبد الملك الخلافة من بعده، وكان على غير وفاق مع الحجاج، فقام بتتبع أصحاب الحجاج يسومهم سوء العذاب، فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خَراج العراق، وولّى يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند، وأمره بحمل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب. وهذا ما كان، فأخذ يزيدُ بنَ القاسم وألبسه المسوح وقيَّده وحبسه فقال ابن القاسم متمثلاً:

أضاعوني وأيَّ فتىً أَضاعوا ليومِ كَريهةٍ وَسدادِ ثغر

"فبكى أهل السند على ابن القاسم الذي أُرسل مقيداً إلى العراق"[1]، وذنبه أن الحجاج ولاّه فتح السند. فعذبه صالح بن عبد الرحمن حتى مات ابن القاسم في العذاب، وهكذا انتهت حياة هذا القائد الفتى الشاب إرضاء لأهواء سليمان بن عبد الملك كي تقرَّ نفسُه بالانتقام وتناسى ما فعله ابن القاسم من جليل الأعمال مع السلوك الرائع في مجتمع السند.

وكان بوسع ابن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة، ويرفض المسير إليه متمرِّداً مستقلاً بما فتح من بلدان، وما استولى عليه من أراض، وهو الذي استطاع أن يُخْضِعَ السند لراية الخلافة في مدة يسيرة، وتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك، ولكنّه آثر ألاّ يشق عصا الطاعة على خليفة المسلمين، على الرَّغم من توجُّسه الشرَّ منه.

---

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٨.

ويكفي محمد بن القاسم فخراً، أن التاريخ سجَّل له جسارته وشجاعته، وأنه كان يشكِّل محكمةً لردِّ المظالم بعد فتح كل مدينة وأنه تكرَّر في سجل فتوحه إعطاؤه الأمان للصُّنَّاع والزُّراع والتُّجَّار قبل الفتح وبعده مع تعويض مناسب للمتضرِّرين من الحرب. ويكفيه أنه آثر الموت معذباً في سجن مدينة واسط كي لا يشق عصا الطاعة. وحفظ التاريخ لابن القاسم موقفه النبيل هذا مع فتحه الخالد لحوض السند. وحفظ لسليمان بن عبد الملك إرضاءه لأهوائه كي تقرَّ نفسه بالانتقام من خيرة قادة الفتح الإسلامي.

لقد بكى أهل السند محمداً، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم، فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها، وكان أكثر مَن هداهم الله إلى الإسلام مِن أهل السند على يديه.

وبكاه أهل السند من غير المسلمين، لحسن معاملته لهم، وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم وإطلاق حرية العبادة لهم، وحسن سياسته للبلاد المفتوحة وتدبير أمورها وتأليف قلوب أهلها.

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب، بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة، ولا انتصاراته الباهرة في السند، لكن آثاره الخالدة لا تموت أبداً، وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يخترم الله تعالى إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان، وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذة والصبر الجميل.

أما الذين عذّبوه فقد ماتوا وهم أحياء، ولا نزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز. لقد عذب أولئك النفر أنفسهم حين عذبوه، وقتلوا أنفسهم حين قتلوه، وقد غيّبوا بظلمهم الأسود جسده، ولكنهم طهّروا روحه ورفعوها إلى السماء على حين أظهروا أجسادهم لمدة قصيرة وغيبوا أرواحهم في الظلمات.

رحم الله تعالى محمد بن القاسم وأجزل له ثواب جهاده، وغفر لسليمان وسامحه على فعلته!.

إن ضعف أمة من الأمم، لا يفسح المجال لغيرها من الأمم أن تنتصر، إلا إذا توافرت شروط معينة لإحراز النصر.

لقد صادف المسلمون في بلاد السند حضارة من أعرق الحضارات، ودولاً قائمة ذات تقاليد عسكرية عريقة، وتفوقاً في تعداد النفوس تفوقاً كاسحاً. وفي السند بالذات كان الملك "داهر" من أقوى ملوك البراهمة، وهو الذي أنقذ السند من الآريين بعد أن سيطروا عليه قروناً طويلة، وهو الذي وجده المسلمون على هذا الإقليم أيام الفتح، فليس من السهل الانتصار عليه وهو الملك القائد المنقذ، ومع ذلك قتله المجاهدون المسلمون وقطعوا رأسه كما وعد بذلك ابن القاسم.

ولو أحصينا عدد الذين تولّوا ثغر بلاد الهند على عهد بني أمية لوجدناهم خمسة عشر والياً مات سبعة منهم خارج الهند، وقتل منهم أو مات في الهند ثمانية، أي أن معدّل الخسائر في الولاة وهم قادة الفتح ستون بالمائة وهذا معدل رهيب، يدل دلالة واضحة على أن الفتح الإسلامي في تلك البلاد لم يكن نزهة من النزهات الترفيهية، بل كان جهاداً رهيباً وقوده الجماجم والأرواح. لقد بذل المجاهدون تضحيات جسام يصعب التعبير عنها في بعض الأحيان.

ويجد المتجول في المناطق التي فتحها محمد بن القاسم، في هذه الأيام التي تجتاز بها تلك المسافات الشاسعة بوسائل النقل السريعة، ومنها الطائرات، صعوبات كبيرة في التنقل، لطول المسافات وسعتها، ولا يكاد يصدّق أن المجاهدين المسلمين قطعوا تلك المسافات مشياً على الأقدام أو ركوباً على الإبل والخيل والدواب، مما يزيد في إعجابه الشديد بجهاد وجهود أسلافنا التي بذلوها في الفتح لتكون كلمة الله هي العليا.

و- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك بعد حالة الفتور التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله "ولجأ لذلك في شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى الذي شاهدها عهده"[١].

أوقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله حركة الفتوحات في بلاد ما وراء النهر وأمّر واليه عبد الرحمن بن نعيم على خراسان، بإعادة من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، قال: فأبوا وقالوا: "لا تسعنا مرو. فكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر: اللهم إني قضيت الذي علي، فلا تغزُ بالمسلمين فحسبهم الذي فتح الله عليهم، وكان مبعث هذه السياسة هو الخشية على المسلمين من راع يرى مسؤوليته عن رعيته إلى جانب تغليب طريق نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة على الجهاد الحربي، وذلك عن طريق دعوة ملوك ما وراء النهر إلى الإسلام"[٢].

إن الصبر على أهل الفتن ومعالجة الأمور بالعدل، دفع عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى عزل "الجراح الحكمي عامله على خراسان وتولية عبد الرحمن بن نعيم لما عرف عنه من لين وإيثار للعافي، ومع ما لهذه السياسة من إيجابيات كإسلام بعض ملوك وأهالي هذه المناطق، إلا أنها أطمعت آخرين في المسلمين وحفزتهم إلى التمرد وشق عصا الطاعة"[٣]. فقد تمرد الصّغد على سلطان المسلمين وهاجم الترك البلاد وعاونوا الصّغد مُنذ أيام عمر بن عبد العزيز خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم الغامدي وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبد العزيز (١٠٢هـ/٧٢٠م – ١٠٣هـ/٧٢١م) الذي تولى خراسان بعده من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي كان عليه إخماد ذلك التمرد،

---

(١) الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٣٣.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص٢٣٥.

(٣) فيصل، شكري: حركة الفتح الإسلامي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٦، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢١٨.

وظل الصّغد بالتعاون مع الترك على تمردهم ومخالفة المسلمين رغم ما بذله الوالي الجديد من جهد في استمالة دهاقنتها، وتسكين أهلها، واتباع سياسة المسالمة تجاههم لدرجة وُسَم معها بالضعف وثقل على الناس، وتمسك أهل المدن الكبرى في ما وراء النهر بموقفهم وهو عدم دفع الضرائب والامتناع عن تنفيذ أوامر الحكومة الإسلامية ومقاومة جيوشها، ويبدو أن من هذه الضرائب الجزية التي أعاد الخليفة يزيد فرضها على من أسلم بعد أن أسقطها عنهم عمر بن عبد العزيز وعمل عماله على جبايتها بالعنف والقوة، فأدى ذلك إلى نقض أغلب ممالك ما وراء النهر كالصّغد وفرغانه وكش ونسف عهدها مع المسلمين، بل وارتد كثير من الأهالي عن الإسلام وبدأ سعيد بن عبد العزيز حملاته وغزواته للصّغد والترك واستطاع أن يحقق انتصارات عليهم والقضاء على متمردي الصّغد في حصن أبغر، وصالح أهالي كش، وغزا طخارستان وصالح خزار، وأن يقضى على حركات التمرد.

رجع سعيد بن عبد العزيز الحرشي إلى مرو وبعد أن افتتح حصون الصّغد عامة، وأعادهم إلى الطاعة صلحاً أو عنوة بعد سلسلة من المعارك خاضها إبان حملته على ما وراء النهر ما بين عامي (١٠٣هـ/٧٢١م – ١٠٤هـ/٧٢٢م) وبذلك أعاد المسلمون سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد، وقضى الحرشي على أعنف انتفاضة قامت بها شعوب ما وراء النهر، مكنه من ذلك سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المسندة من ملاّك الأرض الكبار والعسكريين المسلمين والدهاقين، وشارك الموالي في جيش الحرشي بقيادة سليمان بن أبي السري، ونجد ذكراً للمجندين من أهل بخارى وخوارزم، وشومان. إلى جانب تأييد غورك أمير سمرقند بصورة ظاهرة[١].

لم يدم للمسلمين ما حققه سعيد الحرشي من تمكن وسيادة في ما وراء النهر، فقد تحول المسلمون من دور الهجوم إلى الدفاع في ولاية مسلم بن سعيد الكلابي على خراسان (١٠٤هـ/٧٢٢م – ١٠٦هـ/٧٢٤م) وغزا الأخير الترك فيما وراء النهر

---

[١] انظر، الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٣٦-٢٥٦.

(عام ١٠٥هـ/٧٢٣م) فلم يفتح شيئاً وعاد أدراجه، بل أن الترك تعقبوه فلحقوا به وهو يعبر نهر جيحون بجنده، فأتم ذلك في حماية الساقة، "وكانت هذه الحملة آخر الغزو في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك وهي في ظاهرها حملة ناجحة وإن لم تحقق مكتسبات جديدة إلا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه كان فيه دلالة على طمع الترك بهم وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ما وراء النهر وعودة الاضطراب إليها"[١].

ز- الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك:

نشطت حركة الجهاد في السند، حينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند وكان من أشهر قادة المسلمين في بلاد السند الجنيد بن عبد الرحمن المري، الذي "قام بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة، وعادة الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن وكان ذلك عام ١٠٧هـ/٧٢٥م"[٢]. وبعد نقل الجنيد بن عبد الرحمن إلى خراسان تولى إمرة السند تميم بن زيد العتبي وكان ذلك عام أحد عشر ومائة ولم يكن في كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق وقد مات بالطريق وعين خالد بن عبد الله القسري الحكم بن عوانه الكلبي عام ١١٢هـ/٧٣٠م فأحيا الجهاد وسار سيرة حسنة في السند وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولته منتصراً فاستقرت الأوضاع في السند ووصى أهلها بولاية الحكم وبقي الحكم في إمارة السند حتى عام ١٢٢هـ/٧٤٠م حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن

---

(١) انظر، الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص٢٥٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٣١٥.

القاسم الثقفي فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء، ثم تولى ولاية السند عمـــرو بن محمد بن القاسم، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصناً للمسلمين عنـــد أي هجوم من الأعداء[1].

وكانت لعمرو بن محمد أعمال مشكورة، وتمتع بمحبة لأهل السند لشهرة أبيـــه فاتح السند، والجدير بالملاحظة أن الفتوحات في العصر الأموي كانت تنشط عندما تقل المشاكل داخل الدولة الإسلامية، فحينما ينشغل المسلمون بالجهاد والفتوح تقل المشاكل الداخلية، وحينما يتوقفون عن الجهاد تبرز الفتن والقلاقل. ويعُد عصر معاويـــة عـــصراً زاهراً بالفتوح، ويُعد عصر الوليد بن عبد الملك العصر الذهبي للفتوح أيـــام الأمـــويين، حيث فتحت مناطق جديدة في السند والأندلس وما وراء النهر.

---

(١) عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٣٦٥.

الباب الثالث

الدعوة إلى الله تعالى وقادة الفتح لدى الدولة الأموية

- الفصل الأول: الدعوة إلى الله تعالى:

أ- أهمية الدعوة إلى الله تعالى.

ب- فضائل الدعوة إلى الله تعالى.

ج- لماذا الدعوة إلى الله تعالى.

د- عالمية الدعوة والرسالة.

هـ- مراكز الدعوة:

١- الجامع الأموي.

٢- المسجد الأقصى.

٣- قبة الصخرة.

٤- عمارة المسجد النبوي.

٥- جامع حلب.

٦- مسجد بصرى.

٧- جامع البصرة.

٨- جامع الكوفة.

٩- جامع عمرو بن العاص في مصر.

١٠- جامع الزيتونة.

١١- عمارة جامع صنعاء الكبير.

١٢- الرباطات.

و- بعثات الدعاة.

ز- الدعوة والجهاد في العصر الحالي.

١- الإعلام ودوره في الدعوة إلى الله تعالى.

٢- المدارس التبشيرية ودورها في تغريب الأمة.

٣- الغزو الفكري.

- الفصل الثاني: قادة الفتح لدى الدولة الأموية:

أ- مسلمة بن عبد الملك.

ب- المهلب بن أبي صفرة.

ج- قتيبة بن مسلم.

د- محمد بن القاسم.

هـ- أبو مسلم الخولاني.

و- عقبة بن نافع.

ز- أبو محمد البطال.

ح- حسان بن النعمان الغساني.

ط- موسى بن نصير.

الفصل الأول

الدعوة إلى الله تعالى

الدعوة إلى الله تعالى ذات مقامٍ رفيع، ومرتبةٍ علية ومنـــزلةٍ جليلة، وهي وظيفـــة الأنبياء وبـــها أُرسل سيد الأنبياء عليهم من الله أفضل صلاةٍ وأتم تسليم ومـــن ثمَّ كـــان الكلام فيها مهماً، بل لابد منه لأن من الناس من جهل الدعوة إلى الله تعالى فلا يـــدري قيمتها ولا يعرف قدرها ولا يلتزم بأحكامها وآدابـــها وحدودها، ومنهم من اقترنـــت دعوته إلى الله تعالى بمخالفاتٍ وجهالاتٍ، فهو يخبط خبط عشواء لا يدري كيف يـــسير مسيرةً حميدة، ولا يأتي بالسيرة الرشيدة في طريق دعوته إلى الله سبحانه وتعالى. وتواترت الأخبار والنصوص الشرعية في فضل الدعوة إلى الله تعـــالى وفـــضل حملـــة لوائـــــها وراياتـــها، ومن ذلك: أنها وظيفة الأنبياء، ولذلك يقول الله عز وجل: (وَمَـــا نُرْسِـــلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)[١]. وفي هذا دليل على أن وظيفة الرسل والنبـــيين هـــي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

أ- أهمية الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله تعالى أشرف الوظائف وأفضل الأعمال، فإنها الوظيفة الأساســـية للنبيين والمرسلين، والعمل الرئيسي لسائر الهداة المصلحين، وقد نص الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم على أن أحسن الناس قولًا هم الدعاة إلى الله فقال: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[٢]. وأشار الرسول صلى الله عليـــه وسلم إلى أن الداعين إلى الله تعالى العاملين بعلمهم المعلمين لغيرهم هم أعلى الناس درجة وأكثر الناس تأثرًا وتأثيرًا بالدين الحنيف، وأعظم الناس انتفاعًا بالغيث الذي أغـــاث الله تعالى به الأرض، فعَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ

---

[١] سورة الأنعام، الآية: ٤٨.

[٢] سورة فصلت، آية: ٣٣.

الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)[١]. وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عظيم مثوبة الدعاة عند الله تعالى، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ)، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: (أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟) فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِي بِهِ)، فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[٢]، يعني من أن تتصدق بأنفس المال.

ب- فضائل الدعوة إلى الله تعالى:

للدعوة إلى الله تعالى فضائل عديدة لا تحصى، ومن أهم هذه الفضائل:

أولاً: إن عاملها والقائم بحقها متقلد مهمة سيد ولد آدم عليه السلام، ولذلك أمر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى سبيله فقال: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[٣].

ثانياً: إن الداعي إلى الله تعالى ورضوانه كالمتصدق على حد سواء، أرأيت من أخذ من حر ماله فأعطاه غيره صدقةً وإحساناً، كذلك الداعي إلى الله سبحانه وتعالى كالذي ينثر حر ماله على الناس إحساناً وإنفاقاً، ووردت أحاديث وأخبار فيها دلالة على ذلك،

---

[١] صحيح البخاري، ج١، ص ٤٢، رقم الحديث ٧٩.

[٢] صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٩٦، رقم الحديث ٢٨٤٧.

[٣] سورة النحل، الآية: ١٢٥.

منها: حديث أبي ذرٍ الغفَاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وأمرٌ بِالمعرُوف ونَهيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَة)[1]. وهل الدعوة إلى الله تعالى إلا أمرٌ ونهيٌ وحث ومنع، ولذلك فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في نطاق عباءة الدعوة إلى الله تعالى.

ثالثاً: إن كل من دعا إلى الله تعالى واتبعه في دعوته أُناس فله مثل أجورهم فضلاً من الله تعالى وإحساناً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ دَعَا إِلى هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنقُصُ مِنْ أُجُورِهِم شَيْئاً)[2]. وهذا دلالة على أن من اهتدى على يديه من كفرٍ إلى إيمان، أو من معصية وفسق إلى التزام واتباعٍ للنبي صلى الله عليه وسلم له مثل أجره مقداراً أو مضاعفة تأكيداً لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ دَلّ عَلى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلَ أَجْرِ فَاعِلِه)[3].

رابعاً: إن الدعوة إلى الله تعالى من قبل ومن بعد هي عبادة، فمن دعا إلى الله تعالى فهو يعبد الله تعالى لأن العبادة ليست صلاة وصياماً وحجاً وعمرةً فحسب، وإنما هي كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال سواءً أكانت ظاهرة أم باطنة.

ج- لماذا الدعوة إلى الله تعالى؟:

يمكن حصر الأهداف الأساسية للدعوة إلى الله عزّ وجل فيما يلي:

أولاً: التعبُّد لله عزّ وجل بهذه الشعيرة العظيمة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي هي أصل الدعوة إلى الله عزّ وجل والجهاد في سبيله سبحانه، فشعور الداعية أنَّه عبد لله عزَّ وجل يُحبُّ ربّه ويُحبُّ ما يُحبُّه ربّه من الدعوة والجهاد يُعدُّ من أكبر الدوافع إلى بذل الجهد والجهاد. ومصاحبة شعور العبادة لله تعالى في جميع تحرُّكات الداعية تربية على الإخلاص وتحرِّي الحق والصواب اللذان هما شرطا قبول العبادة، والعكس من ذلك عندما ينسى الداعية أو يغفل أنَّه متعبِّد لله تعالى بدعوته وحركته، فيضعف إخلاصه وتبدأ

---

[1] صحيح مسلم، ج١، ص ٤٩٨، رقم الحديث ٧٢٠.

[2] صحيح مسلم، ج٤، ص ٢٠٦٠، رقم الحديث ٢٦٧٤.

[3] صحيح مسلم، ج٣، ص١٣٠٣، رقم الحديث ١٦٧٧.

حظوظ النفس والهوى تسيطر على القلب ويضعف مع ذلك اتباع الدليل وتحرِّي الحقّ ممَّا ينتج عنه في نهاية الأمر فتور الداعية أو مزلَّة قدمه والعياذ بالله تعالى.

ثانياً: الفوز برضوان الله تعالى وجنّته في الدار الآخرة، وهو ثمرة التعبُّد لله عزّ وجل، والغاية العظمى التي وعد الله عزّ وجل بها عباده الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والداعين إليه على بصيرة، وتكاثرت الآيات في كتاب الله عزّ وجل التي تمدح الداعين إليه سبحانه، والصابرين على ما أصابهم وما أُعدَّ لهم في الدار الآخرة من الرضوان والنعيم المقيم. عندما ينشد الداعية هذه الغاية وتنجذب نفسه إليها فإنَّه يستسهل الصعاب ويمضي في طريقه بقوة وعزيمة وثبات، وعندما يتعلَّق بهذه الغاية العظيمة ولا ينساها، فإنَّه بذلك لا يلتفت إلى أعراض الدنيا الزائلة، ولا ينتظر جزاء عمله ودعوته وجهاده في الدنيا، وإنَّما يروِّض نفسه ويربِّيها على أن تُعطي من صبرها وجهدها وجهادها، ولا تأخذ منه شيئاً في الدنيا، وإنَّما تنتظر العطاء والثواب في الدار الآخرة من ربِّها الكريم في دار النعيم المقيم، ولذلك فإنَّ أصحاب هذه النفوس المخلصة لا يتطرَّق إليهم الوهن ولا الفتور الذي يتعرَّض له أصحاب الأغراض الدنيوية القريبة، الذين إنْ حصلوا على أهدافهم في الدنيا رضوا وواصلوا العطاء، وإن تأخَّرت عليهم فتروا وكلُّوا وتوقَّفوا. أمَّا أصحاب الغاية العظيمة فهم لا يفترون ولا يتوقفون، لأنَّ وقت ومكان توفية الأجر ليس مجاله الدُّنيا، وإنَّما في الدار الآخرة دار الحساب والجزاء، ولذلك فهم يعملون ويجاهدون حتى يأتيهم اليقين.

ثالثاً: إنقاذ النّاس بإذن الله تعالى من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومن ظُلم الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا وشقائها إلى سعتها وسعادتها، ومن عذاب النَّار يوم القيامة إلى جنَّات النعيم. وعندما يتذكَّر الداعية هذه المهمة الجسيمة وهذا الهدف الأساس من دعوته وجهاده، فإنَّه يُضاعف جهده ولا يقرّ له قرار وهو يرى الشرك المستشري في الأمّة، والفساد المستطير في مجتمعات المسلمين، الذي يؤول بالناس إلى الشقاء والظلم، وكثرة المصائب في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. لذلك يخاف الداعية المدرك لهذه الغاية من دعوته على نفسه، وعلى النَّاس من عذاب الله عزّ وجل في

الدنيا والآخرة، ينصح الناس ولسان حاله ومقاله يردد قول مؤمن آل فرعون لقومه في قول الله عزّ وجل: (وَقَالَ الّذي آمَنَ يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكُم مثلَ يومِ الأحزاب، مثْلَ دأبِ قومِ نُوحٍ وعَادٍ وثُمودَ والّذين من بعدِهِم وما اللهُ يريدُ ظلماً للعباد، ويا قومِ إنِّي أخافُ عليكُمْ يومَ التَّناد، يومَ تُوَلُّونَ مُدبِرينَ ما لكُم من الله من عاصمٍ ومن يُضْلِل الله فما له من هاد)[1].

إنَّ مثل هذا الشعور ليضفي الرفق بالنَّاس، والصبر على إعراضهم وأذاهم، والحرص على كلّ مجال يفتح لهم أبواب الخير، أو يغلق عنهم أبواب الشر، وينشئ في القلب محبة المصلحين الداعين إلى الخير، وهداية النَّاس في أيّ مكان من الأرض، ويدفع إلى بذل الجهد والتخطيط والتعاون مع جميع الداعين إلى الخير والبر والتقوى، بعيداً عن التعصب والحزبية والولاءات الملوَّثة.

د- عالمية الدعوة والرسالة:

الحقيقة الثابتة التي تؤيدها النصوص القاطعة هي أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله، لا لأمة دون أمة، ولا لشعب دون شعب، فمحمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى الناس كافة لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)[2]. وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[3]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة، وأنها خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض، فليس بعد القرآن الكريم كتاب من الله تعالى، وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم رسول؛ لقوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)[4]. وقام بالتبشير، بعالمية الدعوة ودعوة الأمم، قادة وعلماء كموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وغيرهم كثير.

---

[1] سورة غافر، الآية: ٣٠– ٣٣.

[2] سورة سبأ، الآية: ٢٨.

[3] سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

[4] سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

إن عالمية الدعوة الإسلامية هاجس ينبغي أن يلح في طموح كل داعية إلى دين الله تبارك وتعالى، ومشروع ينبغي ألا يغيب عن أذهان الغيورين على دين الإسلام، فهي حقيقة شرعية بلا امتراء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[5]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرأيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَها، وَإِنّ أُمّتِي سَيَبْلُغُ مُلكَهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْها)[6]، وقال صلى الله عليه وسلم: (لَيبلُغَنّ هَذَا الأَمْرَ مَا بَلَغَ اللّيلَ وَالنّهَار، وَلاَ يترُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ ولاَ وَبَرٍ إلاّ أدخلَهُ الله هَذا الدِّين، بِعِزّ عَزَيزٍ أو بِذُلّ ذَلِيل، عِزًّا يُعِزّ بِه الإسْلام، وذُلاًّ يُذِلّ بِهِ الكُفْر)[7].

وهي ضرورة إنسانية تستنهض همة كل مشفق على حال البشر وسكان الكرة الأرضية، فالكفر يلف أرجاء الأرض، والفجور يستعلن على حين غفلة من القيم والمثل، وأضحى للكفر والفجور دولة وسلطان، وصارت ممارسات الفسقة تتحلى بغطاء الشرعية، فالكفر يتزيا بحلة حرية الفكر، والشذوذ الجنسي ينافَح عن حقوقه تحت غطاء الحرية الشخصية، والمرأة تريد أن تتبرأ من الحياء بزعم التحرر من القيود الجائرة، بل إن براءة الأطفال تغتال بالخطف والاستغلال الجنسي تحت أضواء المدنية الكاذبة. كل ذلك

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(2) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(3) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(4) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(5) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(6) صحيح مسلم ج٤، ص ٢٢١٥، رقم الحديث ٢٨٨٩.

(7) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث ١٦٩٩٨.

ألا ينادي على النفوس الأبية أن تسعى لخلاص لتلك البشرية المغلولة، أو تنافح عن القيم والمثل الضائعة في غابة الشهوات والغرائز البهيمية؟!.

لم تعد مسؤولية الدعاة محصورة في نطاق المسجد الذي يخطبون فيه أو يلقون محاضراتهم، وفي حدود قاطني الحي الذي يسكنون فيه، إن حزام المسؤولية يتمادى في الاتساع ليصل إلى كل نفس منفوسة تدب على هذه الأرض. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وَإِنّ العَالِمَ يَسْتَغفر لهُ مَنْ فِي السمواتِ ومَنْ فِي الأَرْضِ والحِيتَانَ فِي جَوفِ الماءِ)[١]، يوضح الحديث: أن للعلماء دور في الوصية بالكائنات الحية، حتى إنهم يوصون الناس بإحسان الذبحة كما أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم، فنفعهم عام على كل الخلائق، ولذلك تتذكرهم بالخير والدعاء.

وإذا كانت هذه حال الحيتان فما بال البشرية التائهة في سرداب شهواتها؟! إنها أحرى بأن تحتل مساحة من اهتمامنا معاشر الدعاة. وقد كاد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهلك نفسه حزناً على الناس ألا يكونوا مؤمنين، فصلى الله وسلم على ذلك النبي الشفيق الذي حمل همّ توصيل الدين إلى كل البشرية.

تمثل هذه الهمة العالية نسيج طموح كل داعية إلى الله تعالى، ويأبى تعظيمه لشعائر الله تعالى وفرائضه أن يكون مجرد مراهق ينشغل بالأحلام والأماني الخادعة، ويجمح وراء خيال هاو وسراب كاذب. إنه يمزج هذا الطموح بتخطيط واقعي، ويبني آمالا صادقة على جهود مخلصة، ثم يكل النتائج إلى الله تبارك وتعالى. هو لا ينظر إلى كراسي الحكم والسلطة بقدر ما يتمنى أن يحوز كرسياً واحداً في جنة الخلد. يحدوه الطمع في رضا الله فيبذل حق البذل ليحوز السلعة الغالية لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)[٢]. إنه قليل الكلام كثير العمل، سريع التأثر بواقع المسلمين والاستجابة لنداء البذل، إذا ما أقبل على عمل دعوي تسامى في العطاء، وإذا فكر في مشروع أعد له العدة الكاملة، والأسباب التامة المحاطة بتوكل على الله تعالى وثيق، يحترم

---

[١] سنن أبي داود، ج٢، ص ٣٤١، رقم الحديث ٣٦٤١.

[٢] سورة التوبة، الآية: ١١١.

التخصصات ويأبى الفوضى والارتجالية، إنه مثال الداعية الذي يحمل هماً عالمياً، ويغذيه طموح عال، ومثل هذا النموذج لا تزال تفتقر إليه الدعوات العالمية.

دخل نصف مساحة العالم الإسلامي في الإسلام صلحاً ودعوةً ومعاشرةً لا عنوةً وحرباً، مما يثبت أن عالمية الإسلام في عالمية الداعية، وأن السيف لم يرفع إلا على الظالمين والغاصبين لحق البشرية الحائلين دون إيمانها بربها وإلهها. وتغلغل الإسلام في أوروبا والأمريكتين بل وفي روسيا والصين وأفريقية وإستراليا مع قلة الدعاة وضعف الإمكانيات دليل على أن هذا الدين الحق لو قُيض له من الدعاة من يجهرون به في كل ميدان، ويطوفون به في كل أصقاع الأرض لتغيرت خريطة العالم في سنوات معدودة.

وسائل خدمة الدين كثيرة، وأساليب نشره بين الناس وفيرة، وميادين النداء إليه شاسعة، فمن أمانينا أن تتجيش كل الطاقات في خدمة الدين، ويفاجأ الباطل بجندي للحق في كل شبر على وجه الأرض، يجابه الظلم والطغيان، ويتصدى للكفر وللفجور، ويضيق الخناق على إبليس وجنوده، ويحكم الحصار على إغواءات الشياطين.

ستتحقق عالمية الدعوة بجلاء ويقين يوم يساهم كل مسلم بأي جهد في سبيل دينه وأمته، يوم يحاسب كل مسلم نفسه: ماذا قدم لدينه وأمته؟ يوم يدور حديث الناس في المقاهي والطرقات والبيوتات ومجالس السمر حول همّ الدين وشأن المسلمين، يوم تَدَّخرُ الأسرة من قوتها رغيفا تبذله لجائع أو محتاج، يوم يتبارى الأغنياء في أَرْيَحِيَّة صِدِّيقيَّة نحو الإنفاق في سبيل الدين، يوم يصبح الدعاة قدوة لغيرهم في حمل أمانة الدعوة وتبليغها للناس. قال الله تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز)[١].

هـ- مراكز الدعوة:

أنشأ الأمويون مراكز لنشر العلم والدعوة إلى الله تعالى من مساجد ورباطات وغيرها، وكانت المساجد في مقدمة اهتمامات الأمويين، لما للمسجد من مكانة في الإسلام والذي يعد الجامعة الأولى في نشر الدين والدعوة إليه.

---

[١] سورة الحج، الآية: ٤٠.

اهتمّ خلفاء الدولة الأموية بالمساجد خصوصاً في الأماكن الجديدة المفتوحة، حيث غدا المسجد مركزاً ومدسة وجامعة وبيتاً للشورى، ومن أهم المساجد التي كان للأمويين دور في إنشائها وإعمارها:

١- الجامع الأموي: شيد الجامع على "أنقاض معبد وثني قديم كان قد تحول إلى كنيسة القديس يوحنا، والوليد هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه من أيدي النصارى وأدخلها فيه. ويعد الجامع الأموي من روائع العمارة الإسلامية في العصر الأموي، فقد جمع الخليفة الوليد بن عبد الملك لبنائه أمهر الصناع والمهندسين في العالم من فارس والهند وبلاد الروم والمغرب، وأنفق على عمارته خراج الشام سبع سنوات"[١].

٢- المسجد الأقصى: غدت القدس منذ الفتح العمري مركزاً حضارياً هاماً في الحضارة الإسلامية، فقد شيد بها "الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسجداً جامعاً يعد أول منشأة دينية إسلامية تشيد بها، وكان بسيطاً من الناحية المعمارية، ثم جدد في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عند تشييده قبة الصخرة عام ٦٩هـ/٦٨٨م"[٢].

٣- قبة الصخرة: تعد قبة الصخرة من أروع العمائر الأموية في بلاد الشام، وأقدم أثر إسلامي باقٍ في تاريخ العمارة الإسلامية، "شرع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في عمارتها في عام ٦٩هـ/٦٨٨م، وكان الفراغ منها في عام ٧٢هـ/٦٩١م وأوقف على نفقتها ونفقة عمارة المسجد الأقصى خراج مصر سبعة أعوام"[٣].

٤- عمارة المسجد النبوي: كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز في ربيع الأول عام ٨٨هـ/٧٠٦م يأمره بإدخال حجر أزاوج النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، وقال له: "قدم القبلة إن قدرت، وأنت تقدر لمكان أخوالك، وإنهم لا يخالفونك، فمن أبى منهم فقَوّموا ملكه قيمة عدل، واهدم عليهم، وادفع الأثمان إليهم، فإن لك في عمر

---

[١] عبده، عبد الله كامل: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص٦٤.

[٢] المصدر السابق ذاته، ص٥٢-٥٣.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص٥٤.

وعثمان أسوة، فأحضرهم عمر وأقرأهم الكتاب، فأجابوه إلى الثمن وبنى المسجد، وقدم عليه الفعلة من الشام، وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليعمره، فبعث إليه ملك الروم مائة ألف مثقال ذهب، ومائة عامل، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملاً، فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، وحضر عمر ومعه الناس فوضعوا أساسه وابتدأوا بعمارته"[١].

٥- جامع حلب: شيد الخليفة سليمان بن عبد الملك أول مسجد جامع في حلب، وتأنق في بنائه ليضاهي به جامع دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك، و"شيد المسجد من أحجار منشئات قديمة، وكان المسجد يتسم بالفخامة من الناحيتين المعمارية والزخرفية، فقد ازدان بالفسيفساء والرخام، غير أن المسجد تعرض للتخريب عقب انتهاء العصر الأموي، حيث نقض العباسيون ما فيه من رخام وفسيفساء وآلات ونقلوها إلى جامع الأنبار"[٢].

٦- مسجد بصرى: شيده الخليفة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٢هـ/٧٢٠م جنوب الشام، و"جدد هذا المسجد في عام ١٢٨هـ/٧٤٥م أي في نهاية العصر الأموي، ثم تهدم واندثر"[٣].

٧- جامع البصرة: يعد مسجد البصرة من المساجد الأُول التي شيدت خارج الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين، "شيده نافع بن الحارث بن كلدة، ثم بناه القائد أبو موسى الأشعري باللبن والطين بعد استئذان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عقب تعرض البصرة لحريق إلتهم قصبها. وفي العصر الأموي شهدت مدينة البصرة تطوراً كبيراً خاصة في عهد زياد بن أبيه الذي يعد أول من شيد بها بالآجر والجص، فأعاد بناء الجامع ودار الإمارة بهذه المواد التي تمثل تطوراً مادياً بنائياً في تاريخ عمارة المدينة"[٤].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج٤، ص١٣.

[٢] عبده، عبد الله كامل: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص١٠٦.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص١١٠.

[٤] المصدر السابق ذاته، ص١٧٧.

٨- جامع الكوفة: تعتبر الكوفة المدينة الإسلامية الثانية بعد البصرة التي شيدت خارج الجزيرة العربية، أنشأها القائد "سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عام ١٧هـ/٦٣٨م. وتكامل تخطيط المسجد في عهد والي العراق زياد بن أبيه شأنه في ذلك شأن مسجد البصرة حيث قام زياد بإعادة بنائه بالآجر والجص، وأقام سقف المسجد على أساطين من رخام إسطوانية"(١).

٩- جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه في مصر: هو أول مسجد أسس بديار مصر في الملة الإسلامية بعد الفتح. كانت عمارة المسجد في بداياتها بسيطة للغاية شأنها شأن المسجد النبوي. وقام والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري عام ٥٣هـ/٦٧٢م بهدم المسجد وأعاد بنائه من الناحيتين المعمارية والزخرفية، وشيد له أربع مآذن في أركانه بواقع مئذنة في كل ركن، ولما ولى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عبد العزيز بن مروان ولاية مصر، هدم المسجد عام سبع وسبعين وبناه. وقام والي مصر عبد الله بن عبد الملك عام ٨٩هـ/٧٠٧م برفع سقف المسجد. وأعاد الوالي قرة بن شريك عام ٩٣هـ/٧١٠م هدم المسجد وبنائه بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(٢).

١٠- جامع الزيتونة: رأى والي أفريقية حسان بن النعمان بعد أن فرغ من أمر الكاهنة ملكة البربر أن يقيم مدينة عربية إسلامية تجاه قرطاجنة بحيث تشرف على مدخل قرطاجنة، "فشيد تونس على بعد نحو ١٢ ميلاً شرقيها وجعلها قاعدة بحرية، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول واستعان لذلك بالمصريين، فقد أرسل للخليفة عبد الملك بن مروان يطلب منه أن يزوده بجماعة من الأقباط يستخدمهم في تأسيس دار الصناعة، فكتب الخليفة عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يأمره أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده، وشيد حسان فيها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة وثكنات للجند

(١) عبده، عبد الله كامل: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص١٧٩.

(٢) انظر، المصدر السابق ذاته، ص٢٠٨-٢١٠.

للمرابطة، وقدر لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور أفريقية بعد ذلك بثلاثين عاماً على يدي عبيد الله بن الحبحاب"[1].

١١- عمارة جامع صنعاء الكبير: الجامع الكبير بصنعاء من أقدم المساجد التي شيدت في بلاد اليمن، تم تأسيسه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حين "بعث بالصحابي وبر بن يحنس الأنصاري والياً على صنعاء في عام ٥هـ/٦٢٧م وأمره ببناء هذا المسجد. ثم تعرض المسجد لمراحل عديدة من التجديد والتعمير والإضافة خلال عصوره الإسلامية المتعاقبة، وتعد عمارة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك من أهم الإضافات التي حدثت به خلال العصر الأموي"[2].

وحرص الأمويون على رعاية هذه المساجد وغيرها من الناحية العلمية في تعيين الأئمة الأكفاء وإقامة الدروس وحلق العلم وتعليم الناس أمور دينهم والإفتاء في ما أشكل عليهم.

١٢- الرباطات: كانت سواحل المغرب معرضة للغارات البحرية المفاجئة من القسطنطينية وجنوب أيطاليا، وجزر البحر الأبيض المتوسط، فاعتبر المسلمون المرابطة على الساحل جهاداً في سبيل الله، و"كانت سواحل تونس أكثر هذه السواحل عرضة للغزو بسبب قربها من الجنوب الأوروبي، وبلغ من حماس أهل المغرب للرباط، أن كان ذوو الحمية من أهل قبائل الصحراء يقبلون إلى ساحل البحر للرباط وحراسة المسلمين.

عمت روح الرباط شيئاً فشيئاً حتى شغلت قبائل بأسرها، وأخذ المتشوقون للجهاد من أهل قبائل الصحراء يرابطون على أحواز الصحراء لحماية ما يليهم من بلاد الإسلام من أخطار من يليهم إلى الجنوب، وقامت الربط على حدود بلد السودان.

---

(١) المصدر السابق ذاته، ص٣٢٠.

(٢) عبده، عبد الله كامل: الأمويون وآثارهم المعمارية، مصدر سابق، ص٩٦.

إن الرباط حصن دفاعي أولاً، وبالذات يرابط فيه من حبسوا حياتهم على الجهاد في سبيل الله. وكان الرباط مدرسة يؤمها العلماء، يدرسون العلم احتساباً لله تعالى وللجهاد في سبيله"[١].

و - بعثات الدعاة:

حرص خلفاء بني أمية على بعث الدعاة والعلماء إلى المناطق المفتوحة ليفقهوا الناس ويعلموهم أمور دينهم ويؤموا الناس في المساجد والجوامع ويتولوا القضاء للحكم بين الناس، ومن هؤلاء:

- أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي: وهو أحد "الفقهاء التابعين العشرة الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل القيروان، سكن القيروان وبث فيها علماً كثيراً، وكان رجلاً صالحاً عالماً مشهوراً بالدين والفضل، قليل الهيبة للملوك لا تأخذه في الله لومة لائم"[٢].

- إسماعيل بن عبيد الأنصاري: وهو المعروف "بتاجر الله، من أهل الفضل والعبادة والنسك كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه، سكن القيروان وانتفع به خلق كثير من أهلها وغيرهم، وهو أحد العشرة التابعين الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله يفقهون أهل أفريقية، وهو الذي بنى المسجد الكبير المعروف بجامع الزيتونة عام ٧١هـ/٦٩٠م، وكان يصلي فيه ويعمره. ولا يزال مقيماً بالقيروان إلى أن حضرته نية في الجهاد فخرج في مركب متطوعاً في غزاة، فغرق في البحر فمات وهو معانق للمصحف وذلك عام ١٠٧هـ/٧٢٥م. وإنما سمي تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله عز وجل يصرفه في وجوه الخير"[٣].

---

[١] حجازي، عبد الرحمن عثمان: التربية الإسلامية في القيروان، صيدا، بيروت، المكتبةالعصرية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١٥٧.

[٢] الدباغ، عبد الرحمن محمد الأنصاري (ت: ٦٩٦هـ/١٢٩٧م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج١، ص١٧١.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٧٧.

- أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي: من فضلاء التابعين، "سكن القيروان وهو أول من استُقضي بها بعد بنائها، ولاه موسى بن نصير عام ٨٠هـ/٦٩٩م، وكان عدلاً في أحكامه ثقة في نفسه، وهو أحد العشرة التابعين الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله ليفقهوا أهل أفريقية، توفي بالقيروان عام ١١٣هـ/٧٣١م"[١].

- علي بن رباح بن قَصير اللخمي: "كان فقيهاً صالحاً فضلاً جليلاً، وكانت له منزلة عند عبد العزيز بن مروان، أولاه أفريقية فقدمها مجاهداً في سبيل الله، سكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً، وانتفع به أهل القيروان، توفي عام ١١٧هـ/٧٣٥م"[٢].

- أبو سعيد جُعثُل بن هاعان بن عمير الرعيني ثم القتباني: "كان فقيهاً صالحاً، ولاه هشام بن عبد الملك قضاء جند أفريقية، وهو أحد العشرة التابعين وأحد القرّاء الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل أفريقية، توفي أبو سعيد قريباً من عام ١١٥هـ/٧٣٣م"[٣].

- إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي: "كان فقيهاً صالحاً فاضلاً زاهداً ، استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل أفريقية ليحكم بينهم ويفقههم في الدين عام ٩٩هـ/٧١٨م وقيل عام ١٠٠هـ/٧١٩م، فسار فيهم بالحق، وأسلم على يديه عامة البربر، وكان حريصاً على إسلامهم. وهو أحد العشرة التابعين. وبلغ من زهده أنه كان إذا أقبل من الغزو في الصائفة افترش درعه فنام عليها، وكان هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد زهداً منه في الدنيا وتواضعاً، وأوصى أن يتصدق عنه بكل شيء تركه بعد موته، فرفع ذلك إلى هشام بن عبد الملك فأجاز من ذلك الثلث. وتوفي إسماعيل بالقيروان عام ١٢٢هـ/٧٤٠م أو نحوها"[٤].

---

[١] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٨٠.

[٢] الدباغ، عبد الرحمن بن محمد، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ج١، ص١٨١.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٨٣.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٨٤.

- حِبّان بن أبي جبلة القرشي مولى بني عبد الدار: "كان من أهل الفضل والدين، سكن القيروان وانتفع به أهلها، وهو أحد العشرة التابعين، وتوفي بالقيروان عام ١٢٥هـ/٧٤٣م"[١].

- عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني: "قاضي عمر بن عبد العزيز بالقيروان، كان من فضلاء التابعين، وأهل الورع منهم. وسبب ولايته لقضاء القيروان أن سليمان بن عبد الملك كان قد وجه إلى عبد الله بن موسى بن نصير عامل أفريقية أن يوجه إليه ما تحصل عنده من خراج أفريقية صحبة عشرة من عدول قيروان، يشهدون عنده أن هذا المال أخذه من وجهه، ففعل ذلك فلما دخلوا على سليمان سألهم عن ذلك فقالوا: لم يأخذ إلا من وجهه، وعبد الله بن المغيرة ساكت لم يتكلم بشيء، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً لذلك المجلس، فعلم أنه إنما منعه من الكلام الورع والخوف من الله عز وجل ولا يتكلم إلا بحق، فسأل عنه عمر بعد انصرافهم فعُرِّف بدينه وورعه وفضله، فلما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ولى عبد الله بن المغيرة قضاء أفريقية وذلك عام ٩٩هـ/٧١٨م"[٢].

- موهب بن حِبي المعافري: "من فضلاء التابعين، سكن القيروان وبث بها علماً كثيراً، وبها كانت وفاته، وهو أحد العشرة التابعين"[٣].

- طلق بن جابان الفارسي: "كان عالماً فقيهاً، وهو أحد العشرة التابعين الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل القيروان"[٤].

ز- الدعوة والجهاد في العصر الحالي:

---

[١] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٨٧.

[٢] الدباغ، عبد الرحمن بن محمد، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ج١، ص١٨٨.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٩٠.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج١، ص١٩١.

١- الإعلام ودوره في الدعوة إلى الله تعالى: الصراع بين الحق والباطل صراع قديم جديد، وسيستمر هذا الصراع إلى قيام الساعة، وقد اختلف أساليب أعداء الأمة في العصور المتأخرة في محاربتها للأمة الإسلامية مع استمرار الأسلوب التقليدي القديم في بعض الأماكن وبعض الأحيان.

لقد أدركت الأمم المتقدمة سحر الإعلام وسلطته الضاغطة المؤثرة، فأنفقت الملايين لتحقيق سياساتها، وإقناع الجماهير بشرعية خططها وبرامجها من خلال عملية غسيل الدماغ الجماعية، "وصارت وسائل الإعلام تقوم بجزء من عمل الجيوش، وأصبحت الحروب الإعلامية تكلف أحياناً أكثر من الحروب التقليدية"[(١)].

إن الإعلام في وقتنا هذا سلاح قوي ومؤثر، وعلى الأمة الإسلامية دخول عالم الإعلام وتسخيره في الدعوة إلى الله تعالى وجهاد الأعداء بهذا السلاح كما هم يحاربوننا به.

ويضخ الإعلام الغربي بوسائله المسموعة والمرئية والمطبوعة كافة يومياً كماً ضخماً من المعلومات والأخبار التي تنقل إلى الشعوب المتلقية لهذه الأخبار والمعلومات، في صورة حقائق ومواقف صادقة. ويساهم ذلك بصورة مستمرة في تغيير سياسات الحكومات التي تنبني في معظم الأحيان على القناعات الشخصية لصانعي القرار. وبما أن الإعلام الغربي يؤثر بصورة فعالة على كثير من القيادات السياسية في العالم، فلا شك أن لهذا أثراً على القرارات التي تصدر عنهم. ودعا ذلك "الأمين العام السابق للأمم المتحدة إلى القول بأن وكالة الأنباء التلفزيونية CNN هي العضو رقم (٦) في مجلس الأمن، ولكن هل نستطيع الجزم أن وكالات الأنباء هذه تعبر عن المعاناة الحقيقية للبشر، فإن المتتبع لمصادر الأخبار الغربية وطرق صياغتها وأساليب إيصالها للمواطن في العالم يرى الكثير من التجاوزات في المصداقية والحيادية وتحري الحق. وكثرت في الآونة الأخيرة الدلائل على المحاولات المتعمدة للإعلام الغربي لإعادة صياغة وتفسير وتشويه للمواقف السياسية بما يخدم أهداف

---

(١) الحضيف، محمد عبد الرحمن: كيف تؤثر وسائل الإعلام، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص١٦.

الغرب ومن وراءه"[1]. ويستدعي هذا الأمر محاولة جادة لفهم هذا الإعلام وكيف يعمل. ومن أهم هذه الأسئلة ما يتعلق بمصداقية هذا الإعلام من وجهة نظر الباحثين والمفكرين الغربيين.

لقد فرض الإعلام الأمريكي نفسه على كثير من دول العالم الإسلامي والعالم العربي بصورة الإعلام الصادق والمتميز والمعتدل. وساهم في تضخيم هذه الصورة ضحالة الإعلام الحكومي الموجه في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وانخفاض وقلة استخدام الوسائل التقنية الحديثة لإيصال المعلومة بأكفأ وأسهل طريق إلى أكبر قطاع ممكن من الشعب، وكذلك تنافس وسائل الإعلام العربية والإسلامية في إبراز الغرب وسائله الإعلامية وأدواته الثقافية كافة بصورة وردية مشرقة ومبهرة، في عالم يزيد عدد اللغات فيه عن ٦٠٠٠ لغة، وتتنوع وتتباين فيه القيم الحضارية والدينية، ويمثل الإعلام الغربي أكثر من ٩٠% من حركة الإعلام المتدفق بين أرجاء العالم في السنوات الأخيرة. ولا شك أن لهذه الهيمنة آثاراً على محاولات الحفاظ على الهوية الدينية، واللغات والثقافات غير الغربية، والوقاية من الأمراض الأخلاقية الغربية التي تتسرب إلى الشعوب من خلال تدفق المعلومات[2].

لقد غزانا الغرب من خلال إعلامه القوي المؤثر، وأنشأ لذلك محطات تنطق بالعربية موجهة للعالم العربي والإسلامي أنفق عليها ملايين الدولارات، ففي البدء كان الجمهور العربي ولا سيما النخب الثقافية منه، منبهرة بالتقدم التقني لوسائل الإعلام الغربية، والذي جعل جماهير معظم الدول العربية تستقبل إذاعات مثل (مونت كارلو) والـ (بي بي سي) بدرجة أكثر وضوحًا من كثير من الإذاعات العربية في الدول المجاورة، فضلاً عن حالة الإعجاب بالمهنية العالية لدى العاملين في كثير من هذه الوسائل الإعلامية

---

[1] الرفاعي، فؤاد سيد عبد الرحمن: النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، القاهرة، مكتبة الأهرام، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٤٣.

[2] انظر، الرفاعي، فؤاد سيد عبد الرحمن: النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، مصدر سابق، ص٤٣-٤٤.

الغربية الناطقة بالعربية، وبخاصة إذا علمنا أن كثيرًا من الصحف والإذاعات نجحت في استقطاب أعداد كبيرة من الكفايات الإعلامية والثقافية العربية، ممن لم تسمح لهم الأنظمة السياسية العربية بالتعبير عن آرائها وأفكارها في وسائل الإعلام العربية التي كانت إلى وقت قريب مملوكة للدول والأنظمة العربية توجهها كيف تشاء.

فمن البديهي أن للإعلام الغربيّ أهدافًا وجدت وسائله من صحف وإذاعات وقنوات تلفازيّة لتحقيقها، وإلا لماذا تُنفق هذه الأموال الطائلة التي تُقدّر بمئات الملايين من الدولارات لإنشاء القنوات التلفازية والإذاعات، وإصدار الصحف والمجلات الناطقة باللغة العربية؟ "وقناة الحرة على سبيل المثال، وُلدت من رحم الاحتلال الأمريكي للعراق، وتُموّل من ميزانية ملحقة بميزانية وزارة الدفاع الأمريكية باعتراف وزير الدفاع الأمريكي، ومباركة أعضاء الكونجرس، وهذا دليل على أن هذه القنوات والوسائل الإعلامية مهمتها الأساس تهيئة العقل العربي لتقبُّل النموذج الغربي أو الترويج للثقافة الغربية الأمريكية أو الأوروبية، لاسيما أن منطقة الشرق الأوسط، والتي تضم الدول العربية هي مناطق مصالح حيوية للقوى الغربية في أوروبا، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وهي دول الاستعمار القديم، أو الولايات المتحدة الساعية لفرض هيمنتها على العالم، ويؤكد ذلك أن كثيرًا من هذه الوسائل الإعلامية الغربية طالما أفسحت برامجها وصفحاتها للقوى المعارضة أو المنتقدة للأنظمة العربية، والمحلل الواعي لمضامين ما يُنشر ويُذاع في وسائل الإعلام الغربية باللغة العربية يستطيع أن يدرك ملامح هذه الأجندة، والتي لم تعد خافية، فالممارسات السياسية للأنظمة الغربية تفضحها وتكشف عوارها يومًا بعد يوم"(١).

ومع الأسف فإن إعلامنا العربي ليس بالمستوى المطلوب منه في خضم هذا الصراع، بل لم يلتفت إلى غزو وجهاد العالم الغربي من خلال وسائل الإعلام.

---

(١) السماك، محمد: دور الإعلام في تكوين القناعات الإنسانية وفي التأثير على الثقافات والمعتقدات في العالم الإسلامي، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص١١٧.

إن نظرة بسيطة للإعلام العربي في وقتنا الحالي تصيب الناظر بالدهشة والحيرة، فهو إعلام للتسلية وتضييع الوقت، في أغلب الأحيان، رغم أن معظم الدول العربية تعاني بشدة من مشاكل اقتصادية، وكلها تقريبًا تعاني من اضمحلال في الثقافة الدينية، ومشاكل اجتماعية حادة، إضافة إلى نقص الوعي السياسي وغياب فهم الجماهير لحقوقها الأساسية.

ويساهم الخطاب الإعلامي العربي بشكل مباشر في تغييب وعي الجماهير، ومن بعض المظاهر:

أولاً: تكريس مفاهيم العلمانية في أوج صورها من خلال الكثير من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، الحكومية والمستقلة، حيث يتم الهجوم على المفاهيم الإسلامية التي تطالب بتطبيق الشريعة، بل ويتم غمز الشريعة الغرّاء من حين لآخر بدعوى عدم مناسبتها للعصر، ويدعون صراحة لدولة ينفصل فيها الدين عن الحكم.

ثانياً: انتشار الترفيه الساقط والخلاعة بشكل يتنافى مع أبسط الأسس الثقافية للمجتمعات العربية والمستمدة من الدين الإسلامي الذي تدين به أكثرية شعوب العالم العربي، الأمر الذي أثار استهجان الكثيرين حتى من غير المتدينين، ويوجد أكثر من ثلاث عشرة قناة فضائية عربية خاصة لما يسمى "الفيديو كليب"، وهو عدد يزيد عن ثلاثة أضعاف القنوات التي تبث برامح دينية، هذا بخلاف البرامج والأفلام والمسلسلات والإعلانات التي تعتمد بصورة أساسية على جسد المرأة لجذب المشاهدين.

ونجد العشرات بل المئات من المطبوعات تعتمد في الترويج لها على الصور العارية وعلى الكلمة العارية، مما جعل بعض الغيورين يطالب بميثاق شرف للإعلام ولكن دون جدوى.

ثالثاً: الترويج لمفاهيم الإباحية والاختلاط بين الجنسين تحت دعاوى الفن والتطور، ومن أصدق الأمثلة على ذلك برنامج "ستار أكاديمي" وبقية برامج ما يسمى بـ"تليفزيون الواقع" وهي نسخ منقولة طبق الأصل عن برامج أجنبية، وهي برامج يجتمع فيها الشباب والفتيات في بيت واحد وتنمو بينهم علاقات متنوعة بحجة تعلم أنواع من الفنون.

رابعاً: الهجوم على الحجاب والاستهزاء به في برامج عديدة ومناقشة موضـــوع انتـــشار الحجاب بين الفتيات على أنه ظاهرة دخيلة على المجتمع، وأن الـــسبب الحقيقـــي وراء انتشاره ظروف اقتصادية وليس عقيدة دينية.

ولا يمكن في الحقيقة تجاهل بعض المحاولات الجادة لصنع إعلام راشد في بعـــض الدول العربية، وتأثيره ما زال ضعيفًا مقارنةً بالتيار الإعلامي الفاسد، لذا وجب "شـــحذ جهود كل الغيورين من أصحاب الكفاءات الإعلامية وأصحاب الأموال لكي يواجهـــوا هذه الموجة العاتية بإنشاء المزيد من القنوات الإعلامية التي تنسجم في محتواها مع ثقافـــة الأمة، وتوقظ الوعي في نفوس أبنائها حتى لا نرى مع مرور السنين أجيالاً ممـــسوخة لا هوية لها"[١].

٢- المدارس التبشيرية ودورها في تغريب الأمة: انتشرت في كثير مـــن بلـــدان العـــالم الإسلامي مدارس لا تمت إلى هوية الأمة بصلة، ولم يكتف هؤلاء بالمدارس الإرسالية بل عمدوا في بعض الحالات إلى فتح المدارس العلمانية، بغية إحكام السيطرة على تربية أبناء المسلمين وتدمير عقيدتهم، ذلك لأنهم إذا فشلوا في جذب أبناء المسلمين إلى مدارســـهم وتلقينهم المبادئ النصرانية، فإنهم يكونون على الأقل قد حطموا مبادئهم من الـــداخل، وهذا ما جاء في كلام المبشر "زويمر" الذي قال: "ما دام المسلمون ينفرون من المـــدارس المسيحية، فلا بد أن ننشئ لهم المدارس العلمانية، ونسهّل التحاقهم بها، هذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب"[٢].

وخطر هذه المدارس يتمثل في:

أولاً: صلة الأطفال بمعلميهم، إذ من المعروف أن الطفل يتأثر بالكبار من معلمين وأهل، وهذا الأثر يبقى لفترة طويلة، قد تمتد طوال عمره، ويؤمن الطفل بكل ما يقوله معلمـــه،

---

[١] السلامة، محمد عبد الله: الإعلام الإسلامي ومتغيرات العصر، الرياض، مكتبـــة التوبـــة، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٥٦.

[٢] النبهاني، يوسف: مختصر إرشاد الحيارى إلى تحذير المسلمين من مدارس النصارى، بـــيروت، دار البيارق، ط١، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م، ص١٧.

لذلك من الطبيعي أن قِيَمَ المعلم واتجاهاته تُتناقَل للتلميذ بطريق مباشر خلال القواعد والمناقشات والتفسيرات أو التعليقات والأوامر.

ثانياً: تعلم الأطفال من بعضهم البعض، إذ يشكل الرفاق وسيلة من الوسائل التعليمية المهمة، فالحوار المستمر حول نقاط الخلاف بين الأديان يكثر بين الرفاق الذين يكونون في الغالب من أتباع الديانة الأخرى، كل هذا يجعل هذا الولد يتأثر بكلامهم وإن لم يُبد ذلك للأهل.

ثالثاً: استغلال الوسائل كافة من أجل بث التعاليم الدينية، ومن هذه الوسائل (الطابور الصباحي) حيث يجتمع الأطفال في باحة الملعب قبل الصعود إلى الصف، ويستمعون إلى توجيهات الراهبة أو الكاهن، حيث يقوم هؤلاء باستغلال بعض المناسبات الدينية من أجل التعريف بالدين المسيحي وبث أفكارهم بحرية وبدون رقابة.

رابعاً: استغلال النشاطات المدرسية من أجل القيام ببث الأفكار المسيحية في أذهان الطلاب، ومن هذه النشاطات الرحلات المدرسية إلى الأماكن الدينية، ومشاهدة الأفلام السينمائية التي تتحدث عن سيرة المسيح عليه السلام ومعجزاته.

خامساً: جهل الآباء بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وبالتالي انصرافهم عن تعليمها لأبنائهم، يجعل الطفل يصدق كل ما يخبره به الطرف الآخر، لسهولة حصوله عنده على أجوبة الأسئلة التي لا يجدها عند أهله.

٣- الغزو الفكري: الغزو الفكري هو مصطلح حديث يعني "مجموعة الجهود التي تقوم بها أمة من الأمم للاستيلاء على أمة أخرى أو التأثير عليها حتى تتجه وجهة معينة. وهو أخطر من الغزو العسكري، لأن الغزو الفكري ينحو إلى السرية وسلوك المسارب الخفية في بادئ الأمر فلا تحس به الأمة المغزوة ولا تستعد لصده والوقوف في وجهه حتى تقع فريسة له، وتكون نتيجته أن هذه الأمة تصبح مريضة الفكر والإحساس تحب ما يريده لها عدوها أن تحبه وتكره ما يريد منها أن تكرهه. وهو داء عضال يفتك بالأمم ويذهب

شخصيتها ويزيل معاني الأصالة والقوة فيها، والأمة التي تبتلى به لا تحس بما أصابها ولا تدري عنه ولذلك يصبح علاجها أمراً صعباً وإفهامها سبيل الرشد شيئاً عسيراً"[١].

ويستخدم الغرب وسائل متنوعة لترويج أفكاره منها:

أولاً: محاولة الاستيلاء على عقول أبناء المسلمين وترسيخ المفاهيم الغربية فيها ليعتقدوا أن الطريقة الفضلى هي طريقة الغرب في كل شيء، سواء فيما يعتقده من الأديان والنحل أو ما يتكلم به من اللغات، أو ما يتحلى به من الأخلاق، أو ما هو عليه من عادات وطرائق.

ثانياً: رعايته لطائفة كبيرة من أبناء المسلمين في كل بلد، وعنايته بهم وتربيتهم حتى إذا ما تشربوا الأفكار الغربية وعادوا إلى بلادهم أحاطهم بهالة عظيمة من المدح والثناء حتى يتسلموا المناصب والقيادات في بلدانهم، وبذلك يروجون الأفكار الغربية ويقيموا المؤسسات التعليمية المسايرة للمنهج الغربي أو الخاضعة له.

ثالثاً: تنشيطه لتعليم اللغات الغربية في البلدان الإسلامية وجعلها تزاحم لغة المسلمين وبخاصة اللغة العربية لغة القرآن الكريم التي أنزل الله بها كتابه، التي يتعبد بها المسلمون ربهم في الصلاة والحج والأذكار وغيرها، ومن ذلك تشجيع الدعوات الهدامة التي تحارب اللغة العربية وتحاول إضعاف التمسك بها في ديار الإسلام في الدعوة إلى العامية وقيام الدراسات الكثيرة التي يراد بها تطوير النحو وإفساده، وتمجيد ما يسمونه بالأدب الشعبي والتراث القومي.

رابعاً: إنشاء الجامعات الغربية والمدارس التبشيرية في بلاد المسلمين ودور الحضانة ورياض الأطفال والمستشفيات والمستوصفات، وجعلها أوكاراً لأغراضه السيئة، وتشويق الدراسة فيها عند الطبقة العالية من أبناء المجتمع، ومساعدتهم بعد ذلك على تسلم المراكز القيادية والوظائف الكبيرة، حتى يكونوا عوناً لأساتذتهم في تحقيق مآربهم في بلاد المسلمين.

---

[١] الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٧٤.

خامساً: محاولة السيطرة على مناهج التعليم في بلاد المسلمين ورسم سياستها، إما بطريق مباشر كما حصل في بعض بلاد الإسلام حينما تولى "دنلوب" القسيس تلك المهمة فيها، أو بطريق غير مباشر عندما يؤدي المهمة ذاتها تلاميذ ناجحون درسوا في مدارس دنلوب وتخرجوا فيها فأصبح معظمهم معول هدم في بلاده، وسلاحاً فتاكاً من أسلحة العدو، يعمل جاهداً على توجيه التعليم توجيها علمانياً لا يرتكز على الإيمان بالله تعالى والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما يسير نحو الإلحاد ويدعو إلى الفساد.

سادساً: قيام طوائف كبيرة من النصارى واليهود بدراسة الإسلام واللغة العربية، وتأليف الكتب وتولي كراسي التدريس في الجامعات، حتى أحدث هؤلاء فتنة فكرية كبيرة بين المثقفين من أبناء الإسلام بالشبه التي يلقنوها لطلبتهم، أو التي تمتلئ بها كتبهم وتروج في بلاد المسلمين، حتى أصبح بعض تلك الكتب مراجع يرجع إليها بعض الكاتبين والباحثين في الأمور الفكرية أو التاريخية. وتخرج على يد هؤلاء المستشرقين من أبناء المسلمين رجال قاموا بنصيب كبير في إحداث الفتنة الكبرى، وساعدهم على ذلك ما يحاطون به من الثناء والإعجاب، وما يولونه من مناصب هامة في التعليم والتوجيه والقيادة، فأكملوا ما بدأه أساتذهم وحققوا ما عجزوا عنه لكونهم من أبناء المسلمين ومن جلدهم ينتسبون إليهم ويتكلمون بلسانهم.

سابعاً: انطلاق الجيوش الجرارة من المبشرين الداعين إلى النصرانية بين المسلمين وقيامهم بعملهم ذلك على أسس مدروسة، وبوسائل كبيرة عظيمة، يجنّد لها مئات الآلاف من الرجال، وتعد لها أضخم الميزانيات، وتسهل لها السبل وتذلل لها العقبات، وإذا كان هذا الجهد منصباً على الطبقة العامية غالباً، فإن جهل الاستشراق موجه إلى المثقفين، وأنهم يتحملون مشاق جساما في ذلك العمل في بلاد أفريقية وفي القرى النائية من أطراف البلدان الإسلامية في شرق آسيا وغيرها، ثم هم بعد كل حين يجتمعون في مؤتمرات يراجعون حسابهم وينظرون في خططهم فيصححون ويعدلون ويبتكرون، فاجتمعوا في "القاهرة عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م. وفي أدنمبرج عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م وفي لكنوا عام

١٣٢٩هـ/١٩١١م وفي القدس عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م ولا زالوا يوالون الاجتماعات والمؤتمرات"[١].

ثامناً: إنشاء الكنائس والمعابد وتكثيرها في بلاد المسلمين وصرف الأموال الكثيرة عليها وتزيينها وجعلها بارزة واضحة في أحسن الأماكن وفي أكبر الميادين.

تاسعاً: تخصيص إذاعات موجهة "تدعو إلى النصرانية وتشيد بأهدافها وتضلل بأفكارها أبناء المسلمين السذج الذين لم يفهموا الإسلام ولم تكن لهم تربية كافية عليه، حيث يصاحب هذا الإكثار من طبع الأناجيل وتوزيعها في الفنادق وغيرها وإرسال النشرات التبشيرية والدعوات الباطلة إلى الكثير من أبناء المسلمين"[٢].

---

[١] حسان، حسان محمد: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٣٦.

[٢] حسان، حسان محمد: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مصدر سابق، ص٣٦.

الفصل الثاني

قادة الفتوحات لدى الدولة الأموية

هيأ الله جل وتعالى للدولة الأموية قواداً أكفّاء ضربوا أروع الأمثلة وقدموا من صور التضحية والبذل والعبقرية العسكرية ما حيّروا أعداءهم في وقتهم، ولعل هذا من الأسباب المهمة في امتداد الفتوحات في عصرهم إلى مدى يكاد العقل البشري العادي لا يصدقه ولا يتخيله في بعض الأحيان، ومن هؤلاء:

أ- مسلمة بن عبد الملك: (٦٦ – ١٢١هـ/٦٨٥-٧٣٨م)

هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي.

أبوه: أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. ولد عام ٦٦هـ/٦٨٥م.

١- نشأته: نشأ مسلمة وترعرع في ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً، فهو من بيت السلطة والملك وأهله أمراء وقادة وخلفاء، وظروفهم الإدارية والعسكرية والسياسية لا تخلو من مشاكل وصعوبات تعين على التعلم والتدريب، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسرة حينذاك ميسوراً لبني أمية ولغيرهم من الناس، لذلك "نشأ في دمشق عاصمة الخلافة ليتعلم القرآن ويروي الحديث ويحفظ الأخبار ويتقن علوم اللغة وفنون الأدب شعراً ونثراً، ثم ليمارس القضايا الإدارية والسياسية عن كثب، ويرى كيف تُصرّف الأمور وتعطى القرارات. كما تدرّب على ركوب الخيل والفروسية والسباحة والرمي بالنبال والضرب بالسيف والطعن بالسنان، حتى أضحى في الميادين الثقافية والإدارية والسياسية والعسكرية ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة"(١).

تربى مسلمة في كنف أبيه بعد استعادة الوحدة للدولة الإسلامية بجو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أمية برعاية والده الحصيف العالم الداهية الذي يعد بحق أبرز خلفاء بني أمية علماً وعملاً

(١) خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٢٢٣.

ومقدرة وذكاءً، فكان مسلمة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبد الملك وأشبه النـــاس به عدا الخلافة التي حرم منها، لأن أمه من أمهات الأولاد وكان لا يتـــولى الخلافـــة إلا أموي أمه عربية حرة، بالرغم ما قال عنه الذهبي رحمه الله: "كان أولى بالخلافة من سائر أخوته"[١].

ظهرت مزايا مسلمة وألمعيته مبكراً وهو صغير السن، فركز أبوه عبد الملك عليـــه وبخاصة في وصيته أبنائه وبنيه وهو على فراش الموت بقوله: "وانظروا مسلمة فاصـــدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون ومِجَنَّكم الذي عنه ترمون". فهو قائد من قـــواد الفكر وقائد من قادة الجهاد بالنسبة لبني أمية، لا يخالفون له رأياً، ولا يعصون له أمـــراً، ويلجأون إليه في أيام المحن والحروب"[٢]، وعُرف في التاريخ مع قصة صـــاحب النقـــب، حيث حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد فجاء رجل مـــن عُرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم: فنادى مسلمة: "أين صاحب النَّقب؟" فما جـــاء أحد. فنادى: إني قد أمرت الأذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النَّقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال: إن صاحب النِّقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تـــسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال: "أنا هو"، فكان مسلمة لا يصلي بعدها إلا قال: اللهم اجعلني مـــع صـــاحب النَّقب"[٣].

٢- جهاده: برز مسلمة بن عبد الملك في الحروب قائداً فذاً ومقاتلاً عظيماً، فكان في كل سنة "يفتح بلداً أو حصناً من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لتأمين ســـلامة بلادهـــم

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٥، ص٢٤١.

[٢] خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٢٨٩.

[٣] ابن قتيبة: عيون الأخبار، مصدر سابق، ج١، ص١٧٢.

والمحافظة عليها من غارات الأعداء، ومن الحصون التي فتحها: حصن عمورية وهرقلية وقمونية، وحصن طوانة وسمطية والمرزبانين وطروس، وكثير غير هذه الحصون"[١].

فتح مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد "حصن طوانة وشتوا بها، وهزم المسلمون الأعداء حتى صاروا إلى كنيستهم ثم رجعوا فانهزم الناس وبقي العباس ومعه نُفير، منهم بن محيريز الجُمحي، فقال العباس لابن محيرز: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا جميعاً فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة"[٢]. وهكذا لا تمر سنة وإلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم.

قاد مسلمة الجيش الذي حاصر "القسطنطينية الحصار الأخير في عهد سليمان بن عبد الملك، ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر في غزو بلاد الروم كان مقصوداً ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك إلى عاصمة البيزنطيين التي كانت إحدى الأهداف الرئيسية من هذه الغزوات"[٣].

لقب مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، قائد الجيوش، أبو سعيد الأموي الدمشقي، الجرادة الصفراء لصفرة كان تعلوه، وهذا يرمز لضراوة مسلمة في الحروب وشدة وطأته على الأعداء، له مواقف مشهودة مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية وكان ميمون النقيبة، وولي العراق لأخيه يزيد ثم أرمينية.

جرت أولى محاولاته لحصار القسطنطينية عام ٩٨هـ/٧١٦م عندما اختاره أخاه سليمان قائداً عاماً على القوات الغازية للقسطنطينية، فسار مسلمة على رأس جيشه اللجب المؤلف من مائة وعشرين ألفاً، فطوقها بقواته البرية والبحرية، وعند حلول موسم الشتاء أمر مسلمة أن يبنى رجاله بيوتاً من الخشب لتقيهم المطر والثلج والبرد، واستطاع

---

[١] الوكيل، محمد سيد: الأمويون بين الشرق والغرب، مصدر سابق، ج١، ص٤٢٠.
[٢] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣٤.
[٣] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٢٥٦.

المسلمون أن يؤثروا في الروم المحاصرين تأثيراً شديداً، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً ليرحل عنهم، فلم يقبل مسلمة بهذا العرض وأصر على فتح المدينة.

وأدى شتاء عام ٩٩هـ/٧١٨م القارس البرد بثلوجه وأمطاره الغزيرة إلى موت آلاف المسلمين، ونفدت موادهم التموينية و لم يبق منها إلا أقل القليل فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر وكل شيء غير التراب حتى ضاق بهم الأمر فكان لابد لهم من التخلي عن الحصار والانسحاب إلى قواعدهم(١).

وخدم الدولة خدمات جليلة فقضى على "ثورة يزيد بن المهلب الذي خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هددت كيان الأمويين"(٢). لقد خُلق مسلمة ليكون غازياً، لا ليكون والياً.

غزا مسلمة عام ١٠٨هـ/٧٢٦م الروم مما يلي الجزيرة "ففتح قيسارية*، وفي عام ١٠٩هـ/٧٢٧م غزا مسلمة الترك من ناحية أذربيجان فغنم وسبى وعاد سالماً"(٣).

وكان يحرص في جهاده على سلامة جنده، وفي قتاله للخزر تكالب عليه الأعداء مما اضطره إلى خداعهم "بإشعال النيران ليوهمهم بمكوثه وجعل خيامه مضروبة بعد العشاء الآخرة، وجعل مسلمة يطوي المراحل طياً في العودة فقد جعل كل مرحلتين في مرحلة غير أنه قدم الضعفاء بين يديه واهتم بهم وجعل الأقوياء أهل الجلد والشجاعة على الساقة، فلم يزل كذلك حتى جاوز الخطر"(٤). كان يمقت العجز ويمدح الحزم، فقد قال: "ما حمدت نفسي على ظفر ابتدأته بعجز ولا ذممتهما على مكروه ابتدأته بحزم، وكانت تجربته العملية غنية إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك بن مروان ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن

---

(١) انظر، خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص٢٧٤.

* قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سيواس في شرقيها وينتقل منها إلى قونية (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤ ص٤٧٨).

(٣) خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٢٨٢-٢٨٣.

(٤) ابن أعثم: الفتوح، مصدر سابق، ج٧-٨، ص٢٨٣.

يبقى إلى جانبهم مستشاراً يتعلمون منه أكثر مما يتعلم منهم إلا إذا حزبهم أمر يهدد أمن الدولة ومصيرها تهديداً خطيراً فيبعثونه ليقضي على الثورات وليقمع الاضطرابات وليعيد الأمن والاستقرار"[١].

٣- صفاته وأقواله: كان مسلمة من رجال بني أمية المعدودين موصوفاً بالشجاعة والإقدام والرأي والدهاء، تولى العراقين مرة واحدة، وتولى أرمينية وأذربيجان والجزيرة ثلاث مرات في أحرج الظروف وأصعب الأيام، فوطد الأمن فيها وأعاد الاستقرار إليها، وفرض عليها سيطرة الدولة وهيبة الحكم، فكان إدارياً حازماً ورجل دولة من الطراز الأول وقائداً متميزاً، ومن أقواله التي تشير إلى هذه المزايا: "مروءتان ظاهرتان: الرياسة والفصاحة"[٢].

كان يتذوق الشعر ويقدر الشعراء ويعرف قابليتهم الشعرية ويثمن إنتاجهم الشعري. ومن أقواله في تقويم الشعراء: "ثلاثة لا أسأل عنهم، أنا أعلم العرب بهم: الأخطل والفرزدق وجرير. فأما الأخطل فيجيء سابقاً أبداً، وأما الفرزدق فيجيء مرة سابقاً ومرة ثانياً، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وسُكيتاً مرة"[٣].

وكان كريماً غاية الكرم، أهدى إلى الحسن البصري رحمه الله "خميصة لها أعلام وكان الحسن يصلي بها. وكان سمحاً يفتح بابه وقلبه لكل غاد ورائح فيقضي حاجة المحتاج ويأخذ بيد المضطر ويغيث الملهوف ويجير من يستجير به حتى على الخلفاء"[٤].

ومن أقواله في الزهد: "إن أقل الناس هماً في الدنيا أقلهم هماً في الآخرة"[٥].

---

[١] خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٣١٩.

[٢] المصدر السابق ذاته، ص٢٨٩.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص٢٩٢.

[٤] المصدر السابق ذاته، ص٢٩٧.

[٥] المصدر السابق ذاته، ص٣٠٢.

كان يؤدي فريضة الحج ويقصد بيت الله في مكة المكرمة محرماً ويشد الرحال إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، و"تولى إمـارة الحـج عـام ٩٤هـ/٧١٣م في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك"[١].

يجد المتتبع لسيرة مسلمة أنه كان مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية ويدين بـالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمح لتولي الخلافة لأن بني أمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد، و"لم يكن لعبد الملك بن مروان بن أسدَّ رأياً ولا أذكى عقلاً وأشجع قلباً وأسمح نفساً ولا أسخى كفاً من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى. وبنو أمية لا يـستخلفون بـني الإماء وقالوا: "لا تصلح لهم العرب"[٢]. ولم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة مع أنه كما قال الذهبي: "كان أولى بالخلافة من سائر إخوته[٣]". وكان "ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً علـى رص الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة وسيلة من أجل خدمة الأمة لا غاية من أجل أطماع شخصية وأمجاد أنانية، وهو بحق خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حقق الوسيلة واستغنى عن الغاية"[٤].

يذكر التاريخ لمسلمة أنه كان أوسع الأمويين فتحاً، وأعظم قادتهم بعد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. وكان رحمه الله "جميل الصورة حسن الوجه صبيحاً، من أجمل الناس وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهـل الـشام تـوفي رحمـه الله عـام ١٢٠هـ/٧٣٨م"[٥].

ب- المهلب بن أبي صفرة: (٨-٨٢هـ/٦٢٩-٧٠١م)

١- نسبه: هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة بن سرّاق الأزدي العتكي.

---

[١] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٩، ص٣٢٨.

[٢] خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٣١٠.

[٣] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٥، ص٢٤١.

[٤] خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مصدر سابق، ص٣١١.

[٥] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٥، ص٢٤١.

"كان أبوه صفرة مسلماً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأدى إليه زكاة ماله، ولكنه لم يفد عليه، وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرة من ولده أصغرهم المهلب، فجعل عمر ينظر إليهم ويتوسم، ثم قال لأبي صفرة: "هذا سيد ولدك"[(١)].

ينتسب المهلب إلى قبيلة الأزد المعروفة بشجاعة رجالها وإقدامهم ورجاحة عقولهم، وكان أبوه من سادات الأزد عقلاً واتزاناً وشجاعة وإقداماً، فعاش المهلب أيامه الأولى في بيئة تقوي مزاياه السامية.

٢- جهاده: شهد المهلب حروب عبد الرحمن بن سمرة في سجستان وذلك عام ٣١هـ/٦٥١م إذ كان أحد الأشراف الذين كانوا في جيش عبد الرحمن فوجهه عبد الرحمن بشارة فتح كابل إلى عبد الله بن عامر أمير البصرة.

وكان أول من عقد للمهلب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ ولاه قيادة الأزد حين انهزمت يوم الجمل عام ٣٦هـ/٦٥٦م.

وغزا المهلب ثغر السند في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حين كان على البصرة عبد الله بن عامر[(٢)].

تولى المهلب حرب الأزارقة بناء على اختيار "أهل البصرة له واقتران ذلك بموافقة عبد الله بن الزبير، إلا أن المهلب لم يخرج لقتالهم إلا بعد أن اشترط على أهل البصرة جملة شروط أجابوه إليها، فخوّل الحق باختيار من يشاء من المقاتلة، وأن تكون له أمرة وخراج كل بلد يقع في حوزته"[(٣)]، وانتخب المهلب اثني عشر ألف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن ببيت المال سوى مئتي ألف درهم عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلب إلى التجار قائلاً: "إن تجارتكم منذ حول قد كُسِرت بانقطاع موارد الأهواز

---

(١) خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٧٠.

(٢) انظر، خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص١٧٢-١٧٣.

(٣) العبود، نافع توفيق: آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، بغداد، جامعة بغداد، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٣٧.

وفارس عنكم فهلمّ فبايعوني وأخرجوا معي أُوفيكم إن شاء الله حقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره واتخذ لأصحابه ما يلزم من التجهيزات، فلما انتصر المهلب على الخوارج قام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أخذ منهم"(١).

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين حتى استدعاه مصعب بن الزبير الذي أصبح والي البصرة من قبل أخيه عبد الله ليشترك معه في حرب المختار الثقفي عام ٦٧هـ/٦٨٦م وبعد هزيمة المختار عين مصعب المهلب والياً على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية، ولكن أحداً لم يستطع أن يقوم مقام المهلب في مقاومة الخوارج فاضطر مصعب أن يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد، وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الأهواز تمكن عبد الملك بن مروان من بسط سيطرة الدولة الأموية على العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير عام ٧٢هـ/٦٩١م، وولي أخاه بشر بن مروان على العراق وأمره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته، فعمل بشر بما أمره به أخوه، وبرهن المهلب على إخلاصه في حرب الخوارج الأزارقة مهما كانت السلطة التي تصدر إليه الأوامر، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقتالهم تحت لواء عبد الملك، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجّاج بن يوسف الثقفي عام ٧٥هـ/٦٩٤م جدّ في مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره، فاشتد في مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم(٢)، أتاح الخوارج للمهلب فرصة كسر شوكتهم حين "انقسموا على أنفسهم قسمين، قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه فقد قضي عليه المهلب نهائياً"(٣)، وأما قطري بن الفجاءة ومجموعته فقد "رحلوا إلى طبرستان، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم عام ٧٧هـ/٦٩٦م بمساعدة جيش أرسله إليه الحجّاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي"(٤).

---

[1] بطاينة، محمد ضيف: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، مصدر سابق، ص٣٨٣

[2] انظر، عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٤٦٣-٤٦٤.

[3] ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج٦، ص٣٠١.

[4] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٤٦٤.

قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التي هددت الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عاماً (٦٥-٧٨هـ/٦٨٤-٦٩٧م).

قامت سياسة المهلب على النفس الطويل في محاربة الخوارج وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل حتى يهون عليه أمرهم، ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: "إني انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفجاءة أو فرقة وتشتيتاً أو جوعاً قاتلاً"[1]، ولم تخطيء تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سراً، وكتب فيه: "أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح عن الصانع أنكر فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد. وتعميقاً للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني، واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه"[2]. واقتتل الخوارج فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية التي تسفر عنها هذه التصفيات ليتفرغ لها مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم بل كتب له: "إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك، فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذ، وهو أهون ما كانوا وأضعهم شوكة إن شاء الله تعالى، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب في نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم

---

[1] ابن أعثم: الفتوح، مصدر سابق، ج٧-٨، ص١٤.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٨.

حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه و لم ينج منهم إلا عدد قليل"[١]، "ويعود نجاح المهلب في القتال إلى أسلوبه الحربي الذي يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره في الحروب"[٢].

ورأى فيه الخليفة عبد الملك نتيجة انتصاراته ضد الخوارج أنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة "فولاّه على خراسان، فمكث فيها خمس سنوات إلى أن توفي عام ٨٢هـ/٧٠١م"[٣].

٣- صفاته وأقواله: وصف المهلب بأنه قليل الكلام يفضل فعله على لسانه، متلطفاً في إجاباته كاتماً للسر، حليماً في موضع الحلم، شديداً في موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه: "فقيل له لم حلمت عنه؟ قال: "لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه"[٤]، واتصف المهلب بصبره وأناته في أعماله وحروبه وكان يقول: "إناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك"، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج أجابه بقوله: "إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره"، ومما اشتهر به المهلب في حروبه هو أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: "ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم"، وكان يحرص على شراء ود الناس وله قول مأثور في ذلك: "عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه[٥].

كان المهلب من التابعين، ولد عام الفتح الذي كان عام ثمان للهجرة ومات عام ٨٢هـ/٧٠١م في ولاية خراسان، "وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه ومالك بن مسمع

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٩.

[2] الناطور، شحادة: تجديد الدولة الأموية، مصدر سابق، ص٩٥.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٢

[4] العبود، نافع توفيق: آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، مصدر سابق، ص٢٢.

[5] انظر، المصدر السابق ذاته، ص٢٤.

بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه وساد المهلب بهذه الخلال جميعاً. وكان سيداً جليلاً نبيلاً خطيباً شجاعاً فقيها وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم ومما يدل على كرمه أنه أقبل يوماً في بعض غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهّلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله فليس كل أحد يفي لك به. ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: أطلب لها رُجيْلا يعني أن مثلي لا يسأل إلا عن حاجة عظيمة[1]. وكان حليماً فمن أخبار حلمه أنه مرّ يوماً بالبصرة فسمع رجلاً يقول: "هذا أعور قد ساد الناس ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم، فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية"[2]، وفقئت عينه بسمرقند، وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل ومن ذلك قوله: "الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا مت"[3]، وقيل يوماً للمهلّب: "ما خير المجالس؟ فقال: ما بعد فيه مدى الطرف وكثر فيه فائدة الجليس. وقال يوماً: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه"[4].

كان المهلب موضع ثقة "الخلفاء الذي تولوا أمر المسلمين كافة والأمراء الذين تولوا أمر البصرة والعراق جميعاً على الرغم من اختلاف نزعات وميول هؤلاء الخلفاء والأمراء، ذلك لأن المهلب لم يل ولاية قط طالباً لها، إنما كان يولى لحاجتهم إليه"[5].

وصفه عدوه اللدود قطري بن الفجاءة فقال: "هو الليث المبر والثعلب الرواغ والبلاء المقيم"[6].

---

1 خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص١٩٢.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص١٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج٤، ص٤٣٤.

(٤) خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص١٩٣.

(٥) المصدر السابق ذاته، ص١٩٥.

(٦) خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص١٩٨.

رضي الله عنه القوي الأمين، المفكر الحكيم، العالم الفقيه، المدبر الحصيف، القائد الفاتح، الإنسان السوي، المهلب بن أبي صفرة الأزدي.

ج- قتيبة بن مسلم: (٤٩-٩٦هـ/٦٦٩-٧١٤م)

١- نسبه: هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، يكنى أبا حفص، وأمه بنت عمرو بن تميم. ولد عام ٤٩هـ/٦٦٩م.

وقتيبة من "بني هلال من باهلة، وهم بنو مالك بن أعصر، نسبوا إلى أمهم: باهلة، وبها يعرفون. وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلى باهلة، وليس في تاريخ باهلة عمل يُخِلّ بشرفها من بعيد ولا قريب"[١].

٢- جهاده: قتيبة أحد الأبطال الشجعان ومن ذوي الحزم والدهاء والرأي والغَنَاء، وهو الذي "فتح خوارزم وبخارى وسمرقند وكانوا قد نقضوا وارتُّدوا. ثم أنه افتتح فرغانه، وبلاد الترك في عام ٩٥هـ/٧١٤م، ولي خراسان عشر سنين وله رواية عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري، ولم ينل قتيبة أعلى الرتب بالنسب بل بكمال الحزم والعزم والإقدام والسَّعد وكثرة الفتوحات ووفور الهيبة"[٢].

ويعتبر قتيبة بحق من "أعظم القادة الفاتحين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي بعامة وتاريخ الدولة الأموية بخاصة، ففي خلال عشر سنين فتح أقاليم شاسعة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل"[٣].

حرص قتيبة ومن معه من الفاتحين على دعوة الناس للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى والأرياف ويضع فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين ليطلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين وأخلاقهم عن طريق

---

[١] خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، مصدر سابق، ص٣٨٠-٣٨١.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٤١٠-٤١١.

[٣] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٣٤١.

الاحتكاك بهم، مثل ما حدث مع أهل بخارى فأظهر الإسلام بهذه الطريقة وأزال آثار الكفر ورسم المجوسية، وبنى ببخارى المسجد الجامع وأمر المسلمين بأداء صلاة الجمعة فيه. ومن أساليب قتيبة في ترغيب الناس في الدخول في الإسلام كان يأمر بمناد كل يوم يقول: بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة يعطى درهمين، ويعد هذا العمل أسلوباً جديداً، ذلك العهد، في تأليف قلوب الناس للإسلام والحفاظ على الذين اعتنقوه. وكان في جيشه مجموعة من العلماء كمحمد بن واسع والقاضي يحيى بن يعمر والضحاك بن مزاحم صاحب التفسير، فساهم هؤلاء وأمثالهم في نشر الإسلام. ونافس محمد بن واسع قتيبة في بناء المساجد، وصاحب عمليه انتشار الإسلام بين سكان ما وراء النهر سرعة تعلمهم اللغة العربية، حيث كان قتيبة يصدر أوامره ببناء المساجد، ولم تكن تقتصر على إقامة شعائر الصلاة فقط، وإنما جعل فيها حلقات تعليم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان للمسجد والعلماء الذين أشرفوا عليها دور عظيم في تعليم السكان اللغة العربية، وقد قال ابن كثير رحمه الله في قتيبة: إنه ما انكسرت له راية وكان من المجاهدين في سبيل الله تعالى واجتمع له من العسكر ما لم يجتمع لغيره. وكان من نتائج الجهود التي بذلها في نشر الإسلام أن أصبحت بخارى وسمرقند وأقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية، ونشر الإسلام في آسيا الوسطى، مثل مرو ونيسابور في خراسان، ودخول كثير من أهلي ما وراء النهر في دين الله أفواجا، فظهر بينهم عدد من الكتاب والمحدّثين والفقهاء والمؤرخين ممن لا يزال ذكرهم خالداً وآثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام[١].

لما استعد قتيبة بن مسلم لقتال الترك وهاله أمرهم فسأل عن محمد بن واسع، فعرف أنه في الميمنة جامح على قوسه يبصبص بأصبعه نحو السماء. قال: "تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير"[٢].

---

[١] انظر، السلطاني، غانم: قتيبة بن مسلم الباهلي، بغداد، جامعة بغداد، د.ط، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٣٨-١٤٠.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٦، ص١٢١.

هذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر ألا وهو التوكل على الله تعالى وتوثيق الصلة به واستلهام النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة، ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه اطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده فقال تلك الكلمات الإيمانيه الرفيعة: تلك الإصبع أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير. إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع إنما هو حسابات البشر والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيراً حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء.

يبين فهم قتيبة الرفيع رحمه الله سبباً مهماً من أسباب انتصاراته الباهرة التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات، فبالرغم من كونه بطلاً لا يُشَقُّ له غبار وقائداً مخططاً يضع للأمور أقرانها، وسياسياً محنكاً لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، نظر إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى، فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء، وبالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين، وزال عنه الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى.

لما فتك شبيب الخارجي بكثير من المسلمين، وعاث في الأرض فساداً، ودخل عام ٧٧هـ/٦٩٦م الكوفة ومعه زوجه غزالة، وكانت غزالة نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما سورتي البقرة وآل عمران، ففعلت ذلك. وفض شبيب كتائب الحجاج كتيبة بعد كتيبة، وقتل أمراءه أميراً بعد أمير، وبث الرعب في نفوس الناس. وحزب الحجاج أمر شبيب وضاقت به الأرض، فأذن للناس فدخلوا عليه وهو على سريره وعليه لحاف، فقال للناس: "إني دعوتكم لأمر فيه أمان ونظر، فأشيروا عليّ! إن هذا الرجل قد تبحبح بحبوحتكم ودخل حريمكم وقتل مقاتليكم، فأشيروا عليّ!"،

فأطرقوا. وفصل رجل من الصف بكرسيه، فقال: "إن أذن لي الأمير تكلمت!"، فقال: "تكلم"، فقال: "إن الأمير والله ما راقب الله ولا حفظ أمير المؤمنين ولا نصح للرعية!"، ثم جلس بكرسيه في الصف، فإذا قتيبة بن مسلم، فغضب الحجاج وألقى اللحاف ودلى قدميه من السرير، فقال: "من المتكلم؟!" فخرج قتيبة بكرسيه من الصف وأعاد الكلام، فقال الحجاج: "وكيف ذلك؟"، فقال قتيبة: "لأنك تبعث الرجل الشريف وتبعث معه رعاعاً فينهزمون ويستحي أن ينهزم فيُقتل!"، فقال: "وما الرأي؟"، قال: "الرأي أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيواسونك بأنفسهم"، فقال الحجاج: "والله لأبرزن له غداً". فلما كان الغد حضر الناس فقال قتيبة: "اذكر يمينك أصلح الله الأمير"، فقال الحجاج: "اخرج فارتد لي معسكراً"، وجعل رسول الحجاج يخرج ساعة بعد ساعة من بعد صلاة الصبح فيقول: "أجاء بعد؟"، وإذا قتيبة يمشي في المسجد عليه قباء هروي أصفر وعمامته خزّ أحمر متقلداً سيفاً عريضاً قصير الحمائل كأنه في إبطه، أدخل بركة قبائه في منطقته والدرع تصفق ساقيه، ففتح له باب الحجاج ولم يحجب، فدخل ولبث طويلاً ثم خرج وأخرج معه لواء منشوراً. وركب الناس وركب قتيبة فرساً أغرّ محجلاً كميتاً كأنه في سرجه رمانة من عظم السرج، فأخذ في طريق دار السقاية حتى خرج إلى السبخة وبها عسكر شبيب وذلك يوم الأربعاء، فتوافقوا ثم غدوا للقتال يوم الخميس ثم غادوهم يوم الجمعة، فلما كان وقت الصلاة انهزمت الخوارج[١].

كافأ الحجاج قتيبة بعد انتصاره على شبيب الخارجي بتوليته الري ثم ولاه خراسان. تولى قتيبة ولاية الري في أيام الحجاج، ثم تولى خراسان بعد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، فامتدت ولايته على سجستان وما وراء النهر حتى حدود الصين شرقاً، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين فقط حيث قتل في مدينة فرغانة في شهر ذي الحجة من عام ٩٦هـ/٧١٥م.

---

[١] انظر، خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، مصدر سابق، ص٣٨٣-٣٨٤.

٣- نهايته ووفاته: انتهت حياة هذا المجاهد الكبير نهاية حزينة أليمة، مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله ومنهم قتيبة غير حسنة، "قيل لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلع أخيه سليمان وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد، فخشي قتيبة أن يعزله سليمان فأرسل إليه رسائل يعزّيه في الوليد ويهنئه بالخلافة ويختبر نواياه نحوه، لكن سليمان لم يعزله بل أرسل له عهداً بولاية خراسان مع رسول خاص من عنده تكريماً له، لكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد فغضب الناس واستنكروا خلع سليمان وثار الجند على قتيبه فقتلوه"[١]. فعندما "بلغه موت الوليد نزع الطاعة فاختلف عليه جيشه وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسَّان، وألَّب عليه، ثم شَدَّ عليه في عشرة في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة عام ستٍّ وتسعين، وعاش ثمانياً وأربعين سنة"[٢]. أما سبب مقتل قتيبة بن مسلم فإنه لما جمع الجند والجيوش "وعزم على خلع سليمان وترك طاعته، وذكر لهم همّته وفتوحه وعدله فيهم، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى مقالته، فشرع في تأنيبهم وذمِّهم، قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرَّقوا، وعملوا على مخالفته، وسعوا في مقتله، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له: وكيع بن أبي سُود، فجمع له جموعاً كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذى الحجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق سوى ضرار بن مسلم، وكانت أُمُّه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زُرارة، فحمته أخواله، وعمرو بن مسلم وكان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ويسار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن سُود[٣]".

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٣٤.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٤١٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٩، ص١٦٧.

كان قتيبة بن مسلم من سادات الأمراء وخيارهم وكان من القادة النجباء الكبراء والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة وهدى الله تعالى على يديه خلقاً لا يُحصيهم إلا الله فأسلموا ودانوا لله عز وجل وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً، "لكن زلَّ زلة كان فيه حتفه وفعل فعلة رغم فيها أنفه وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكِّفرُ الله بها عنه من سيئاته ويمحو عنه من خطيَّاتِه والله يسامحه ويعفو عنه ويتقبَّلُ منه ما كان يكابده من مُناجزة الأعداء"[١].

د- محمد بن القاسم: (٧٢-٩٦هـ/٦٩١-٧١٤م)

١- نسبه ونشأته: هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي. "يجتمع هو والحجاج بن يوسف الثقفي في الحكم بن أبي عقيل. ولد عام ٧٢هـ/٦٩١م.

ولي أبوه القاسم بن محمد للحجاج، فنشأ محمد منذ نعومة أظفاره بين الأمراء والقادة: أبوه أمير، وابن عم أبيه الحجاج أمير العراقين. فنشأ محمد وترعرع في محيط ملائم لتنشئة القادة والأمراء، وكان له استعداد فطري متميز، وأفاده محيطه في بناء شخصيته وتكامله، لذلك ظهرت كفايته الفذة في وقت مبكر من عمره وهو لا يزال في ريعان الشباب"[٢].

٢- جهاده: عقد له الحجاج على ثغر السند وضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والإبر والمال، وأمره أن يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعد له. سار محمد فقدم الديبل، وهي قرب مدينة كراتشي الحالية يوم الجمعة، فوافته هناك سفنه التي كانت تحمل الرجال والسلاح والعتاد والمهمات، فخندق حين نزل الديبل، وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقاً يقال له: العروس، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاية المدربين على استخدامه، فدك بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر وكان على هذا المعبد دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء إذا

---

[١] المصدر السابق ذاته، ج٩، ص١٦٧-١٦٨.

[٢] خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص٢٠٩-٢١٠.

هبت الريح أطافت بالمدينة. حاصر محمد الديبل وقاتل حماتها بشدة فخرجوا إليه لكنه هزمهم حتى ردهم إلى البلد، ثم أمر بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال وكان أولهم صعوداً رجل من بني مراد من أهل الكوفة، ففتحت المدينة عنوة فاستباحها محمد ثلاثة أيام، لكن عاملها "داهر" ملك السند عليها هرب عنها سالماً، فأنزل فيها محمد أربعة آلاف من المسلمين وبنى فيها جامعها، فكان أول جامع بني في هذه المنطقة[1].

٣- صفاته: كان يساوي الناس بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء. نشر الإسلام في البلاد التي فتحها وكان أكثر من هداهم الله تعالى إلى الإسلام من أهل السند على يديه.

أحسن معاملة غير المسلمين وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وأطلق لهم حرية العبادة، وبهذه السياسة تألف قلوب كثير منهم.

كان إدارياً متميزاً بنى كثيراً من المساجد في الهند، وقيل: "إنه أول من تولى عمارتها واختطاطها. تميز بذكاء خارق وحنكة سياسية فذة، وكان سخياً كريماً شهماً غيوراً وفياً صادقاً، مؤمناً صادق الإيمان، عمل جاهداً لنشر الإسلام في ربوع السند، ونجح في ذلك أعظم النجاح، لذلك كانت نهايته المفجعة وهو في عمر الورد كارثة كبرى وخسارة فادحة للمسلمين من عرب وهنود على حد سواء"[2].

٤- نهايته ووفاته: بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنوج وهي أعظم الإمارات في شمال الهند توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٩٦هـ/٧١٥م وتولى أخوه سليمان (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٨م) الذي بدأ يغير ولاة الحجّاج، فعين على "العراق رجلاً من ألد أعداء الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمن، الذي كان الحجّاج قد قتل أخاً له اسمه آدم بن عبد الرحمن كان يرى رأي الخوارج، فقرر صالح بن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج وهو محمد بن القاسم فعزله عن السند وولى رجلاً من صنائعه وهو يزيد بن أبي كبشة، وأمره بالقبض على محمد،

---

[1] انظر، خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص٢١٠-٢١٢.

[2] المصدر السابق ذاته، ص٢٢٢.

فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه في واسط في رجال من آل أبي عقيل"[١]، وادعت ابنة ملك السند الذي قتله ابن القاسم أنه "راودها عن نفسها أو نالها قسراً، ولذا سجن في واسط وعذب، ثم تضاربت الروايات بشأنه فقيل إنه مات تحت العذاب، وقيل إنه أطلق سراحه ثم قتل، وقيل بل قتل بدسائس من أتباع داهر فاهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في ادعائها"[٢]، وهكذا انتهت حياة هذا البطل وهذا الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة.

مات محمد بن القاسم تحت التعذيب أو قتل بعد تعذيبه دون أن يشفع لهذا القائد الشاب بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكنَّ آثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره الله تعالى إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفي كل قلب رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذّة والصبر الجميل. أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء ولا نزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز، رحم الله محمد القاسم الشاب المظلوم الأمير العادل الإداري الحازم، "بكاه أهل السند من المسلمين؛ لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها وكان أكثر من هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه"[٣].

بدأت شخصيات كبيرة منذ الخطوات الأولى للفتح تعتنق الإسلام، فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقاماً لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون طالباً العفو عنه لأنه كان محسناً للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من

---

[١] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٣٦٢.

[٢] شاهين، حمدي: الدولة الأموية المفترى عليها، مصدر سابق، ص٢٠٩.

[٣] خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، مصدر سابق، ص٢٢١.

صدقه عفا عنه، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشؤون الاقتصادية بمدينة الديبل ثم أعلن الرجل إسلامه، فقربه محمد أكثر وعينه مترجماً لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه، وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند، بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين، وكان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد بن القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً، فبنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية[١]. فرحمة الله على هذا الفاتح الكبير.

هـ- أبو مسلم الخولاني: (٠٠٠-٦٢هـ/٠٠٠-٦٨١م)

١- نسبه: هو عبد الله بن ثُوَب (بضم ففتح) الخولاني الداراني، "سيد التابعين وزاهد العصر. فقيه عابد زاهد، نعته الذهبي بريحانة الشام، أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم و لم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهاجر إلى الشام"[٢].

٢- صفاته: هو مثال من عظماء الرجال في ذلك العصر الذين أسهموا في صياغة نموذج إسلامي في السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية في المجتمع وحركة الفتوحات. قال عنه الذهبي رحمه الله: سِّيد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب على الأصح، قدم المدينة وقد قُبِض النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، وكانت له مواقف محموده في صدّ الأسود العنسي الذي تنبَّأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود فأتاه بنار عظيمة، ألقي أبا مسلم فيها فلم تضُرَّه،

---

[١] انظر، عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص ٤٤٥-٤٤٧.

[٢] الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٠، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٤، ص٧٥.

فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصليِّ، فبصُر به عمر رضي الله عنه فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟ قال من اليمن. قال: ما فعل الذي حَرقُه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهمَّ نعم: فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق. فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتَّى أراني في أمة محمد من صنع به كما بإبراهيم الخليل. وكان هذا التابعي الكبير من أهل الشام في عهد معاوية رضي الله عنه وتأثر به خلق كثير بها، وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبي العاتكة قال: علَّق أبو مسلم سوْطا في المسجد، فكان يقول: أنا أولى بالسَّوط من البهائم، فإذا فتر مَشَقَ ساقيه سوطا أو سوطين. وروى أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عياناً أو النَّار عياناً ما كان عندي مستزاد. وكان إذا استسقى سُقي، وكان مستجاب الدعوة، فعن محمد بن زياد عن أبي مسلم أن امرأة خَبَّبتَ عليه امرأته فدعا عليها فعميت، فأتته فأعرضت وتابت فقال: اللهُمَّ إن كانت صادقة فاردُد بصرها فأبصرت.

٣- جهاده ووفاته: شارك رحمه الله بالجهاد في أرض الروم، وكان إذا غزا أرض الروم مروا بنهر قال: أجيزوا بسم الله، ويمر بين أيديهم فيمرون بالنهر الغَمرْ، فربما لم يبلغ الدَّوابِّ إلا الرُّكب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شيء؟ فمن ذهب له شيء فأنا ضامن له، فألقى بعضهم مخْلاته عمداً. فلما جاوزوا قال الرجل: مِخْلاتي وقعت، قال: اتَبعني فاتّبعه، فإذا بها معلَّقةٌ بعود في النهر، قال: خذها. وكان الولاة يتيَّمنون بأبي مسلم ويؤَمِّرونه على المقدِّمات.

توفي رحمه الله بأرض الروم، وكان شتا مع بُسر بن أبي أرطاة فأدركه أجله، فعاده بُسر في مرضه فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لي على من مات في هذه الغزاة فإني أرجو أن آتي بهم يوم القيامة على لوائهم، وعندما سمع معاوية رضي الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخولاني وكريب بن سيف الأنصاري[١].

---

[١] انظر، الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٧-١٤.

كان رحمه الله من أهل الحكمة فقد روي عنه في مجال الرِّضى التـام بقـضاء الله وقدره قوله: "لأن يولد لي مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شـبابه وكان أعجب ما يكون إليّ قبضه منيّ أحب إليّ من أن يكون لي الدنيا وما فيها"[1]. وهذا دليل على كمال توحيد أبي مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني حيث جاوز مرحلة الـصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة إلى مرحلة الرضى بقضاء الله، فاعتبر المصيبة بفقد ولـد قـد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن شباباً صلاحاً أحبّ إليه من الدنيا ومـا فيها. توفي عام ٦٢هـ/٦٨٢م.

و- عقبة بن نافع: (١ق هـ-٦٣هـ/٦٢١-٦٨٣م)

١- نسبه: هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري. ولد في حياة الـنبي صلى الله عليه وسلم ولا صحبة له.

٢- صفاته: فاتح من كبار القادة ومن القواد الأفذاذ وله مواقف، من ذلك حينما نـادى الوحوش والدواب في موقع بناء القيروان وطلب منها الرحيل فرحلت بـإذن الله تعـالى حيث قال: "فارحلوا عنّا فإنّا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلـك إلى أمر مُعْجِب، من أن السباع تخرج من الشجر وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعة، والذئب جرْوَه، والحية تحمل أولادها. ونادى في الناس: كُفُّوا عنهم حتى يرحلوا عنا، فخرج مـا فيها من الوحش والسباع والهوامّ والناس ينظرون إليها حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمَّا لم يروا منها شيئاً دخلوا. قال ابن الأثير رحمه الله: "وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى: أيتها الحيات والسباع إنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ارحلوا عنا فإنـا نـازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقـل، فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا، وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة، فبنيت، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي

---

[1] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٩.

جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقـــام فثبـــت الإســـلام فيها"[١].

عبرة بليغة في هذه القصة، فحينما نادى عقبة تلك الوحوش والدواب استجابت له وغادرت المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم نصر الإسلام ونشره في الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة، وأوقع في قلوبها الخوف منـــه، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك ورأى ذلك البربر فأسلموا.

كان نائب أفريقية لمعاوية رضي الله عنه وليزيد، وهو الـــذي أنـــشأ القـــيروان وأسكنها الناس. و"كان ذا شجاعة وحزم وديانة، لم يصح له صحبة، شهد فتح مـــصر واختط بها. وهو ابن أخي العاص بن وائل السهمي لأمه"[٢].

٣- جهاده ووفاته: شهد فتح مصر، وكان ابن خالة عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى أفريقية عام ٤٢هـــ/٦٦٢م والياً، "افتتح كثيراً من تخوم السودان وكورهـــا في طريقـــه، وعلا ذكره، فولاه معاوية رضي الله عنه أفريقية استقلالاً عام ٥٠هـــ/٦٧٠م، وسير إليه عشرة آلاف فارس فأوغل في بلاد أفريقية حتى أتى وادي القيروان فأعجبه فـــبنى فيـــه مسجداً، لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وأمر من معه فبنوا فيه مساكنهم. وعزلـــه معاوية رضي الله عنه عام ٥٥هـــ/٦٧٥م، فعاد إلى المشرق، ولما توفي معاوية رضـــي الله عنه بعثه يزيد والياً على المغرب عام ٦٢هـــ/٦٨٢م، فقصد القيروان وخرج منها بجيش كثيف ففتح حصوناً ومدناً، وصالحه أهل فزان، فسار إلى الزاب وتـــاهرت وتقـــدم إلى المغرب الأقصى فبلغ البحر المحيط وعاد، فلما كان في تهودة من أرض الـــزاب تقدمتـــه العساكر إلى القيروان وبقي في عدد قليل فطمع فيه الفرنج فأطبقوا عليه فقتلوه ومن معه، ودفن بالزاب وكانت وفاته عام ٦٣هـــ/٦٨٣م"[٣].

ز- أبو محمد البطال: (٠٠٠- ١١٣هـــ/٠٠٠- ٧٣١م)

---

[١] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨٤.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٣، ص٥٣٢.

[٣] الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج٤، ص٢٤١.

هو عبد الله البطال، أبو محمد، قائد شجاع من أمراء الحرب الشاميين في زمن بني أمية.

كان من أبطال المسلمين وأمرائهم الشاميين وكان مع جيش مسلمة بن عبد الملك وكان مقره بإنطاكية، أوطأ الروم خوفاً وذلاً.

ومن نوادر ما يحكى عن البطال أنه قال: "اتفق لي إنا أتينا قرية لنغير، فإذا بيت فيه سراج وطفل صغير يبكي، فقالت أمه أسكت، أو لأدفعنك إلى البطال فبكى وقالت: خذه يا بطال فقلت: هاته، وجرت له أعاجيب وفي الآخر أصبح في معركة مثخوناً وبه رمق فجاء الملك ليون، فقال: أبا يحيى كيف رأيت؟ قال: وما رأيت؟ كذلك الأبطال تَقتل وتُقتل، فقال: عليَّ بالأطباء، فأتوا فوجوده قد أنفذت مقاتله، فقال: هل لك حاجة؟ قال: تأمر من يثبت معي بولايتي وكفني والصلاة عليَّ ثم تطلقهم، ففعل. قتل عام ١١٢هـ/٧٣٠م وقيل١١٣هـ/٧٣١م"[١].

ح- حسان بن النعمان الغساني: (٠٠٠ - بعد ٨٦هـ/٠٠٠-بعد ٧٠٥م)

١- نسبه: هو حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني، من أولاد ملوك غسان.

٢- صفاته: "قائد من رجال السياسة والحرب، ومن المشهورين في الفتوحات الإسلامية"[٢].

كان من ملوك العرب ولي المغرب فهذَّبه وعَمَره وكان بطلاً شجاعاً مجاهداً لبيباً، ميمون النقيبة كبير القدر، وجهه معاوية رضي الله عنه في عام ٥٧هـ/٦٧٧م فصالح البربر، ورتب عليهم الخراج وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة، فلما استخلف الوليد عزله وبعث نواباً عوضه وحرضهم على الغزو فقدم حسان على الوليد بأموال عظيمة وتحف وقال يا أمير المؤمنين: "إنما ذهبت مجاهداً وما مثلي من يخون. قال: إني رادك إلى عملك. فحلف أنه لا يلي شيئاً أبداً، وكان يدعى الشيخ الأمين"[٣].

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٥، ص٢٦٩.

[٢] الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٧.

[٣] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص١٤٠.

٣- جهاده وأعماله: ولي أفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم كان عاملاً على مصر في أيام عبد الملك بن مروان. "واضطربت أفريقية بعد مقتل زهير البلوي عام ٧٦هـ/٦٩٥م فأمره عبد الملك بالتوجه إليها، فزحف بأربعين ألف مقاتل، فكانت له وقائع كثيرة مع الروم في قرطاجنة، ومع الملكة دهينا - الكاهنة البربرية – في قابس وجبل أوراس ظهرت فيها بطولته، ودانت له أفريقية كلها، وهو أول من دخلها من أمراء الشام في زمن بني أمية، وبعد أن عم الإسلام أفريقية أقام بالقيروان فجدد بناء مسجدها عام ٨٤هـ/٧٠٣م ودوّن الدواوين وولى الولاة، ثم رحل قاصداً عبد الملك بن مروان ومعه ٣٥ ألف فارس، واعتزل الأعمال في أول عهد الوليد بن عبد الملك وتوجه إلى أرض الروم غازياً فتوفي بها عام ٨٦هـ/٧٠٥م"[١].

ط- موسى بن نصير: (١٩-٩٧هـ/٦٤٠-٧١٦م)

١- نسبه ونشأته: هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء. "أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية رضي الله عنه، ونشأ موسى في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية رضي الله عنه، فغزا قبرص وبنى بها حصوناً. وخدم بني مروان ونبه شأنه وولي لهم الأعمال فكان على خراج البصرة في عهد الحجاج"[٢].

٢- جهاده: غزا أفريقية في ولاية عبد العزيز بن مروان. ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ولاه أفريقية الشمالية وما وراءها من المغرب عام ٨٨هـ/٧٠٧م فأقام بالقيروان ووجه ابنيه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر. واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة وكان قد فتحها وأسلم أهلها، وأمره بغزو شواطئ أوروبا. دخل بعدها طارق الأندلس وفتح قسماً منها. استخلف موسى على القيروان ولده عبد الله وأقبل نحو الأندلس في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، فدخل إسبانية في رمضان عام ٩٣هـ/٧١٢م سالكاً غير طريق طارق، فاحتل قرمونة وإشبيلية وعدداً من المدن بين الوادي الكبير ووادي أنس و لم يتوقف إلا

---

[١] الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٧.

[٢] المصدر السابق ذاته، ج٧، ص٣٣٠.

أمام مدينة ماردة وكانت حصينة ففقد كثيراً من رجاله في حصارها ثم استولى عليها وتابع السير إلى أن بلغ طليطلة. التقى بطارق ووجهه لإخضاع شرقي شبه الجزيرة وزحف هو غرباً واجتمعا في سرقسطة فاستوليا عليها بعد حصارها شهراً. وهكذا تم لموسى وطارق افتتاح ما بين جبل طارق وسفوح جبال البرانس في أقل من سنة، وجعل موسى يفكر في مشروع عظيم هو أن يأتي المشرق من طريق القسطنطينية بحيث يكتسح أوروبا كلها ويعود إلى سوريا عن طريق شواطئ البحر الأسود، فما كاد خبر عزمه يصل الخليفة الوليد بن عبد الملك حتى قلق على الجيش وخاف عواقب الإيغال، فكتب إلى موسى يأمره بالعودة إلى دمشق، وأطاع موسى الأمر فاستخلف ابنه عبد العزيز على قرطبة – دار إمارة الأندلس - واستصحب طارقاً معه، ووصل إلى القيروان عام ٩٥هـ/٧١٤م فولى ابنه عبد الله على أفريقية، ووصل إلى المشرق بما اجتمع له من الغنائم، فدخل مصر ومعه مئة وعشرون من الملوك وأولادهم في هيئة ما سمع بمثلها، وواصل السير إلى دمشق فدخلها عام ٩٦هـ/٧١٥م والوليد في مرض موته[١].

٣- صفاته: كان موسى بن نصير من التابعين وقد روى عن تميم الداري رضي الله عنه، و"كان عالماً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى"[٢]، ومن رجال العلم حزماً ورأياً وهمّة ونبلاً وشجاعة وإقداماً، وحين وجّه طارقاً لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث منذ بدايتها ويُهيء المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير بهمة المؤمن وإخلاص التقي ويدعو الله تعالى أن ينزل نصره على المسلمين. وكان موسى بن نصير يعتقد اعتقاداً كبيراً في أهمية الدعاء والتضرع لتحقيق النصر على الأعداء ويعتبر الدعاء من أسباب النصر التي أرشد إليها القرآن الكريم، ومارسها رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول ابن الكردبوس رحمه الله: وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مُكبًّاً على الدعاء

---

[١] انظر، الصلابي، علي محمد: الدولة الأموية، مصدر سابق، ج٢، ص٨٠-٨٣.

[٢] ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج٥، ص٣١٨.

والبكاء والتضرع لله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلم أنه هزم له جيش قط[١].

سأله سليمان يوماً: "ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُقُر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: فأخبرني عن الرُّوم؟ قال: أُسْدٌ في حصوهم عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأَوا فرصة انتهزوها، وإن رأَوْا غلبة فأُوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية غير أهم أغدر الناس. قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون. قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس. قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمَّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بإناء زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان"[٢]. قيل: "كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم"[٣]. كان من أصحاب الهمم الكبيرة، قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي لقدهم حتى أُوقفهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: "والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، و لم نر الخروج عن الطاعة والجماعة"[٤].

---

[١] انظر، الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص٦٧-٦٨.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٤٩٩.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٤٩٦.

[٤] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٤٩٩.

٤- سياسته في ولايته: استخدم موسى بن نصير عدداً من الوسائل في تـأليف القلـوب وضبط الأمور وتقوية الدولة الإسلامية، ومن هذه الوسائل:

- عتق بعض السبايا: كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنـه أن يقبل الإسلام.

- تطبيق مبدأ المساواة في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً: وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم، وتمكن موسى بهذا التصرف من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.

- التنظيم الإداري: وجد موسى بن نصير حين دخل أفريقية أنها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخـضع لـولاة أو عمال، فعمل موسى على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتـيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

- تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم اسـتكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنـه مـن غزو صقلية.

- سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بأفريقية، فهو أول أمير سك النقود بأفريقية عام ٩٥هـ/٧١٤م.

تتلخص أعمال موسى بن نصير في أفريقية حرصه على نشر الإسلام بين البربـر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة[١]، واختـار فئـة مـن أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام القرآن الكريم ومبادئ الإسلام. "أمـر العـرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين"[٢]، وترك موسى سبعين رجلاً من العرب في

---

[١] انظر، عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر، مصدر سابق، ص٢٠٥.

[٢] ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج١، ص٤٢.

"طنجة يعلمون البربر القرآن الكريم وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى"(١).
٥- وفاته: توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه إلى الحج برفقة "الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة أو في وادي القرى (العُلا حاليا) أواخر عام ٩٧هـ/٧١٦م"(٢) "وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد"(٣). توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج و"كان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه"(٤).

صلى عليه مسلمة بن عبد الملك، رضي الله عن موسى بن نصير التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار والقوي الأمين، القائد الفاتح، الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، ودعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، وفتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا، وكان من أعظم قادة الفتح الإسلامي.

مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده بقيادة المد الإسلامي المبارك وديان المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلسي) وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين.

---

(١) نور، بوخالة: الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، مصدر سابق، ج١، ص١٧٧.
(٢) الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص١٢٧.
(٣) التلمساني، أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٣.
(٤) الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص١٢٨.

الباب الرابع

أسباب انتشار الإسلام وترسيخ الفتح في العهد الأموي والآثار المترتبة عليها

- الفصل الأول: أسباب انتشار الإسلام:

أ- مشاركة عدد من العلماء في الجيوش الأموية:

١- محمد بن واسع.

٢- القاضي يحيى بن يعمر.

٣- الضحاك بن مزاحم.

ب- نشر العلم.

ج- القوة الإدارية لدى الدولة الأموية.

د- معاملة أبناء البلاد المفتوحة معاملة كريمة.

هـ- الحرص على سلامة الجيوش الإسلامية.

و- الشورى في عمليات الفتح.

ز- الاهتمام بالحدود البرية.

ح- سياسة عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تثبيت الفتح.

- الفصل الثاني: الآثار المترتبة على الفتح:

أ- الأثر الحضاري.

ب- الأثر الثقافي.

ج- انتشار الإسلام.

- خاتمة:

أ- العالم لا يحترم إلا القوي.

ب- نهاية مؤلمة.

ج- خلاصة البحث.

الباب الرابع

أسباب انتشار الإسلام وترسيخ الفتح في العهد الأموي والآثار المترتبة عليها

الفتوحات التي تمت في عهد عبد الملك بن مروان هي امتداد طبيعي للأسس المتينة والقواعد الراسخة لفقه النهوض الذي أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكمل بنائه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وكانت الأمة وكثير من حكامها يعيشون لأجل العقيدة والدعوة الإسلامية وقد انتصر المسلمون بالإسلام نفسه، فهم فهموه فهماً صحيحاً دقيقاً وطبقوه على أنفسهم فأنشأ منهم خلقاً جديداً، غيّر النفوس والقلوب والعقول، وحررها من الوثنية وعبادة غير الله وفتح أمامهم آفاق الإيمان والعمل فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها فأقاموا أمة وأنشأوا دولة كبرى وأعلنوا كلمة الله في الأرض حقاً وصدقاً، لقد صيغت هذه الأمة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على أساس واضح من الترابط بين الإسلام والإيمان والعقيدة والعمل، وفق أصفى مفهوم للتوحيد وأصدق فهم لإقامة المجتمع الإنساني واجتمع لها في إيمانها العقيدة والشريعة والأخلاق دون أن ينفصل أحدها عن الآخر، وتكامل لها مفهوم المعرفة القائم على القلب والعقل، وظلت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكل دقائقها وتفاصيلها أمام المسلمين قدوة صادقة وأسوة حسنة وقد كانت المثل الأعلى أمام القادة والمصلحين والأبطال والمجاهدين وما زالت وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وانتصر "المسلمون بقيم ومقومات ومثل كثيرة تعلموها وتربوا عليها من القرآن الكريم وهدي الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ومن أبرز هذه القيم والمقومات عقيدة سليمة، عبادة صحيحة، كتاب منير، أسوة حسنة، شريعة عادلة، أخلاق حميدة، جهاد في سبيل الله تعالى، تربية صالحة مستمرة، مفهوم شامل للحياة والمجتمع، بطولة في المواقف، وصمود في وجوه العدو وغير ذلك من القيم والمقومات"[1].

---

[1] الجندي، أنور: بماذا انتصر المسلمون، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٥-٩.

الفصل الأول

أسباب انتشار الإسلام

أ- مشاركة عدد من العلماء في الجيوش الأموية:

شارك في الفتوحات الإسلامية العديد من رجال الدعوة الإسلامية الذين ما إن تم الفتح العسكري حتى ينتشر هؤلاء العلماء بين الناس لشرح تعاليم الإسلام والتدريس في المساجد التي يبنيها القادة المسلمون لتكون منبراً للدعوة الإسلامية، ومن هؤلاء العلماء:

١- محمد بن واسع: يعد محمد بن واسع رحمه الله تعالى من العلماء المشهورين بالزهد والورع والخشوع، وهو مدرسة في معالجة أمراض النفوس وتطهير القلوب، ومن أقواله النيَّرة في الزهد والورع واليقين: "إني لأغبط رجلاً معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راض"[١]. وإذا كان محمد بن واسع يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين. وقيل إنه قال لرجل: "هل أبكاك قط سابق علم الله فيك"[٢]، يعني أن المقربين مع ما يقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر الله تعالى فيهم حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله يقلبها كيف يشاء. وقيل له كيف أصبحت؟ قال: "قريباً أجلي بعيداً أملي سِّيئاً عملي"[٣]. وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور ما بعد الموت، وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل فكيف بحال المقصرين من أمثالنا والله المستعان. وذات يوم قال رجل لمحمد بن واسع: "أوصني قال: أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا"[٤]. وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٦، ص١٢١.

[٢] المصدر السابق ذاته، ج٦، ص١٢١.

[٣] المصدر السابق ذاته، ج٦، ص١٢١.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج٦، ص١٢٠.

في طب القلوب، فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بـأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة وهي أن يكون ملكاً في الدنيا والآخرة فيتعجب الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية ثم كيف يجمع بين الأمرين فيكون ملكاً في الدنيا والآخرة، فلذلك استفهم منه استفهام تعجب فكان جواب ابن واسع له: ازهد في الدنيا". ومن كلامه التربوى العميق قوله: "ما آسى على الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قوَّمني، وصلاة في جماعة يُحمَل عني سهوُها وأفوز بفضلها، وقوتٍ من الدنيا ليس لأحد منه فيه منّة ولا لله عليَّ فيه تَبِعة"[١]. كان هذا العالم من ضمن جنود الفاتحين الذين نفع الله تعالى بهم شعوب المشرق كأهل بخارى وسمرقند وخراسان وغيرها.

٢- القاضي يحيى بن يعمر: الفقيه العلامة المقرئ، أبو سليمان العدواني البصري، قاضي مرو ويكنى أبا عدي. حدّث عن عدد من الصحابة، وقرأ القرآن على أبي الأسود الدؤلي، وكان من أوعية العلم وحملة الحجة. وقيل إنه كان أول من نقط المصاحف وذلك قبل أن يوجد تشكيل الكتابة بمدة طويلة، وكان ذا لسنٍ وفصاحة. وكان الحجاج قد نفاه فأقبل عليه الأمير قتيبة بن مسلم وولاه قضاء خراسان، فكان إذا انتقل من بلد إلى بلد استُخلف على القضاء بها. قال خليفة بن خياط: توفي يحيى بن يعمر قبل التسعين[٢].

٣- الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد، وقيل أبو القاسم، صاحب التفسير. كان من أوعية العلم وليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه، وكان له أخوان: محمد ومسلم، وكان يكون ببلخ وبسمرقند. حدّث عن عدد من الصحابة مثل: ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر، وأنس بن مالك رضي الله عنهم. وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وغيرهما في السنن. قال سفيان الثوري: كان الضحاك يُعلّم ولا يأخذ أجراً. وروى قبيصة عن قيس بن مسلم قال: كان الضحاك إذا أمسى بكى فسأل عن سبب بكائه،

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٦، ص١٢٠.

[٢] انظر، المصدر السابق ذاته، ج٤، ص٤٤١-٤٤٣.

فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي. وكان يقول: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً وتلا قول الله: (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَاب)[1] [2].

ب- نشر العلم:

اعتنى الأمويون اعتناءً بالغاً بنشر الإسلام والعلم في المناطق والبلدان التي كانوا يفتحونها، بل كانوا يأمرون أعداداً من المسلمين العرب أن ينتقلوا بعوائلهم للسكنى في الأراضي الجديدة المفتوحة، ليحتك بهم المسلمون الجدد ويتعلموا منهم الدين والعلم والخلق وسائر الأمور، هذا فضلاً عن نقل عدد من العلماء إلى الأراضي الجديدة ليقوموا بتعليم الناس وتدريسهم أمور الدين الحنيف وبخاصة الإمامة والخطابة إضافة إلى القيام بمهام القضاء. لذلك كان الجيش الإسلامي المتوجه للفتح يصطحب معه عدداً من العلماء وطلبة العلم لنشر العلم الإسلامي مع الفتح.

إن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولم يستمروا طويلاً في حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين، ولعل أول موجة نذكرها هي التي جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، واستمرت الهجرة في العهد الأموي واندمجوا تدريجياً مع الأهالي الأصليين.

ومما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام، سماحة الإسلام وجلاء عقيدة التوحيد بخلاف الأديان السماوية الأخرى كاليهودية والمسيحية أو ديانات وضعية كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من العقائد الوثنية التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة.

ج- القوة الإدارية لدى الدولة الأموية:

كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة بحيث أدركوا أن استتباب الأمن وسير الأمور سيراً حسناً في البلاد المفتوحة بما يحقق خير أهلها ومصالحهم يكمن في الأسلوب الإداري الذي سيسيرون عليه، فلم يترددوا في الاستفادة

---

[1] سورة آل عمران، آية: ٧٩.

[2] انظر، الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٤، ص٥٩٨-٦٠٠.

من النظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة سواءً كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر، أو خاضعة للفرس مثل العراق وبلاد فارس نفسها، واستفادوا من الجهاز الإداري وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيّرون دولاب العمل في البلاد، فقد كان الوالي في العهد الأموي يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإدارية والمالية والعسكرية في إقليمه، وكان المسلمون يحتفظون بمناصب القضاء والشرطة والحسبة، أما ما عدا ذلك من الوظائف الإدارية فكان المجال فيها متسعاً أمام أبناء البلاد المفتوحة في الإدارة، بل إن كثيراً منهم وصلوا إلى مناصب إدارية في ظل الحكم الإسلامي كانوا محرومين منها في ظل حكومات ما قبل الإسلام، كما هي الحال في مصر، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية، إضافة إلى المناصب العسكرية العليا ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل، وتوسع الأمويون في استخدام أهل الذمة في الإدارة مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه الدولة، فبدأوا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر[1].

د- معاملة أبناء البلاد المفتوحة معاملة كريمة:

خرّج الإسلام نماذج من القادة والجنود اتصفوا بأخلاق حميدة وقيم سامية، فرفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير، وكذلك في الهند وبخارى وسمرقند وغير ذلك من البلدان، فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد ما عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية وتكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة ولقد

---

[1] انظر، عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٣٨٢-٣٨٤.

حرص المسلمون على الوفاء بكل ما التزموا به و لم يكن هذا من حسن السياسة فقط، "فالوفاء بالعهد ليس تبرعاً من المسلمين يمنون به على الناس ولكنه مسؤولية واجبة عليهم"[١]، قال الله تعالى: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)[٢].

هـ- الحرص على سلامة الجيوش الإسلامية:

كان عبد الملك بن مروان يوصي قادته بالحذر من البيات والتيقظ، والحرص على سلامة العسكر بإقامة الحرس، فكان قادته "لا يسيرون ولا ينزلون إلا على تعبئة ويتخذون في نزولهم الخنادق والمسالح بكل مكان مخوف والأرصاد على العقاب والشعاب"[٣]، واهتم عبد الملك بجمع الأخبار عن العدو، فلا يسير له جيش إلا سبقته "العيون لترصد أخبار العدو واستطاع قادته استمالة بعض أبناء البلاد المفتوحة ليكونوا عيوناً لهم يقدمون لهم المعلومات الصحيحة عن تحركات العدو، واستعانوا أيضاً بالتجار في هذه المهمة"[٤]، فكان لقادة الفتح عيون يجمعون لهم المعلومات على الأعداء، وهذا دليل على حرص القيادة على سلامة جنودها وجيوشها.

و- الشورى في عمليات الفتح:

أوصى الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز عندما أبقاه على ولاية مصر بقوله: "وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه ولن يهلك امرؤ عن مشورة"[٥]. وأوصى أحد قواده بقوله: "لا تستعن في أمر دهمك برأي كذاب ولا معجب، فإن الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب، وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا روية تسلم"[٦]، ومما

---

[١] عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، ص٣٧٨.

[٢] سورة الإسراء، آية: ٣٤.

[٣] آل كمال، سليمان: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج١، ص١٩٨.

[٤] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٢٠٧.

[٥] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٢٨٢.

[٦] المصدر السابق ذاته، ج١، ص٢٨٢.

قاله عبد الملك في المشورة: "لأن أخطئ وقد استشرت أحب إليّ من أن أصيب وقد أستبددت برأي وأمضيته من غير مشورة لأن المقدم على رأيه يزري به أمران تصديقه رأيه الواجب عليه تكذيبه وتركه من المشورة ما يزداد به بصيرة"[١].

وحين عزم الروم بأرض القسطنطينية على غزو المسلمين وبلغ أمرهم عبد الملك بن مروان نادى في أهل الشام وجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم وهنتم عليه لتركككم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي؟"[٢].

شاور الخليفة عبد الملك بن مروان المسلمين في مرحلة الإعداد والإقرار فيبرز بذلك مبدأ الشورى في اتخاذ القرار العسكري في الإدارة العسكرية الأموية، وعمل قادة الخليفة عبد الملك بن مروان بالمشورة فيما بينهم في إدارهم للمعارك الحربية وبين القيادة العليا المركزية، وحين حضرت الخليفة عبد الملك الوفاة أوصى أبناءه بقوله: "وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز فاصدروا عن رأيه ولا تَخَلَّوا عن مشورته اتخذوه صاحباً لا تجفوه، ووزيراً لا تعصوه، فإنه من علمتم فضله ودينه وذكاء عقله فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه في كل حادث". وبانتقال الخلافة إلى ابنيه الوليد وسليمان سلكا نهجه في إدارهما العسكرية بمبدأ الشورى وأخذهما بها لدى فتوحاهم الإسلامية في مرحلة الإعداد والإقرار أو التخطيط والتنفيذ"[٣].

ز- الاهتمام بالحدود البرية:

اهتم الخليفة عبد الملك بالحدود البرية، فقام ببناء عسقلان وحصّنها ورمّم قيسارية وبنى بها بناءً كثيراً وبنى مسجدها، وقام بتجديد وترميم صور وعكا وأردبيل وبرذعه، لما لهذه الثغور من أهمية حربية، وبنى واليه الحجّاج بن يوسف مدينة واسط قاعدة عسكرية

---

[١] آل كمال، سليمان: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٣.

[٢] ابن أعثم: الفتوح، مصدر سابق، ج٧-٨، ص١٢٢.

[٣] آل كمال، سليمان: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٤.

تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة بمقدار واحد قدره خمسون فرسخاً وكان إذا أراد غزو خراسان ينزل جيش الشام على أهل الكوفة فكانوا يتأذون منهم فبنى واسطاً معسكراً لهم.

لعبت مدينة واسط دوراً مهماً في عملية الإمداد لثغور المشرق، وفي عهد عبد الملك فتح حصن سنان، من بلاد الروم حيث استفاد منه بشحنه بالجند لحماية الحدود، واهتم في إدارته العسكرية بحملات الصوائف والشواتي، فكان يوليها كبار رجالات البيت الأموي، مما يدل على حرصه وعنايته في حماية وتأمين حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، وكان من هؤلاء الأمراء ابنه الوليد، ومن أمراء البيت الأموي الذين تولوا حملات الصوائف والشواتي لعدة سنوات أخو الخليفة عبد الملك، محمد بن مروان، والذي له الأثر الجميل في مباشرة تحصين وإنشاء حصن المصيصة وشحنه بالجند، وبنائه لطُرَنْدَة* وتعزيزه إياها بالعسكر، وابنه مسلمة إضافة إلى كبار القادة أمثال يحيى بن الحكم وعثمان بن الوليد وغيرهما، واهتم الخليفة الوليد بالحدود البرية وقام بتحصينات ثغرية كالتي أنشأها بالثغور الشامية على الخط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط لحماية حدود الدولة الإسلامية من هجمات الروم، واستحداثه لأربع نقاط حصينة هي: حصن سلوقية، وإقطاعه الجند للأراضي بها لتعميرها وإلصاقهم بالثغر، وحصن بغراس وعين السلور، وبحيرتها والإسكندرونة، فأصبح هذا الخط الساحلي أكثر مناعة وحصانة في عهده من قبل، وفتح حصون كثيرة ثم شحنها بالجند المرابطين منها: حصن طُوَانة** وغيرها من الحصون، واهتم الوليد بالطرق الموصلة إلى الثغور، وقام بتسهيلها وتأمينها، وبنى القناطر لعبور الجند عليها في حملاتهم الصائفة والشاتية، واستمر والي العراق الحجّاج بن يوسف بتحصين ثغور المشرق، وعمل المراصد بها وبناء القواعد العسكرية فيها كخوارزم،

* طرندة: هي من ملطية على ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٣٧).

** طوانة: بلد بثغور المصيصة. (معجم البلدان، الحموي، ياقوت: ج٤، ص٥٢).

وشيراز وخراسان وغيرها من ثغور المشرق، واستمر الخليفة سليمان على نهج والده وأخيه في الاهتمام بالحدود البرية(١).

ح- سياسة عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تثبيت الفتح:

كان من أول أعمال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عندما ولي الخلافة، إيقاف التوسع في المناطق النائية في أطراف الدولة، وسحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله في هذا المضمار كان سحب القوات التي عُني الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة سنتين ولاقت مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وكان سليمان أغزاه إياها برّاً وبحراً فأشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم "خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس. ويروي خليفة بن خياط أنه في عام ٩٩هـ/٧١٨م حمل عمر بن عبد العزيز رحمه الله الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم وأمر من كان له هناك حميم أنه يبعث إليه وبعث معه بعثاً فأغاث الناس وأذن لهم بالقفول"(٢).

وولّى عمر بن عبد العزيز رحمه الله السمح بن مالك الخولاني على الأندلس وعهد إليه بإخلاء الأندلس من المسلمين إشفاقاً عليهم، إذ خشي "تغلب العدو عليهم لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين"(٣). غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل في الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب

(١) انظر، آل كمال، سليمان: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٩-٤٨٧.

(٢) العلي، صالح: عمر بن عبد العزيز، الرياض، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٤٠.

(٣) ابن القوطية، أبوبكر محمد بن عمر (ت: ٣٦٧هـ/٩٧٧م): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ط١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص١٢.

عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة أفريقية. وكتب في المشرق إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: "لا تسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر، اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم، ويقتصر خليفة بن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: "لا تغزُ، وتمسكوا بما في أيديكم"(1)، وكتب في جبهة السند إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلموا "وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر"(2).

لا يعني إيقاف عمر بن عبد العزيز رحمه الله التوسع القائم على استخدام المُقاتلة في الأطراف النائية للدولة، وعمله على إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التي تمتد جذورها إلى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان لها الدور الأكبر في حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن فيها والاستقرار، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمُقاتلة كانت تمسُّ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأي دولة عن مؤسسة الجيش في حفظ حدودها والمخاطر التي قد تتعرض لها، لذلك كان لا بد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار وهي مراكز إقامة المقاتلة العرب قائمة دون أن يلغيها أو يبدلها أو يدخل تعديلات في تنظيماتها السكانية والإدارية، وقضت الأحوال أن يتابع خلال مدة خلافته القصيرة استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق في عدد من الجبهات. ففي أذربيجان أغار الترك على المسلمين فقتلوا من "المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الترك فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة

---

(1) العلي، صالح: عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص١٤١.

(2) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤٢٩.

خمسون أسيراً"[١]. وأغارت الروم في البحر عام ١٠٠هـ/٧١٨م على "ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها. وفي عام ١٠١هـ/٧١٩م أغزى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص الصائفة"[٢]. وأمر بترحيل أهل طرندة وهم كارهون، "وذلك لإشفاقه عليهم من العدو، وأراد أن يهدم المصيصة لتعُّرضها لغارات الروم ثم أمسك عن ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفربّيا واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً. وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن إنطاكية من غزوات الروم المتكررة"[٣].

رغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قد حد من النشاط العسكري مع الروم، وسحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية وبعض الحصون المتقدمة في بلاد الروم، إلا أنه كان حازماً شديداً في أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم وقص عليه قصة رجل أسير في بلد الروم أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصرانية قائلين له: "إن لم تفعل سمّلت عينك، فاختار دينه على بصره فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى ملك الروم وقال له: أقسم بالله لأن لم ترسله إلي لأبعثنّ إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندي، فاستجاب ملك الروم لطلبه وبعث بالرجل إليه"[٤].

قامت سياسة عمر بن عبد العزيز رحمه الله المرحلية على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول وإحياء قلوب نفوس الشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام وتطهيرها، ولذلك بعث سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل

---

(١) العلي، صالح: عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص١٤٢.العلي، صالح: عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص١٤٢.

(٢) المصدر السابق ذاته، ص١٤٢.

(٣) الشمري، صالح حسن: العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١١٩.

(٤) المصدر السابق ذاته، ص١٣١.

الدولة الإسلامية، وللشعوب التي كانت في أشد الحاجة إلى تعاليم الإسلام، فركز جهوده على البناء الداخلي للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها، ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلا، واهتم بنشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين فاستهدف قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام.

لم يكن عمر بالإنسان الذي تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حوّل مشروعه إلى برنامج عملي قابلاً للتطبيق بعدما مهد الظروف وأحاط برامجه بالضمانات العملية وهيأ له الأسباب التي تحيله إلى واقع مشهود حين ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين كي يتيح لهم التفرغ الكامل لانجاز مشاريع فكرية دعوية، يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، "فأجرى الأرزاق على العلماء ورتب لهم الرواتب كي يتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب"[١]، فقارئ القرآن الكريم الذي حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه، والمحدّث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها، ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجتهم وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، "تتكفل به الدولة ويؤخذ من بيت المال، ونعمّا ما فعل رضي الله عنه فبذلك شجع كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة"[٢]. وكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره "مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع في أي بلد إسلامي لغرض التفقه ونشر العلم وتدريس القرآن وتلاوته"[٣]، وكتب إلى والي حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا

([1]) خليل، عماد الدين: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٨٤.

([2]) الشيخ، عبد الستار: عمر بن عبد العزيز، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٧٢.

([3]) خليل، عماد الدين: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص١٨٤.

أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله والسلام عليك. وفرض الرزق لمن يُحدّث الناس بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناقب أصحابه وللقصّاص والواعظين كذلك، فأمر رجلاً وهو بالمدينة أن "يقص على الناس، وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة"[١].

وأرسل عمر بن عبد العزيز رحمه الله العلماء إلى الأمصار والبوادي ليعلّموا أهلها شرع الله تعالى ويفقهوهم فيه، فبعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد و لم يقبل الحارث وقال: "ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً. فذُكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث"[٢].

عبّر عمر رحمه الله تعالى بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من "مرونة فكرية وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله من جهة أخرى أن يكثر أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله"[٣]. وبعث إلى مصر الإمام المفتي الثبت عالم المدينة (نافعاً) مولى ابن عمر وراويته، فعن عبد الله بن عمر: "بعث عمر بن عبد العزيز نافعاً مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين على أفريقية ليفقهوا أهلها ويعلموهم وينشروا بينهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لينالهم من الخير مثل الذي عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق وكانت معاقل العلم"[٤].

---

(1) الشيخ، عبد الستار: عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص٧٣.

(2) ابن الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص١٦٠.

(3) خليل، عماد الدين: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص١٨٤.

(4) الشيخ، عبد الستار: عمر بن عبد العزيز، مصدر سابق، ص٦٨-٦٩.

وتطلع إلى شمال أفريقية ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله تعالى، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافاً لخطته التعليمية في ذلك الإقليم، وكتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وكانت سيرته بلغتهم فأسلم "جيشبة بن داهر، والملوك تسموا له بأسماء العرب، وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك. وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم"(١)، وأرسل الرسائل إلى "ملوك ما وراء النهر يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وأما "أليون" قيصر الروم فقد بعث إليه عمر وفداً برئاسة عبد الأعلى بن أبي عمرة لدعوته إلى الإسلام"(٢). وقام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتألفة قلوبهم وذلك إتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ووضع الجزية عن أهل الذمة الذين أسلموا مما جعل أهل الذمة يقبلون على الدخول في الإسلام، برغم كل ما يرتب ذلك على بيت المال مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي حيث أرسل إليه يقول: "انظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية"(٣)، وأرسل من يدعو أهل الذمة إلى الدخول في الإسلام، فمثلاً أرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول في الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس في الإسلام طائعين "ففي خراسان أسلم نحو من أربعة آلاف ذمي على يد واليه الجراح بن عبد الله"(٤)، وأسلم في المغرب "عامة البربر على يد والي عمر على المغرب إسماعيل بن

---

(١) فيصل، ماجدة: عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٧٣.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٤١٥.

(٣) فيصل، ماجدة: عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، مصدر سابق، ص١٧٤.

4 ابن سعد: طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٦.

عبد الله بن أبي المهاجر"[1]. وذلك دليل على بعد نظر عمر في الاهتمـــام بالـــدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرهـــا إيجابية، بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمين جدداً دون أن يتكلف شهيداً أو نفقـــة لإعداد جيوش وهم رعاياه ويعيشون بين أظهر المسلمين، وبالتـــالي أولى مـــن غيرهـــم بالدعوة إلى الإسلام. وبهذا يكون الإسلام قد انتشر في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والاستمرار في أسلوب الجهاد الدعوي على أيدي علماء ربانيين تخرجوا من المدارس العلمية التي نضجت في عهد الدولة الأموية وهؤلاء العلمـــاء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى الدعوي العلمي.

(1) فيصل، ماجدة: عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، مصدر سابق، ص١٧٤.

الفصل الثاني
الآثار المترتبة على الفتح

أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس تؤمن بالله تعالى ورسله وكتبه واليوم الآخر وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فكانت أول أمة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم، فنشرت العقيدة وأقامت حضارة أضاءت بها الدنيا في وقت كان يسود العالم ظلام وبؤس وحروب طاحنة. ولا ريب أن أمة الإسلام آمنت بالعلم سبيلاً للهداية، فأصبح المسلمون جميعاً طلاب علم، وكان العلم عندهم أعظم قدراً وأرفع شأناً من المال والجاه، وحظي العلماء المسلمون بالمنزلة العظيمة عند الخلفاء والولاة. انطلق العلماء في البحث العلمي فتولدت نهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة، فتقدمت العلوم وارتقت، وبرز علماء أفذاذ من المسلمين في شتى العلوم، سطعوا في سماء الحضارة الإسلامية وكان لهم أثر كبير في الغرب الأوروبي.

وهكذا استطاع المسلمون الأوائل بقوة إيمانهم وعقيدتهم أن ينشروا الدين الإسلامي، فكونوا دولة إسلامية مترامية الأطراف تستظل بظل الإسلام وتتمتع بعدل الإسلام ومساواته بين الأجناس، ومن هنا تمكن علماء المسلمين أن يرفعوا لواء العلم فأقاموا حضارة إسلامية شامخة على أساس من العلم والمعرفة والتقوى والعدل في وقت كانت فيه أوروبا تعيش في ظلام دامس وصراع مستمر وجهل مطبق.

أ- الأثر الحضاري:

لم تختلف أسبانيا عندما فتحها المسلمون عن بقية أوروبا، في ذلك الوقت، من حيث انتشار الجهل والتخلف والفوضى بسبب النزاع الاجتماعي والانحلال الداخلي والفتن العرقية، لكنها تحولت بعد أن فتحها المسلمون إلى واحة من الاستقرار فأحيوا الأرض الميتة وعمروا المدن الخربة ونشطوا التجارة الراكدة وأنعشوا الصناعة المتأخرة حتى غدت الأندلس في ظل خلافة قرطبة أغنى الأقطار الأوروبية وأكثرها ازدحاماً بالسكان. وانصرف المسلمون نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون وابتكروا وجددوا مما أتاح

لأوروبا مورداً عذباً استساغت شرابه فظلت تنهل منه، و لم يدخر الأندلسيون وسعاً في الحصول على علوم الشرق الإسلامي، إما باستدعاء علماء المشرق وإما بسفر بعثات من عرب الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة، وإما عن طريق جمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي. وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس عندما أصبحت قرطبة عاصمة الخلفاء الأمويين من أعظم مدن العالم المتحضر، ويكفيها فخراً، في ذلك العصر، أن أهلها كانوا يستطيعون المشي في شوارعها ليلاً على ضوء المصابيح العامة، في حين ظلت مدينة لندن سبعة قرون لا يوجد في طرقاتها مصباح واحد يضيء ليلاً، وهكذا استمر نور الحضارة الإسلامية ساطعاً في الأندلس حتى امتد ليضيء أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما[١].

ويمكن أن نوضح حضارة المسلمين في الأندلس التي انتقلت إلى أوروبا فيما بعد من خلال جانبين:

الأول: التقدم المادي ونعني به العناية بشؤون الزراعة والصناعة والتجارة.

الثاني: وهو الأعمق أثراً التقدم العلمي والفني الذي انتقل من خلال الأندلس إلى أرجاء أوروبا كافة.

وتجمع المصادر كافة التي أرخت للمسلمين في الأندلس أنهم بمجرد أن حلوا بهذه الأرض استطاعوا في أقل من قرن من الزمان أن يحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا أفخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بجميع الأمم. وأكثر المسلمون من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كل مكان، ونالت الزراعة اهتماماً عظيماً، ومما يذكر للمسلمين في مجال الزراعة أنهم "أول من أدخلوا زراعة الأرز والتوت والفستق والنخيل وقصب السكر، وجلبوا إلى هناك ما كان يجهله أهل البلاد من زهور

---

[١] انظر، ياغي، إسماعيل أحمد: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٣٤-٣٥.

وورود، ولا تزال معظم أسماء الزهور المزروعة شاهداً في اللغة الأسبانية على ما استعير مباشرة من اللغة العربية"[١].

نهضت الصناعة والتجارة بفضل المسلمين في إسبانيا نهضة عظيمة وأدخلت تحسينات عديدة على الكثير من الصناعات التي كانت تصدر إلى خارج الأندلس، "فكان المسلمون يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع الحرير والجلود والسكر إلى جميع أفريقية والشرق"[٢].

أما الجانب الثاني وهو الأعمق أثراً التراث العلمي العظيم والإشعاع الحضاري الذي تركه المسلمون هناك، ومنه انبثق إلى جميع أنحاء أوروبا.

وطّد المسلمون سلطانهم في الأندلس عن طريق العلم، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون. وعندئذ لم يقنعوا بما وصل إليه إخوانهم في المشرق من تقدم بل زادوا على ذلك وابتكروا وجددوا مما أتاح لأوروبا مورداً عذباً استساغت شرابه فظلت تنهل منه، ولم يدخر أهل الأندلس وسعاً في الحصول على علوم الشرق الإسلامي عن طريق وسائل أهمها:

- استدعاء علماء المشرق إلى الأندلس.

- سفر بعثات من عرب الأندلس إلى بلاد المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة ثم العودة إلى الأندلس لنشر ما جمعوه من معارف وعلوم.

- جمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي، حتى قيل إن الخليفة الحكم الثالث استجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق والمغرب عيون التآليف والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة، فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبته الآلاف من الكتب.

---

[١] الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، الدمام، مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١٨٩.

[٢] المصدر السابق ذاته، ص١٩٠.

- ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، ذلك أن العربية في ذلك الوقت كانت هي اللغة العلمية والعالمية الأولى، لذلك قامت حركة ترجمة من اللغة العربية، فأقيم في طليطلة مركز للمترجمين بدأ منذ عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م كانت مهمته نقل أهم كتب العرب إلى اللاتينية، وكللت جهود هذا المركز بالنجاح، فتابع الغرب جهوده في عملية النقل والترجمة حتى نهاية القرن الرابع عشر للميلاد. ولم يقتصر نقل الأوروبيين على ترجمة مؤلفات علماء الإسلام إلى اللاتينية، بل قاموا بنقل كتب اليونان التي ترجمها العرب، وأضافوا إليها وصححوها إلى لغتهم الخاصة[١].

ب- الأثر الثقافي:

استفادت أوروبا من الأثر الثقافي الكبير الذي أنتجته الحضارة الإسلامية في الأندلس وذلك في مجالات عديدة، منها:

- الآداب العربية: تأثرت أوروبا بالآداب العربية تأثراً كبيراً وظهر ذلك جلياً في الفكر الأوروبي الذي تناول هذا الجانب، فيذكر "جروينباوم": أن القصص الإسلامي والأخيلة الشعرية تركت آثارها ببلاد الغرب في القرون الوسطى كما أن معظم رجال اللاهوت وفطاحل الشعراء في القرون الوسطى الأوروبية مدينون للإسلام بأكبر الفضل في ناحيتي الإلهام والمادة جميعاً"[٢]. ويشير "جب" إلى أن: "خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعراء العصور الوسطى"[٣].

أما الأثر العربي في النثر الأوروبي فليس فيه مجال للشك، فالمعروف أن العرب دونوا الكثير من القصص والمغامرات وكلها تشتمل على الخيال الواسع والإبداع مما جعلها هدفاً واضحاً لتقليد الأوروبيين، ولا تزال اللغة الأسبانية حافلة بقصص كثيرة من آداب العرب كالتفاخر والغزل وغير ذلك من الأمور التي اشتهر بها عرب الأندلس،

---

[١] انظر، الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، مصدر سابق، ص١٨٩-١٩٢.

[٢] المصدر السابق ذاته، ص١٩٩.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص١٩٩.

إضافة إلى الروايات والقصص الأدبية التي أخذت تزدهر في أوروبا الغربية قاطبة خلال القرن الثالث عشر للميلاد. هذا وقد استمرت روح الأدب الإسلامي في الأندلس بعد جلاء المسلمين عنه، وقد أشار "جب" إلى ذلك بقوله: "قل من يستطيع أن ينكر ما تمتاز به آداب الأوروبي من انبساط وخيال خصب يرجع إلى تأثر تلك الآداب بالمؤثرات العربية كما يرجع إلى ما خلفته الثقافة العربية من آثار في أهل الأندلس"[١].

- العلوم الطبية: وصلت العلوم الطبية الإسلامية إبان العصور الوسطى إلى أعلى المراحل العلمية، ففي الوقت الذي كانت فيه هذه العلوم تتقدم بخطى ثابتة وعميقة إبان ازدهار الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وتصل إلى أعلى مستوى لها، كانت أوروبا تنعدم فيها المعلومات الطبية حتى اعتبروا المرض نوعاً من الجزاء أو العقاب الإلهي لا يصح للإنسان أن يعالج أو يبرأ منه. وما عرفت أوروبا نظام المستشفيات إلا بعد احتكاكهم بالمسلمين. أما المؤلفات الإسلامية في الطب فإن أثرها في أوروبا كان عظيماً، وقد اعترف الكثير من الأوروبيين بفضل العلوم الطبية الإسلامية وأثرها فيقول "وليم أوزلر": "إن العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية وبلغت صناعة الطب عندهم مكانة وأهمية لا نجد لها مثيلاً في التاريخ"[٢]. ويضيف "ولز": "إن العرب بلغوا شأوا تفوقوا فيه على الإغريق إذ درسوا علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة وكانت طرق طبهم العلمية في نظير طرقنا الحاضرة، ولا نزال نحن إلى يومنا هذا نستعمل كثيراً من عقاقيرهم كما كان جراحوهم يعرفون فن التخدير ويجرون العمليات الجراحية"[٣].

وترجمت أوروبا كتب المسلمين الطبية ترجمة دقيقة، واشتهرت بعض المراكز الأوروبية بالترجمة لمؤلفات المسلمين الطبية عن العربية إلى اللغات الأوروبية كرسالة الرازي عن الحصبة والجدري والتي بلغت شهرة عظيمة في أوروبا. ومن الكتب المهمة التي

---

[١] الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، مصدر سابق، ص٢٠٠.

[٢] حسين، محمد كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، القاهرة، مطبوعات جامعة الدول العربية، إدارة الثقافة، د.ت، ص٢٤٨.

[٣] المصدر السابق ذاته، ص٢٤٨.

كان لها شأن عظيم في العلوم الطبية في أوروبا كتاب أبي القاسم الزهراوي "التصريف لمن عجز عن التأليف". حيث تطرق فيه الزهراوي إلى الجراحات الدقيقة وطب العيون والأسنان والولادة، وظل هذا الكتاب بمثابة المرجع الرئيس الذي اعتمد عليه الأوروبيون في الجراحة وتجبير العظام قروناً طويلة وذلك بعد ترجمته إلى اللغات اللاتينية.

- علوم الصيدلة: يشهد العالم أن علماء المسلمين كانوا أول من وضع كتب الأدوية وأول من أسس مدرسة خاصة للصيدلة، وأول من أسس الحوانيت لبيع العقاقير والأدوية. ومن مؤلفات المسلمين في هذا العلم كتاب "جامع المفردات" لابن البيطار الذي ذكر فيه: أن الغرض من هذا الكتاب استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام. أما كتاب البيروني "الصيدنة في الطب" فهو من الكتب التي يعول عليها في هذا الميدان، وتعتبر إضافة عظيمة للصيدلة، ليس في العهد الإسلامي بل لتاريخ الصيدلة في كل العصور، وقد نشر هذا الكتاب مع ترجمته الإنجليزية بكراتشي عام ٩١٨هـ/١٥١٣م وهو ذخيرة علمية ومرجعاً مهماً في الصيدلة[١].

وما يزال أثر الطب والصيدلة واضحاً إلى الآن في المجالات العلمية الأوروبية، وهناك الألفاظ والمصطلحات العلمية العربية المستخدمة في اللغات العلمية الحديثة برسمها أو ببعض تحويل فيها حيث لا يخفى أصلها ومصدرها.

- العلوم الرياضية: بلغ المسلمون في العلوم الرياضية مكانة علمية رفيعة وكانت معارفهم في هذا العلم أساساً قوياً في نهضة الحضارة الأوروبية. فكانت مؤلفات علماء الإسلام في العلوم الرياضية الركن الرئيس لتقدم أوروبا فيها فيما بعد. من ذلك استعمال الصفر، فلم يعرف الغرب استعمال الصفر إلا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر للميلاد، حتى قال "أير": "إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا. أما علم الجبر فقد أتى المسلمون فيه بالعجب العجاب، فهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف بهذا الاسم، وعنهم أخذت أوروبا هذه اللفظة ولا زالت

---

[١] انظر، الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، مصدر سابق، ص٢٠٣-٢٠٦.

تستخدم، كما هي إلى اليوم، ولا شك أن هذا الجهد العظيم للمسلمين يعود لأحد أعلام الإسلام في هذا الميدان وهو "الخوارزمي" الذي يعد أحد أشهر الأعلام في العلوم الرياضية في الشرق والغرب"(١)، وقد تمت ترجمة معظم مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية وظل الاعتماد عليها في الجامعات الأوروبية مدة طويلة.

- العلوم الفلكية: وصلت العلوم الفلكية عند المسلمين إلى أسمى درجة، وقاموا بتركيب الاسطرلاب واختراع أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة وكلها آلات تستخدم في القياسات الفلكية. ولا يكاد يخلو مصر من أمصار العالم الإسلامي إلا ويوجد فيه مرصد فلكي، وهذه المراصد والآلات كانت نواة كبرى لمراصد أوروبا فيما بعد، ومما يضاف إلى ذلك أيضاً أن "المسلمين عملوا اسطرلاباً لرصد الكواكب يوجد منه في مكتبة باريس الوطنية ثلاثة، ومن يدقق النظر في تركيبها يعلم أنها دالة على حذق كبير وأنه يصعب صنع ما هو أحسن منها في الوقت الحاضر، هذا غير الكثير من أسماء الآلات الفلكية العربية التي ما زالت تحتفظ باسمها العربي في المعاجم الأوروبية"(٢).

- علوم الجغرافيا والملاحة: وظّف علماء الإسلام إبان عصور نهضة الحضارة الإسلامية معارفهم وتطبيقها في العلوم المختلفة. وظفوا معارفهم في الفلك والرياضيات لخدمة العلوم الجغرافية فوصلوا إلى درجة عظيمة من التقدم والرقي. فبعد استيعابهم التام لمعارف اليونان في الجغرافيا لم يلبثوا أن فاقوهم، وقاموا بتصحيح ما وقع فيه جغرافيو اليونان من أخطاء كتصحيحهم خطأهم في تقدير طول البحر المتوسط. ثم نجد المؤلفات الجغرافية لعلماء المسلمين هي المعين الأصيل الذي أخذت منه أوروبا معارفها ككتاب الإدريسي "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" والمزود بأكثر من أربعين خريطة ترجم إلى اللاتينية حيث اعتمد عليه الأوروبيون أكثر من ثلاثة قرون.

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح: المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٩٦.

(٢) القاضي، مختار: أثر الدينة الإسلامية في الحضارة الغربية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ت، ص٢١٤-٢١٥.

أما عن الملاحة فإن للعرب في ارتياد البحار جهوداً عظيمة وتوصلوا إلى كشوف جغرافية عظيمة، وكان الملاح المسلم "أحمد بن ماجد" من أشهر ملاحي الإسلام، فهو الذي قاد الأوروبيين في رحلاتهم الجغرافية. إضافة إلى معرفة المسلمين للبوصلة واستخدامها في أسفارهم وعنهم عرفت أوروبا البوصلة. وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من المصطلحات البحرية التجارية المأخوذة عن اللغة العربية ظلت كما هي في اللغات الأوروبية[١].

- الفنون الإسلامية: وصلت الفنون الإسلامية بكل ألوانها إلى درجة رفيعة من التقدم والازدهار وتأثرت أوروبا بالحضارة الإسلامية في هذا المجال، ففي مجال العمارة الإسلامية العربية مثلاً نجد أنها أضافت إلى التراث الفني الأوروبي، بل والعالمي أيضاً، نظماً لم تكن معروفة من قبل كأنظمة المساجد والأضرحة والمدارس، وأدخلت على نظم المساكن والقصور والحمامات والحصون والأسوار أنظمة جديدة جعلت لها في العصور الإسلامية طابعاً مميزاً. وابتكرت العمارة الإسلامية عناصر كثيرة منها: "أشكال العقود التي كانت تقتصر في العصور القديمة على العقد الروماني النصف دائري، فأصبحت في العصور الإسلامية متعددة المظاهر والتركيب، وتأثرت العمارة الأوروبية في العصور الوسطى تأثراً بالغاً بالتقاليد المعمارية الإسلامية العربية، وكانت أولى المناطق التي ظهرت فيها قوة هذا التأثير هي شمال أسبانيا منذ أوائل القرن الرابع الهجري في مقاطعات ليون وقشتالة من جهة، وفي بلاد قطالونيا من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن العديد من الطراز الفنية المعمارية الإسلامية قد انتقلت إلى أوروبا، فنجد في مدينة واست في شمال فرنسا بوابة نقلت زخرفة عقودها نقلاً عن بوابة الفتوح بالقاهرة، وكذلك الحال في بوابتي كنيسة باريه وكنيسة شارليو في أواسط فرنسا، فإن الناظر إليهما يهيأ إليه أنه أمام بوابات في المدن المغربية. كما أن العقود المنفوخة والموجودة في المسجد الأموي بدمشق وفي بيت

---

[١] انظر، الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، مصدر سابق، ص٢١٩-٢٢٠.

الصلاة بالمسجد الجامع بالقيروان نجد لهذه العقود شبهاً في بناء الكنائس والأديرة في أوروبا التي استعانت بالفنون الإسلامية وزخارفها عند بنائها"[١].

تركت الفنون الإسلامية بأنواعها المختلفة انطباعاً عظيماً على مختلف الفنون الأوروبية وظهر ذلك في مختلف مدن أوروبا إبان العصور الوسطى.

ج- انتشار الإسلام:

الجهاد قدر هذه الأمة وهو باق في الأرض إلى قيام الساعة مادام هناك حق وباطل في الأرض، والصراع بينهما مستمر، وهذا الصراع لا يتوقف حتى قيام الساعة، ومن أدلة ذلك ما يلي:

١- إن الله تعالى اعتبر الجهاد سبباً لاقامة الدين وسبباً لاصلاح الأرض لقوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[٢]، وقال تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[٣].

٢- إن الله تعالى أمر المؤمنين بإعداد العدة لمجاهدة الكفار وإرهابهم، فلو كان الإسلام لا ينتشر إلا بالدعوة السلمية فمم يخاف الكفار؟ أمن كلام يقال باللسان فقط؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهنَّ أَحُدٌ قَبلِي، نُصِرتُ بِالرّعبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)[٤]، وهل يرعب الكفار أن يقال لهم أسلموا فإن لم تسلموا فأنتم أحرار فيما تعتقدون من عقائد وثنية وتصدون عن الإيمان بالله تعالى؟ أم كان يرعبهم الجهاد وضرب

---

[١] الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، مصدر سابق، ص٢٢٢-٢٢٣.

[٢] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

[٣] سورة الحج، الآية: ٤٠-٤١.

[٤] صحيح البخاري، ج١، ص١٢٨، رقم الحديث ٣٢٨.

الجزية والصغار مما يحملهم على الإسلام؟ وهذا هو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بإزالة المعوقات التي تعيق نشر الدعوة الإسلامية وهذا هو المقصود من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للإسلام بالحجة، ويأمر بذلك قـواده لعل الناس إذا رأوا تصميم المسلمين على بيع أرواحهم في سبيل ما يدعون إليـه تـزول عنهم الغشاوة، ويعرفون أنهم أصحاب عقيدة لا أصحاب مطامع وشهوات، ومن أصرح الأدلة على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: (لأُعطِينّ الرَايَةَ غَداً رَجُلاً يَفتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْه)، قال فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها فقال: (أَينَ عَليّ بن أَبي طَالِب). فقالوا: يشتكي من عينيه يا رسول الله، قال: (فَأَرسِلُوا إِلَيه فَأتُوني به)، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يـا رسـول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: (انفُذْ عَلى رِسلِكْ حَتَى تَنـْزِلَ بِسَاحَتِهِم ثُمّ ادعُهُم إلى الإسلاَم وَأَخْبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقّ اللهِ فِيه، فَوَاللهِ لأن يَهدِي اللهُ بِـكَ رَجُـلاً وَاحِداً خَيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُون لَكَ حُمرُ النّعَمْ)[١]، فالدعوة إلى الله تعالى مقرونـة بقـوة السلاح، ولولا تأثير قوة السلاح في الدعوة إلى الله تعالى لما فعل الرسول صلى الله عليـه وسلم ذلك وأمر به.

٤- قال صلى الله عليه وسلم: (بُعِثْتُ بَينَ يَدَي السّاعَة بِالسّيْف حَتَى يُعْبَدَ اللهُ وَحْـدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلّ رُمحِي وَجُعِل الذِلّة والصَّغَارَ عَلى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشبّهَ بِقَومٍ فَهُوَ مِنْهُم)[٢]، فهدف الدعوة الإسلامية هو نشر الإسلام وإظهاره على سائر الأديان، فلو لم يكن للسيف تأثير في ذلك لما ذكره هنا.

٥- أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى سوف يدخل كلمة الإسـلام علـى الناس عموماً إما بعز أو بذل، ولا شك أن سبب ذلك هو الجهاد، لأن الكفار لا يذلون

---

[١] صحيح البخاري، ج٣، ص١٣٥٧، رقم الحديث ٣٤٩٨.

[٢] مسند الإمام أحمد، ج٢، ص٥٠، رقم الحديث ٥١١٥.

إلا من جهاد قتالي، قال صلى الله عليه وسلم: (لَيبلُغَنّ هَذَا الأَمْر مَا بَلَغَ اللّيلُ وَالنّهَار وَلاَ يَترُكُ اللّهَ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إلاّ أَدْخلَهُ الله هَذَا الدّين بعِزّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلّ ذَلِيل عِزّاً يُعِزّ اللّهَ بِهِ الإِسلامَ وَذُلاًّ يُذِلّ اللّهُ بِهِ الكُفر)[1].

٦- اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ترك الجهاد ذلاً، والذليل لا ينشر معتقده وإنما ينشره العزيز، وهذا يستلزم أن الإسلام لا ينشر إلا بالجهاد، قال صلى الله عليه وسلم: (لَئِنْ تَرَكْتُمُ الجِهَادَ وَأَخَذْتُم بِأَذْنَابِ البَقَرِ وَتَبَايَعْتُمْ بالعِينَة لَيَلزِمَنّكُم اللهُ مَزَلّة فِي رِقَابِكُم لا تَنْفَكّ عَنْكُم حَتَى تَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَتَرجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُم عَلَيْه)[2]. والنفس البشرية تحب العز وتأنف الذل، فإذا رأى الناس ما فيه المسلمون من عز دخلوا في الإسلام، والعز لا يكون بغير جهاد غالباً، وبهذا يكون الجهاد سبباً لانتشار الإسلام وتركه سبباً لانحساره.

٧- امتشق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ومن سار على نهجهم الحسام لدعوة الناس إلى الإسلام، فإن امتنعوا عنه أو عن الجزية قاتلوهم، وظهر من الغزوات أن الكفار لا يسلمون بمجرد إبلاغهم الدعوة، وإنما يحملهم على الإسلام غالباً الخوف من المسلمين فإذا دخلوا في الإسلام وطبقت عليهم أحكامه العادلة فمنهم من يزداد يقيناً وتصديقاً ويحسن إسلامه، ومنهم من يبقى على شكه وذبذبته حتى يهلكه الله تعالى، وهذا يدل على عظيم أثر الجهاد في نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله تعالى وهيمنة الحق على الباطل.

٨- ومما يدل على تأثير الجهاد في نشر الإسلام قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع أهل الردة. فقد ارتد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أغلب العرب ما عدا أهل المسجدين مكة والمدينة. فعقد الصديق رضي الله عنه العزم على حربهم جميعاً ولو كان وحده، واستجاب له صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي خلال سنتين نشر الإسلام على كامل الجزيرة العربية. يذكر ابن كثير حوادث سنة اثنتي عشرة من الهجرة النبوية بقوله: "استهلت هذه السنة وجيوش الصديق وأمراؤه الذين بعثهم لقتال أهل الردة

---

[1] مسند الإمام أحمد، ج٤، ص١٠٣، رقم الحديث ١٦٩٩٨.

[2] مسند الإمام أحمد، ج٢، ص٤٢، رقم الحديث ٥٠٠٧.

جوالون في البلاد يميناً وشمالاً لتمهيد قواعد الإسلام وقتال الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه، ورجع الحق إلى نصابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقـــصى كالقريب الأدنى"[١].

[١] ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٦، ص٣٤٢.

خاتمة

أ- العالم لا يحترم إلا القوي:

ازداد منذ عدة سنوات زخم التعدي على الإسلام ورموزه وثوابته، فقد علم المسلمون بالهجوم الذي يشنه كثير من القادة: الساسة والمفكرين في العالم الغربي على الإسلام ووصفه بصفات جائرة غير حقيقية وغير لائقة، ثم مشاركة العسكريين بالعدوان على بلاد المسلمين، ثم العدوان على المصحف وهو كلام رب العالمين، ثم السخرية من رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم. وانتشر ذلك وشاع في العديد من الصحف والمجلات. وتصدت الشعوب المسلمة لذلك العدوان ما بين مقاطعات اقتصادية، ومؤتمرات دولية تعلن مناصرتها للإسلام والقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم، والانحياز إلى ذلك انحيازاً تاماً من غير استثناء أو تحفظ، وكل ذلك معلوم، لكن الذي ينبغي أن نفكر فيه وأن نبحث له عن إجابة هو: ما الذي جرأهم على هذه النقلة في التعامل مع العالم الإسلامي، وإظهارهم الطعن في كل ما يعظمه المسلم ويفتديه بنفسه وماله وولده؟ يهمنا أن تقف هذه الحملات الغربية الظالمة الجائرة على ديننا الحنيف، وما لم تكن لدينا القدرة على معرفة السبب الحقيقي الذي جرأهم على إظهار ما كانوا يخفونه، والعمل على تلافي ذلك السبب فلن نكون قادرين على وقف تعدياتهم.

ربما يقول البعض إن السبب في ذلك هو كفرهم وضلالهم وكرههم للإسلام والمسلمين. لكن هذا ليس هو السبب، فإن كفرهم وضلالهم وعداوتهم للإسلام أمر قديم وليس بالجديد. لكنه يبقى مع ذلك سبباً قاصراً عن تفسير انتشار ظاهرة التطاول والجرأة الشديدة التي بدأت تظهر بشكل تلفت الأنظار إليه، بحيث صار هذا من الأمور المتكررة وبأكثر من أسلوب، وفي دول متعددة وفي مستويات متفاوتة من طبقات المجتمع.

ويتلفت المؤمن يميناً وشمالاً يبحث عن مخرج من هذا المأزق، فمنهم من يدعو للقيام بمسيرات سلمية، ومنهم من يطالب بسحب السفراء، ومنهم من يدعو إلى المقاطعة

الاقتصادية، ومنهم من يطالب بالاعتذار، ومنهم من ينادي بتعميق الحوار، لكنَّ هناك خياراً مهمّاً أغفله أكثر الناس و لم يتطرقوا إليه.

إن من أعظم الأسباب التي جرأت اليهود والنصارى على إظهار التطاول على ديننا هو ذلكم الضعف الشديد والتخاذل الكبير مع إهمال التفكير في خيار امتلاك القوة الرادعة والبحث عنها وتملكها فعلاً، والتي تكون سبباً في مهابة العدو المتربص وإجباره على الاعتدال في مواقفه من هذا الدين.

يبحث العالم من حولنا بشتى دياناته وعقائده وإمكاناته عن القوة الرادعة التي تؤمِّن له حريته وقدرته على اتخاذ القرار والحفاظ على خصوصياته، وينفق في سبيلها كرائم الأموال ونفيسها، بل منهم من يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يحتكرها لنفسه ويمنع الآخرين من تملكها، أو الوصول إلى أسرار صناعتها، حتى يظل متفرداً بالقدرة على مهاجمة الآخرين وإرهابهم ومن ثم ابتزازهم.

لا ينبغي لنا ساسةً وقادةً وعلماءَ ومثقفين أن يقتصر دورنا في مواجهة الهجمة الصليبية على البحث عما يسمونه الحلول السلمية التي تخفي في طياتها ضعفاً واستسلاماً للواقع الأليم، فإن هذا وحده لن يؤدي إلا إلى مزيد من التطاول والعنجهية والهمجية.

ولنا أن نتساءل بموضوعية: أكان عُبَّاد الأوثان من الساسة والقادة والأحبار قادرين على التطاول على ديننا لو علم هؤلاء أن للمسلمين قدرة على معاقبتهم وتأديبهم التأديب الموجع؟ لم يعد المجتمع الدولي اليوم يهتم بالضعفاء حتى ولو كانوا أصحاب حق، ولا يقيم لهم وزناً ولا يلتفت إلى أنينهم وعذاباتهم، وإذا كنا نريد تعظيم حرمات الإسلام حقاً وكف أيدي العابثين فلا مناص من الدعوة إلى امتلاك القوة الرادعة التي ترهب العدو والعمل على ذلك، وهذا ما أمر الله تعالى به فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1]، فمن الناس من لا يزيدهم العفو إلا طغياناً وكِبْراً، فإذا ظهرت قوة الحق رجعت إليهم عقولهم.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

ولا شك أن تحصيل القوة الرادعة لا يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، وإنما هو بحاجة إلى إعداد جاد وطويل، بعيداً عن الاستعجال والتهور في اتخاذ المواقف التي تجر إلى كوارث، وبعيداً أيضاً عن الإهمال والتكاسل والتهاون، الذي يجر إلى كوارث أشد.

إن الجري أمام القوى الظالمة وتلبية طلباتها ومعاونتها في مشاريعها، والتلطف معها في القول والعمل لن يدْعوها إلى مراجعة نفسها والندم على جرائمها وأخطائها في حق أمتنا، بل يدعوها ذلك إلى مزيد من الظلم والغطرسة والطغيان. ولا شك أن هذا المخرج يحتاج إلى صبر ووقت، لكن صواب البدايات يؤدي إلى تحقيق النتائج المرجوة في النهايات. "فمتى نجدُّ ونجتهد ويقوم كل صاحب ولاية بما هو مطالب به في ولايته؟ ومتى تتحول مجتمعاتنا من مجتمعات لاهية عابثة يُستغرَق جل وقتها في البحث عن شهوات البطون والفروج إلى مجتمعات عاملة جادة، تسعى لكي تقوم بدورها المناط بها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، وتحقق مكانتها التي جعلها الله لها؟ لقد حان الوقت، فهل من مشمر؟"(١).

ب - نهاية مؤلمة:

سقطت الدولة الأموية، والسبب الجامع لسقوطها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى في الأمور السياسية والمالية، وقع الظلم على الأفراد، وتورط بعض الخلفاء في الترف، وحدث بينهم نزاع عظيم أدى إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله تعالى في أمور الحكم يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وتبدو آثار الابتعاد عن شرع الله في انحراف الحياة عن وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية وتتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم، قال الله تعالى: (فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم)(٢).

---

(١) مجلة البيان، التحرير، افتتاحية العدد، عدد ربيع الأول، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٤٢٨هـ/مارس ٢٠٠٧م، رقم العدد ٢٣٥، ص٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.

أدى ابتعاد أواخر خلفاء الدولة الأموية عن تحكيم الشرع إلى آثار سلبية على أفراد البيت الأموي والدولة، الذين أصيبوا بالقلق والجزع والخوف والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في ضنك من الحياة. إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذا الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم والآيات صريحة في ذلك، فالله تعالى إذا "أنعم على دولة نعمة أيا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها"[١] قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾[٢].

فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسؤولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريرة غيره، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]. ولا يحجب الله تعالى نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، وكفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً، فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزوله ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤]. "ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد، فإن الله تعالى خلق النفوس مُلهما أياها طريق الخير والشر"[٥]، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٦].

---

[١] السامرائي، نعمان: في التفسير الإسلامي للتاريخ، الأردن، مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص ٨٨.

[٢] سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

[٣] سورة البقرة، الآية: ١٣٤.

[٤] سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

[٥] خليل، عماد الدين: التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، د.ت، ص٤٧.

[٦] سورة الشمس، الآية: ٧.

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها "لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامهـــا، وعـــدة أســـباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر. ولا تـــسقط الدولة أو الحضارة لضربة واحدة بل تتظافر جملة من العوامل"[١]، وهذا ما حدث للدولة الأموية التي زالت من الوجود في المشرق الإسلامي عام ١٣٢هـــ/٧٥٠م. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

[١] السامرائي، نعمان: في التفسير الإسلامي للتاريخ، مصدر سابق، ص١٢٨.

ج- خلاصة البحث:

١- الدولة الأموية هي دولة الفتوحات.

٢- قيام الدولة الأموية كانت بعد انتهاء الخلافة الراشدة عام ٤٠هـ/٦٦٠م.

٣- حكم الدولة الأموية أسرتان: الأسرة السفيانية والأسرة المروانية.

٤- يعتبر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه المؤسس الأول للدولة الأموية، ويعتبر مروان بن الحكم المؤسس الثاني للدولة.

٥- وضع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الأسس واللبنات الأولى للنواحي الإدارية للدولة الجديدة وأنشأ عدداً من الدواوين المركزية التابعة للدولة مثل: ديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وديوان الكتبة.

٦- أنشأ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه نظام الحاجب والحرس والشرطة.

٧- طوّر عبد الملك بن مروان أنظمة إدارية جديدة، كديوان العطاء، وديوان الطراز، وديوان المظالم.

٨- اعتنى الأمويون بالجانب العسكري للدولة فخصصوا نفقات للجند وللصناعات الحربية.

٩- طوّر الأمويون النواحي العسكرية عمّا كانت عليه من قبل من خلال الشورى في إدارة حركة الفتوحات، ومركزية القيادة والإمدادات، واهتمامهم بالعيون والبريد والحدود البرية.

١٠- كان للأمويين السبق بالجانب البحري، فأنشأوا الأسطول البحري، وكانت لهم متابعة للحدود البحرية.

١١- بنى الأمويون عدداً من المدن الجديدة لتكون قاعدة عسكرية لهم من أجل الانطلاق منها إلى ما بعدها من الأراضي من أجل تثبيت عملية الفتح، مثل: واسط، وتونس، والقيروان، والرملة، وجرجان.

١٢- استخدم الأمويون عدداً من أدوات الحرب كالسيف، والرمح، والقوس، والسهم، والدرع، والبيضة، والمنجنيق، والدبابات، والرايات، والأعلام.

١٣- أدرك الأمويون ضرورة المال لتمويل عملية الفتوحات، فكان من مصادر الدخل للانفاق على الجهاد: الزكاة والجزية والخراج والعشور والصوافي وخمس الغنائم.

١٤- انحصرت ميادين الفتوحات لدى الدولة الأموية في أربعة ميادين هي: الميدان الشمالي البيزنطي، والميدان الأفريقي، والميدان الأوروبي، والميدان الآسيوي.

١٥- شمل ميدان الشمال البيزنطي محاولات الاستيلاء على القسطنطينية، والفتوح في أرمينية، والفتوح في أرض الروم، والجهاد في البحر الأبيض المتوسط.

١٦- شمل الميدان الأفريقي تونس والمغرب وليبيا، وفتح قرطاجنة.

١٧- شمل الميدان الأوروبي فتح أسبانيا والبرتغال ووصول المسلمين إلى جبال فرنسا.

١٨- شمل الميدان الآسيوي خراسان وإقليم بخارى وفتح بلاد ما وراء النهر (سمرقند) وفتح بلاد السند.

١٩- اعتنى الأمويون بالدعوة إلى الله تعالى فأنشأوا مراكز للدعوة كالمساجد والرابطات، وبعثوا الدعاة إلى المناطق المفتوحة والأقاليم لتعليم الناس عقيدة الإسلام ونشر الدعوة، ومن أشهر هذه البعثات، بعثة العشرة الذين بعثهم الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى بلاد المغرب ليفقهوا أهلها.

٢٠- مع بقاء الصور القديمة للصراع بين الحق والباطل، إلا أن الصراع الحالي له صور أخرى، ودخل الإعلام حلبة الصراع، فله دور رئيس في الدعوة إلى الله تعالى وجهاد الأعداء. وغزانا الأعداء عن طريق الإعلام، في هذه الفترة، من خلال المدارس التبشيرية، والغزو الفكري.

٢١- هيأ الله جل وتعالى للدولة الأموية قواداً أكفّاء ضربوا أروع الأمثلة، وقدموا من صور التضحية والبذل والعبقرية العسكرية ما حيروا أعداءهم في وقتهم آنذاك، مثل: مسلمة بن عبد الملك، والمهلب بن أبي صفرة، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وأبي مسلم الخولاني، وعقبة بن نافع، وأبي محمد البطال، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير.

٢٢- كان انتشار الإسلام وترسيخ الفتح في العهد الأموي بمشاركة عدد من العلماء في الجيوش الأموية، واهتمامهم بنشر العلم، والقوة الإدارية التي امتازوا بها، والمعاملة السمحة الكريمة لأبناء البلاد المفتوحة، والحرص على سلامة الجيوش الإسلامية، ووجود الشورى في عمليات الفتح، واهتمامهم بالحدود البرية، ثم سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في تثبيت الفتح.

٢٣- كان للفتح الأموي أثر حضاري وثقافي كما كان له أثر في انتشار الإسلام.

٢٤- العالم لا يحترم إلا القوي.

ثبت المصادر والمراجع والدوريات

المصادر

١- القرآن الكريم

٢- ابن الأثير، المبارك محمد بن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٣- ابن حنبل، أحمد: مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، تركيا، استانبول، المكتبة الإسلامي، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٥- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، مراجعة وتعليق عزت عبيد دعاس، حمص، دار الحديث، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

٦- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٧- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق مكتب التراث، بيروت، دار إحياء التراث العربي،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٩م، ط٤، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٨- ابن الحكم، أبو محمد عبد الله: سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت، دار العلم للملايين، د.ط، ١٣٨٧ه/١٩٦٧م.

٩- ابن القوطية، أبوبكر محمد بن عمر: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ط١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

١٠- ابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: أحكام أهل الذمة، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١١- ابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد،

بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١٢- ابن النحاس، أبو زكريا أحمد بن إبراهيم الدمشقي الدمياطي: مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
١٣- ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: مجموع الفتاوى، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٤- ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: الإيمان، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٥- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
١٦- ابن سعد، محمد بن سعد الهاشمي البصري: الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
١٧- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر، بغداد، مكتبة المثنى، نسخة عن طبعة لندن، ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م.
١٨- ابن عذاري، محمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٩- ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي: المغني، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ط١، د.ت.
٢٠- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٢١- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٢- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط١، ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م.

٢٣- الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري: النجوم الزاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت.

٢٤- الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٥- البغدادي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م.

٢٦- البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٧- البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٢٨- التلمساني، أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٢٩- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي: الوزراء والكتاب، القاهرة، دار الكتاب المصري، د.ط، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

٣٠- الحلبي، علي برهان الدين: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (إنسان العيون)، مكة المكرمة، دار الباز للنشر والتوزيع، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٣١- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت: معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٣٢- الدباغ، عبد الرحمن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣٣- الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، القاهرة، دار المعارف، ط٣، د.ت.

٣٤- الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: عيون الأخبار، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٣٥- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٣٦- السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الفكر، د.ط.
٣٧- الشافعي، محمد بن إدريس: الأم، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ط، د.ت.
٣٨- الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التفسير، بيروت، دار الفكر، د.ت.
٣٩- الشوكاني، محمد بن علي: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، بيروت، دار الجيل، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٤٠- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، بيروت، روائع التراث العربي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٤١- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلسي: سراج الملوك، الإسكندرية، المطبعة الوطنية، ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م.
٤٢- القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٤٣- القنوجي، صديق بن حسن: الروضة الندية شرح الدرر البهية، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، بيروت، المكتبة العصرية، دار الجيل، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٤٤- القوجاني، نعمة الله: تاريخ أبي زرعة، تحقيق شكر الله، دمشق، مطبوعات اللغة العربية، د.ت.
٤٥- الكاساني، أبو بكر بن مسعود: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٤٦- الكوفي، أحمد بن أعثم: الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٤٧- الكوفي، علي بن حامد بن أبي بكر: فتح السند، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤٨- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٤٩- المبرد، محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٥٠- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥١- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٥٢- أبو عمر، خليفه بن خيّاط بن أبي هبيرة الليثي: تاريخ خليفة بن خيّاط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرِّسالة، دار القلم، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٥٣- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: الخراج، بيروت، دار المعرفة، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٥٤- سلام، أبو عبيد القاسم: الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

المراجع

١- الإبياري، إبراهيم: معاوية الرجل الذي أنشأ دولة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت.

٢- البستي، انتصار لطيف حسن: التعليم في العصر الأموي، بغداد، جامعة بغداد، عام ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٣- الثعالبي، عبد العزيز: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، بيروت، دار الغرب الإسلامية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٤- الجفري، عصام هشام عيدروس: التطور الاقتصادي في العصر الأموي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٥- الجلعود، محماس عبد الله: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، الرياض، د.ن، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦- الجندي، أنور: بماذا انتصر المسلمون، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٧- الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي، دمشق، دار القلم، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٨- الحضيف، محمد عبد الرحمن: كيف تؤثر وسائل الإعلام، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٩- الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله: التاريخ الإسلامي، جدة، دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٠- الخربوطلي، علي حسن: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، القاهرة، دار المعارف، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.

١١- الخرعان، د. عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد: أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، الرياض، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٢- الخضر، أبو حفص عمر: الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق محمد صدقي

اليورنو، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٣- الدقدوقي، وفيق: الجندية في عهد الدولة الأموية، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١٤- الدوري، عبد العزيز: الضرائب في السواد في العصر الأموي، عمان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٥- الديب، عبد العظيم: نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي نظرات وتصويب، القاهرة، دار الوفاء، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٦- الرفاعي، أنور: النظم الإسلامية، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

١٧- الرفاعي، فؤاد سيد عبد الرحمن: النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، مكتبة الأهرام، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٨- الريس، محمد ضياء الدين: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، القاهرة، مطابع سجل العرب، ط٣، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

١٩- الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٠، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٠- السامرائي، نعمان: في التفسير الإسلامي للتاريخ، عمان، مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٢١- السبتي، انتصار لطيف حسين: الحياة العلمية في العراق في العصر الأموي، بغداد، جامعة بغداد، عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٢- السعيد، عبد الله عبد الرزاق مسعود: المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، عمان، دار الضياء، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢٣- السلامة، محمد عبد الله: الإعلام الإسلامي ومتغيرات العصر، مكتبة التوبة، الرياض، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٢٤- السلطاني، غانم: قتيبة بن مسلم الباهلي، بغداد، جامعة بغداد، د.ط، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٥- السماك، محمد: دور الإعلام في تكوين القناعات الإنسانية وفي التأثير على الثقافات

والمعتقدات في العالم الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٢٦- السيف، عبد الله محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٧- الشحري، محمد أحمد: العلوم والفنون الإسلامية وأثرها في تقدم أوروبا، الدمام، مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٢٨- الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، القاهرة، دار القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٢٩- الشمري، صالح حسن عيد عيسى: العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٣٠- الشيخ، عبد الستار: عمر بن عبد العزيز، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٣١- الصلابي، علي محمد: الدولة الأموية، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٣٢- الصلابي، علي محمد: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، مؤسسة أم القرى، طبعة عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٣٣- الصلابي، علي محمد: الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، الشارقة، دار الصحابة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٤- الصلابي، علي محمد: صفحات من التاريخ الإسلامية في الشمال الأفريقي، عمان، دار البيارق، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٥- العاني، عبد اللطيف عبد الرزاق: إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
٣٦- العبود، نافع توفيق: آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، بغداد، جامعة بغداد رسالة دكتوراه، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
٣٧- العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٣٨- العسلي، بسام: في الحرب الإسلامي، بيروت، دار الفكر، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م.

٣٩- العسلي، خالد: الحياة السياسية والإدارية في الحجاز في العصر الأموي، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

٤٠- العش، يوسف: الدولة الأموية، دمشق، دار الفكر، ط٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٤١- العقيلي، عمر: خلافة معاوية، الرياض، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٤٢- العلي، صالح: عمر بن عبد العزيز، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤٣- العلياني، علي بن نفيع: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، الرياض، دار طيبة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤٤- العمد، إحسان صدقي: الجذور التاريخية للأسرة الأموية، الكويت، المجلس العلمي لجامعة الكويت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٤٥- العمري، عبد العزيز إبراهيم: الفتوح الإسلامية عبر العصور، الرياض، دار اشبيليا، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٤٦- الغضبان، منير: معاوية بن أبي سفيان، دمشق، دار القلم، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٤٧- الغيث، خالد بن محمد: مرويات خلافة معاوية، جدة، دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٨- القاضي، مختار: أثر المدينة الإسلامية في الحضارة الغربية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ت.

٤٩- القرضاوي، يوسف: تاريخنا المفترى عليه، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

٥٠- الكتاني، عبد الحي: التراتيب الإدارية (نظام الحكومة النبوية)، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

٥١- المزروعي، وفاء: جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، القاهرة، دار القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٥٢- المسعودي، نجم: الدواوين في العصر الأموي، بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٥٣- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٥٤- الناطور، شحادة: تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، أربد، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٥٥- النجار، محمد الطيب: الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الهدم، ط٣، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٥٦- النعيمي، نزار محمد قادر: الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الأموية، عمان، دار الكتاب الثقافي، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٥٧- الوكيل، محمد سيد: الأمويون بين المشرق والمغرب، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٥٨- اليحيى، يحيى بن إبراهيم: الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري جمعاً وترتيباً، السعودية، الخبر، دار الهجرة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٥٩- آل كمال، سليمان بن صالح: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٦٠- أبو جيب، سعيد: مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٦١- أبوخليل، شوقي: بلاط الشهداء، دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٦٢- أبوخليل، شوقي: اليرموك، دمشق، دار الفكر، ط٤، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٦٣- أبوخليل، شوقي: حصن بابليون ذات الصواري، دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٦٤- أبوخليل، شوقي: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦٥- أبوخليل، شوقي: فتح الديبل، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٦٦- أبوخليل، شوقي: فتح سمرقند، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٦٧- أحمد، لبيد إبراهيم: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الرباط، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
٦٨- باشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى، القاهرة، دار المطبعة السلفية، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٦٩- بطاينة، محمد ضيف: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، عمان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٧٠- بوخالة نور: الإسلام والتعريب في الشمال الأفريقي، بغداد، جامعة بغداد، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٧١- حجازي، عبد الرحمن عثمان: التربية الإسلامية في القيروان، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٧٢- حسان، محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٧٣- حسين، محمد كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، القاهرة، مطبوعات جامعة الدول العربية، إدارة الثقافة، د.ت.
٧٤- حماده، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٧٥- خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، بيروت، دار ابن جزم، ط١، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م.
٧٦- خطاب، محمود شيت: قادة الفتح الإسلامي في ما وراء النهر، بيروت، دار ابن جزم، ط١، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م.
٧٧- خطاب، محمود شيت: قادة فتح السند وأفغانستان، بيروت، دار ابن جزم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٧٨- خطاب، محمود شيت: مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول ومحاصر القسطنطينية، دمشق، دار قتيبة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٧٩- خليل، عماد الدين: التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، د.ت.
٨٠- خليل، عماد الدين: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٨١- خماش، نجده: الإدارة في العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٨٢- رشيد، أرسن موسى: الشرطة في العصر الأموي، ترجمة د. أحمد مبارك البغدادي، الكويت، مكتبة السندس، ط١٤١٠،١هـ/١٩٩٠م.
٨٣- زيتون، محمد: المسلمون في المغرب والأندلس، القاهرة، دار الوفاء للطباعة، د.ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٨٤- سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، د.ط، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.
٨٥- سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب الكبير، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٨٦- سليمان، عبد الحميد حامد: انتشار الإسلام في أوروبا، الدمام، مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٨٧- سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
٨٨- شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٨٩- شاكر، محمود: الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
٩٠- شاكر، محمود: عبد الملك بن مروان وأسرته، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٩١- شاهين، حمدي: الدولة الأموية المفترى عليها، القاهرة، دار القاهرة للكتاب، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٩٢- شاهين، حمدي: الدولة والمجتمع في العصر الأموي، القاهرة، دار الوفاء، عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٩٣- شعبان، محمد عبد الحي: صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٩٤- شواط، الحسين بن محمد: مدرسة الحديث في القيروان، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٩٥- ضياء الدين، محمد: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٩٦- عابدين، بشير كمال بشير: السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، عمان، دار المأمون، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

٩٧- عاشور، سعيد عبد الفتاح: المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٩٨- عاشور، فايد حماد محمد: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي والسلوجوقي والزنكي)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٩٩- عاقل، نبيه: تاريخ خلافة بني أمية، بيروت، دار الفكر، ط٣، ١٣٩٤هـ/١٩٧٥م.

١٠٠- عبابنة، علي إبراهيم: خلافة سليمان بن عبد الملك، الأردن، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، د.ط، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١٠١- عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: العالم الإسلامي في العصر الأموي، القاهرة، دار الإتحاد التعاوني للطباعة، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٠٢- عبده، عبد الله كامل: الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وأفريقية، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

١٠٣- عواد، محمود أحمد محمد: الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، ط١،

١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
١٠٤- عويس، عبد الحليم: بنو أمية بين السقوط والانتحار، دار الصحوة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٠٥- فيصل، شكري: حركة الفتح الإسلامي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٦، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٠٦- فيصل، ماجدة: عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٠٧- قاسم، عبد الرحمن محمد: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، د.ن، ط٥، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
١٠٨- قطب، سيد: في ظلال القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
١٠٩- قطب، محمد: واقعنا المعاصر، جدة، مؤسسة المدينة للصحافة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١١٠- كمال، أحمد عادل: الطريق إلى المدائن، بيروت، دار النفائس، ط٦، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١١١- مؤنس، حسين: فجر الأندلس، القاهرة، العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
١١٢- ماجد، عبد المنعم: التاريخ السياسي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
١١٣- مصطفى، نادية محمود: الدولة الأموية دولة الفتوحات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د.ن، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
١١٤- هيكل، محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، بيروت، دار البيارق، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
١١٥- ياغي، إسماعيل أحمد: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الدوريات

١- مجلة البيان، عدد ربيع الأول، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٤٢٨هـ/مارس ٢٠٠٧م.

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ...

العلماء الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة ..

الحضور الكرام ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد ..

فإن الجهاد في سبيل الله تعالى قدر هذه الأمة، وجهاد هذه الأمة عبادة قبل أن يكون فتحاً أو تاريخاً، وقد جعل الله تعالى الجهاد في سبيله سبباً لعزّ الأمة الإسلامية وشموخها. والمسلمون اليوم محتاجون، بعدما نزلت بهم النوازل، وحلت بهم الأزمات، إلى تجديد تاريخهم الناصع المجيد.

والدولة الأموية جزء من تاريخ جهاد هذه الأمة، وكان الخليفة المسلم يحكم من الصين شرقاً حتى فرنسا غرباً، فكيف حصل هذا الإنجاز الهائل والمذهل؟ ولولا توثيق المؤرخين المسلمين كالطبري وابن كثير وغيرهما لهذا الإنجاز لقلنا أنه هذا ضرب من الخيال.

واعتَقَدَت، بكل أسف طائفة من الناس في زماننا هذا، أنه لم يكن في تاريخ الإسلام ثمة جهاد حقيقي، أو مسلمين غيورين على عقيدتهم وأعراضهم وأوطانهم إلا في زمن قصير من تاريخ الأمة. ومرجع ذلك إلى عدة أمور، منها:

- روح الانهزامية التي تعيشها فئة من المسلمين في ظل الأوضاع الحالية.
- تدخل الساسة في العصر الحديث في توجيه مسار التاريخ وتشكيله الشكلَ الخادمَ لمصالحهم، والحامي لعروشهم، وتحديد مجالاته بما لا يتعارض مع أوضاعهم السياسية.
- اعتماد الباحثين في كتاباتهم على مراجع أجنبية تتكلم بلسان الخصم، وهي غير صادقة في معظمها.

لذلك أردت أن يكون عنوان أطروحتي، لنيل درجة الدكتوراة في الدراسات الإسلامية من معهد الدعوة للدراسات الإسلامية في بيروت، (حركة الجهاد والفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية وأثرهما في الدعوة إلى الله تعالى وانتشار الإسلام).

وسبب هذا الاختيار هو أن هذه الأمة كان وما يزال لهـــا شـــأن في التـــاريخ، وحققت في الماضي مجداً حيّر العالم، يرجع إلى توجيه الأمة جمعاء: حكاماً ومحكومين إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وتميزت عن غيرها من الأمم، أنها أمة الحفظ، وأمـــة التـــدوين والتوثيق، وأمة العلم، وأمة الجهاد والتاريخ.

والدولة الأموية هي دولة الجهاد والفتوحات، وإذا كان الجهاد قد باشـــره الـــنبي صلى الله عليه وسلم، فإن الدولة الأموية التي رفعت راية الجهادِ اتسعت بشكل مـــذهل، وحققت في عمر قصير معظم الفتوحات الإسلامية بعد صدر الإسلام.

فرأيت من الواجب إبرازَ هذا الإنجازِ لأبناء هذه الأمة، ليعتزوا بتاريخهم المجيـــد، ويُنشّطوا هممهم لعل الله تعالى يرجع على أيديهم ما فقدته أمتهم اليوم من مكانة ورفعة.

واعتمدت في رسالتي على المصادر الإسلامية الموثوقة، والرسالة مكونة من:

مقدمة: أوضحت فيها سبب اختيار الموضوع، والهدف منه، والبحوث السابقة، وحدود البحث ومنهجه.

وأربعة أبواب هي كالتالي:

الباب الأول: يشملُ أربعةَ فصول أتناول فيها الدولة الأمويـــة تعريفـــاً وإدارةً، ونظامـــاً عسكرياً، وجهادها في سبيل الله تعالى.

الباب الثاني: ويضم أربعة فصول أبين فيها ميادين الفتح الإســـلامي في عهـــد الدولـــة الأموية.

الباب الثالث: المؤلف من فصلين، أتناول في أولهما الدعوة إلى الله تعالى، وفي الآخر، قادة الفتح في الدولة الأموية.

الباب الرابع: المعنون: أسباب انتشار الإسلام وترسيخ الفتح في العهد الأمـــوي والآثـــار المترتبة عليهما. والمكون من فصلين وخاتمة يخلص إلى أن العالم اليوم لا يحترم إلا القوي.

وأخيراً خلاصة البحث وهي تضيئ على ما جاء في الرسالة من نقاط.

حيث أبرزت الرسالة ما تميز به الأمويون عن غيرهم من أمور، منها:

- وضوح الفكر الجهادي عند القادة وضوحاً بيناً، إضافة إلى إحاطة القائد نفسه بنخبة من العلماء يستشيرهم ويصدر عن رأيهم.

- الإعداد الكامل للعملية الجهادية، من خلال إنشاء الدواوين التي تخدم الجهاد، إضافة إلى الإنفاق على الجند، والاهتمام بالحدود البرية والأسطول البحري، وبناء المراكز العسكرية، التي هي أشبه ما تكون بالقواعد العسكرية في عصرنا الحالي، وتنظيم الموارد المالية، من حيث حسنُ جلب الزكاة والجزية والخراج والعشور وخمس الغنائم وغيرها، وتصريفها في مجالاتها المحددة.

- عدمُ إغفال أمرِ الدعوة إلى الله تعالى لأهميتها في العملية الجهادية، فأرسلوا الدعاة والعلماء والقضاة إلى معظم البلدان المفتوحة كافة، وأشهر خبر في ذلك العلماء العشرة التابعون الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى أفريقية ليعلموا أهلها الدين والعلم.

وابتعدت في رسالتي عن السرد التاريخي لمعظم أحداث الدولة الأموية، وفصّلت بعض الشيء فيما يتعلق بالفتوحات، وركزت على أثر هذه الفتوحات في إنشاء العديد من المدن الحضارية في الشرق والغرب، التي أضحت منائر ثقافية يشع منها نور العلم والحضارة إلى الأرض قاطبة. وأبرزت دور أولئك العلماء الذين واكبوا الفتح، لإدراك القادة أن انتشار الفتح دون دعم العلماء ودعوتهم للإسلام بين أهل البلاد المفتوحة لن ينفع، بل قد يضر في بعض الأحيان.

ولا يمكن لأمتنا اليوم أن تعود لمكانتها وعزّها إلا بعودتها إلى دينها وإحياء روح الجهاد بين أبنائها، ولا بد أن يسبق ذلك أو يواكبه إعداد كامل في الميادين كافة، بدءاً من العلم والمعرفة، وانتهاءً بتصنيع السلاح والتقنية، ولن يصلح حالُ آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به حال أولها. ولا بد من استشراف المستقبل من خبرة الماضي بأدوات الحاضر وعيونه.

ومن أهم الصعوبات التي اعترضتني هي وفرة المعلومات المتناثرة في كتب التاريخ والتراجم عن الدولة الأموية، وكيفية استخراج مادة الرسالة، وانتقائها، ثم اختصارها اختصاراً غير مخل، حتى تتجمع المادة المطلوبة للموضوع.

وختاماً ..

أشكر بعد الله تعالى معهد الدعوة الجامعي، وبخاصة عميد الكلية سماحة الشيخ الوالد الدكتور **عبد الناصر جبري** حفظه الله تعالى وأطال عمره في طاعته وخدمة عقيدته.

وأشكر جزيل الشكر رئيس قسم الدراسات العليا فضيلة الدكتور **هلال درويش** الذي وجدت منه رحابة الصدر ودماثة الخلق منذ أن وطئت قدماي حرم هذه الكلية المباركة.

وأشكر خالص الشكر الأستاذين الفاضلين أعضاء لجنة المناقشة: فضيلة الدكتور **طارق خليل السعدي**، وفضيلة الدكتور **ماجد نيازي الدرويش**، اللذين تكرما تفضلاً منهما بقراءة الرسالة، وأنتظر منهما شاكراً تصويباً لخطأ، وتكميلاً لنقص، ورحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي.

وشكري الخاص وتقديري لأستاذي فضيلة الدكتور **عبد الرحمن عثمان حجازي** الذي يرجع إليه الفضل بعد الله عز وجل في إخراج هذه الرسالة بهذه الكيفية حجماً ومضموناً. فقد كان معي جزاه الله خيراً من أول الرسالة إلى آخرها، وكنت كلما أنهيت فصلاً أرسله له، فيزودني بنصائحه وتصويباته القيمة، فيختصر لي بعض الأبواب، ويحذف بعض الفصول، ولا أذيع سراً إذا قلت أن الرسالة كانت أكثر من ضعف هذا الحجم، فشذّبها واختصرها وحذف منها أشياء كثيرة، واقترح إضافة بعض الفصول والفقرات، التي لم تكن ضمن خطة البحث، وأرشدني إلى بعض المراجع وأمهات الكتب للاستفادة منها في بعض الفصول.

ولا أنكر أني استفدت من علمه وتجاربه، فله مني جزيل الشكر والتقدير، وأسأل الله العلي القدير أن يجزل له المثوبة، وأن يرفع منزلته ومنزلة أعضاء لجنة المناقشة والعاملين في الكلية في الدنيا والآخرة.

وأختم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون).

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمـــد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ...

كتبه الطالب: ناصر بن محمد بن عبد الله الأحمد
لعرض موضوع رسالته لنيل درجة الدكتوراة
في معهد الدعوة الجامعي – بيروت
يوم الاثنين ١٤/٧/٢٠٠٨م

السيرة الذاتية

الاسم: ناصر بن محمد بن عبد الله الأحمد

من مواليد مدينة "الخبر" من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

حصل على البكالوريوس في إدارة الأعمال من جامعة الملك سعود في الرياض عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

وحصل بعدها على بكالوريوس آخر في أصول الدين من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ثم حصل على الماجستير في الشريعة من جامعة البدر في باكستان عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

وهو إمام وخطيب أحد الجوامع في مدينة الخبر منذ عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

وله العديد من المشاركات العلمية في تقديم الدروس والمحاضرات في داخل المملكة وخارجها. وله مئات الأشرطة الصوتية.

وأخيراً تم افتتاح موقع على الشبكة العنكبوتية يحوي جميع إنتاجه العلمي من الخطب والدروس والمحاضرات والبحوث وغيرها . www.alahmad.com